

الرقم الدولي: 2321-7928

بدأ صدورها في 2012م

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 11 العدد: 1

يناير-مارس 2022م

مدير التحرير

د. أرنك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجو كيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دأنش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكيم

د. بشري زيدان (مصر)	د. حسن يشو (قطر)
د. عامر خليل الجراح (تركيا)	د. محمد فضل الله شريف (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتصم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	محمد شفاء الرحمن المديني (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

(1) aurang11zeb@yahoo.co.in

(2) azebazmi@gmail.com

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكتبات)

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمنهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضّل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقوقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب أسلوبها في النشر.
- تعبر المقالات المنشورة عن آراء كاتبها واجتهاداتهم الشخصية.

في هذا العدد

الصفحة

7	- د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
13	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	تفسير تدبر القرآن (19)
33	- د. محمد البوسفي ود. محمد الفاضلي	دراسة تحليلية منهجية لأحداث السيرة النبوية- غزوة تبوك نموذجاً
71	- د. محمد يوسف	الألفاظ الهندية المعربة (1)
115	- د. أورنك زيب الأعظمي	شرح كلمة (خُلِّقَ) الواردة في القرآن الكريم في ضوء كلام العرب والأحاديث النبوية
133	- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: محمد شفاء الرحمن	مدرسة العلوم بعلي كره (5)
179	- عبد الغفار المدهولي ترجمة: د. هيفاء شاكري	الجامعة المليية الإسلامية (8)
197	- د. محمد فضل الله شريف	حركة الترجمة في الهند ودورها في تعزيز العلاقات العربية-الهندية
209	- د. عبد الصبور أبو بكر	دراسة تقويمية لترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردية- ترجمة كتاب "القواعد المثل في صفات الله وأسمائه الحسنى" نموذجاً (1)

مجلة الهند ————— في هذا العدد

257	- أ.د. مجيب الرحمن	رواية "الوشاح المدنس": دراسة في القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية
		استعراض كُتاب:
281	- د. عظمت الله	أشياء من ذكريات طفولتي
291	- د. يوسف عكراش	السؤال والجواب في آيات الكتاب
		ندوات علمية:
304	- د. عظمت الله	برامج الاحتفاء باليوم العالمي للغة العربية في حرم الجامعة الملكية الإسلامية
		قصائد ومنظومات:
311	- الشيخ محمد نذير خان المصطفى آبادي	تاج القصائد في مدح النواب محمد كلب علي خان

الافتتاحية

وكلّ شبابٍ أو جديدٍ إلى بلىً وكلّ امرئٍ يوماً إلى الله صائر
وكلّ قريبي ألفة لتفرّق شتاتاً وإنّ ضناً وطال التعاشر
الحقيقة الثابتة أنّ كلّ جديدٍ إلى بلىً وأنّ كلّ مَنْ وُجِدَ في هذه الدنيا سيموت. وقد
شهدنا هذه الحقيقة خلال فترة جائحة الكورونا مراراً وتكراراً وشاهدنا أنّ سوام
الموت قد جرّت روائح من أحداثه وبواكر بل كرّرت مشيها ولم يخلّ نهار منا أو ليل
إلا وحملنا على أكفّنا جنائز متكررة.

مضت هذه الفترة مع ما جرّت فيما بيننا من أموات وأحداث وقد تنفّسنا من هذه
الجائحة ولكن لم نتنفس من نوقه العشواء التي تحبّط بيننا فتخطئ مَنْ كبر منا
وتصيب من صغر، وتارة تقصد من شبّ وحتى لا تترك أترابنا وهم في شباهم
الغض الطري.

أستاذنا البروفيسور خالد الحامدي الذي قد تمّنّى موته الكثيرون بل وحاولوا إنهاء
حياته عدة مرات ولكنه أفلت من هجماتهم وأبطل آمانياتهم كلّ مرة إلا أنه لم يفلت
من هذا الواقع المرير الذي ذكره عنتر بن شدّاد:

ومن ذا يردّ الموتَ أو يدفع القضا وضربته محتومة ليس تعثر
فقد لاقاه وهو النازل من داره ليفسح الطريق لجاره أن يخرج بسيارته. ففاجأه
الموت ورفع المملوك إلى رفيقه الأعلى الذي دعا لدينه طول عمره ولقي في إحقاق
حقّه مشاكل وتهديدات. فجعنا بهذا الحدث المؤلم ظهيرة يوم 19/يناير 2022م إذ
أوشكنا أن نفرغ من اللبسات الأخيرة للعدد الحاضر لمجلتنا العزيزة:

أتانا في الظهيرة ما برانا، من الأنباء، ما حقاً عنا

أَتَانَا أَنْ عَلَامًا تَوَلَّى أَتَانَا أَنْ مِفْضَالًا نَانَا
 لَقَدْ كَانَ الْفَقِيدَ إِذَا أَصْبَنَا دَعَانَا فَالْتَقَانَا أَوْ عَزَانَا
 وَلَمْ يَكْ يَنْهَرِ الْأَيْتَامَ قَطَّ وَيُؤْوِي أَرَامَلًا، يَخْفِي إِبَانَا
 وَلَمْ يَكْ رَاغِبًا فِي الصَّيْتِ قَطَّ وَلَمْ يَكْ حَافِلًا رَجُلًا عَلَانَا
 لَقَدْ كَانَ جَوَادًا طَوَّلَ عَمْرٍ لَذِي قَرْبَاهُ أَوْ أَحَدًا عَطَانَا
 وَكَثَا دَائِمًا نَأْتِي إِلَيْهِ لِأَمْرِ مُعْضَلٍ، بِدَعٍ، غَشَانَا
 فَقَدْ كَانَ يَرِدُّ عَلَى سَوَالٍ طَرْحَنَاهُ لِحَضْرَتِهِ، بَيَانَا
 وَأَمْضَى عَمْرَهُ يُرْضِي الْإِلَهَ وَلَمْ يُرْخِ لَأَتَامٍ عِنَانَا
 قَضَى أَيَّامَهُ طَبَقَ الْقُرْآنَ فَعَلَّه وَأَفْشَاهُ زَمَانَا

ولد البروفيسور خالد علي الحامدي، الذي سَمَّاه والده، السيد حامد علي، بالسيد محمد خالد علي وهو يعرف فيما بين الأوساط العلمية بالسيد خالد علي الحامدي، في شهر أبريل 1956م بمدينة علمية شهيرة رامبور (Rāmpūr) التي تقع بها مكتبة رضا الغنية بالخطوط العربية والفارسية. ولو أنَّ مولده كان رامبور ولكنه كان من أهالي ميران بور كتره (Mirānpūr Katra) التابعة لشاهجهان بور (Shāhjāhānpūr) (ولاية أوتارا براديش، الهند).

كان والده السيد حامد علي من كبار علماء الهند ودعاة الإسلام في هذه الديار فقد قام بترجمة التفسير (في ظلال القرآن) ونزل بمكة المكرمة لإعادة النظر في ترجمة أردوية لمعاني القرآن الكريم وأنشأ مجلة أردوية شهرية باسم (زندكي) لبث الدعوة الإسلامية في الهند وخلق جوَّ علمي إسلامي في بلادنا النائية عن مركز الإسلام، ومن إخلاص خدمته للدين القيم أنه قد وهب مجلته هذه للجماعة الإسلامية بالهند حينما احتاجت إليها، وصدورها مستمر إلى اليوم باسم (زندكئ نو) وتنشر مقالات وبحوثاً عن الإسلام والمسلمين.

بدأ البروفيسور الحامدي تعليمه من داره فعلمه والداه، وقد قصّ علينا قصصاً مفيدة من حياة أمه (السيدة عائشة بي) التي كانت أشجع امرأة وأبسلها. ومنها أنها ذات مرة كانت تقطع اللخوم بالسكين الحادّ فوق السكين خطأ على إبهامها وفصل جزءاً منها من الأصل فأخذت الجزء المقطوع وأوصلته بالأم ثم ضمدته وذهبت وحدها في هذه الحالة إلى مستشفى المدينة حيث تمت خياطته وبحمد الله قد وصل الجزء المقطوع بالأصل وشفاهها الله تعالى. ولها قصص عديدة بلغتنا عن البروفيسور الحامدي ولدها البار.

وبعد أن شدا البروفيسور حامدي من العلوم المبدئية التحق بـ (درس كاه إسلامي) بـرامبور المدرسة الإسلامية التي أقامتها الجماعة الإسلامية بـرامبور لتعلم وتدرب أبناء المسلمين تربية إسلامية خالصة.

وبعد الاستفادة منها التحق البروفيسور المرحوم بجامعة الفلاح بـلرياكنج (في أعظم كره، الهند) في صف العالمية التي نال شهادتها في 1973م ثم أتم بها شهادة الفضيلة في 1975م. وهذه المدرسة شهيرة للغاية في تعليم وتربية الشباب المسلمين تربية إسلامية. استفاد البروفيسور الحامدي من الأساتذة الذين تلمذوا على التلميذين البارزين لإمام المفسرين عبد الحميد الفراهي ألا وهما الشيخ أختر أحسن الإصلاحي والشيخ أمين أحسن الإصلاحي وهكذا فقد وفق الشرب من المنهل الصافي العذب لتعليم وتفهم القرآن الكريم، ومن ثم رأيته دائماً يشتغل بالتفكير في القرآن الكريم والعمل على إرشاداته.

وبعد التخرج من هذه المدرسة العظيمة التحق البروفيسور الحامدي بالجامعة المليية الإسلامية في صفّ البكالوريوس المتخصص في اللغة العربية وآدابها. وكان من أوائل المتخرجين من المدارس الإسلامية الذين سمح لهم بالالتحاق بالجامعة المليية الإسلامية. أتم الحامدي هذه المادة فنال شهادتها في 1979م وله قصص تاريخية كان يذكرها لنا

بين آونة وأخرى من أبرزها حبّه وتكريمه من قبل الأستاذ الهندوسي الذي كان يدرّس الثقافة الهندية بعد أن جرت مناقشات علمية ودينية بينه وبين هذا الأستاذ.

ثم التحق البروفيسور الحامدي بالماجستير في اللغة العربية وآدابها في هذه الجامعة وأتمّه في 1981م بتقدير ممتاز وحاز وسام الشاه ولي الله كما نال التقدير الممتاز في البكالوريوس وفاز بوسام الملك فيصل.

لم يتوقف البروفيسور الحامدي هنا بل واصل دراسته فالتحق بالدكتوراه في اللغة العربية وآدابها بعنوان "مساهمة الهند باللغة العربية في أدب الحديث النبوي" وأتمّها في ستة مجلدات ضخام. إنها موسوعة الحديث لما ساهمت الهنود في مجال الحديث النبوي. سننشرها قريباً إن شاء الله تعالى.

تم تعيينه كأستاذ ضيف حينما أتمّ الماجستير وثم جعل مدرّساً منظماً وترقى في هذا المنصب حتى أصبح بروفيسوراً. وتقاعد عن هذا المنصب العالي في فبراير 2021م.

كان البروفيسور خالد علي الحامدي راغباً في التأليف والتحقيق فقد جعل ينشر مقالاته وبحوثه في مختلف جرائد ومجلات الهند منها جريدة (روزنامه) اليومية وصحيفة (دعوت) النصف أسبوعية ومجلة (أفكار ملي) الشهرية ومجلة (زندكئي نو) الشهرية ومجلة (شمس الإسلام) الشهرية ومجلة (بيدار) الشهرية ومجلة (ثقافة الهند) الفصلية ومجلة (إسلام اور عصر جديد) الفصلية حتى أنشأ مجلة شهرية باللغة الأردوية في أبريل 1997م التي خدمت الإسلام وربّت المسلمين طوال 24 سنة. ومن سوء الحظ أن المنية حالت بينها وبين قراءها إذ توقف صدورها بعد وفاته.

وبجانب تدريس الطلاب وتعليمهم وتربيتهم رغب البروفيسور نفسه في تأليف الكتب وتصنيفها فصدر من قلمه السيال 19 كتاباً ورسالة من أبرزها (الدعوة الإسلامية في غير المسلمين) و(الاطلاع على الشاعر الإسلامي إقبال) و(الديانة الفيدية من وجهة نظر السوامي ديانند السرسوتي) و(العلمانية أو الإسلام) و(التعاون

مع النظام الجاهلي من وجهة النظر الإسلامية) و(نظام التكافل الاجتماعي للزكاة) و(خصائص الشعر الجاهلي في ضوء القصائد المعلقة) و(لماذا دخلت في الإسلام؟) و(إذا كان محمدٌ أسوة حسنة فلم لم يكن أسوة كاملة؟) و(تاريخ علم الحديث في الهند). كل هذه الأعمال باللغة الأردوية سوى الأخير. وله مؤلفات باللغة الهندية التي ينطقها أغلبية الهندوس في بلادنا.

كان البروفيسور الحامدي يسعى طول عمره لبيث الدعوة الإسلامية فيما بين أبناء الهند الذين لم يؤمنوا بالإسلام، كما كان يبذل قصارى جهده في إصلاح ما فسد أو إقامة ما اعوجَّ من العقائد الإسلامية في الهند، وكان ينه المسلمين على الإنترنت كما كان يشير على الدعاة المسلمين ويوقظهم من سباتهم ويقم عوجهم، ومن خلال هذه الكتابات انتقد كلاً من الجماعة الإسلامية وجماعة التبليغ والجامعة السلفية كما انتقد كل من رآه من الكُتّاب والدعاة على الخطأ أمثال العلامة وحيد الدين خان والدكتور أسرار أحمد والشيخ عناية الله السبحاني. وله تعليقات علمية بحتة على الشيخ أمين أحسن الإصلاحي والمترجمين الآخرين لمعاني القرآن الكريم.

وللبروفيسور الحامدي ثلاثة بنين وثلاث بنات توفي أحدهم في حادث قطاري إذ الآخرون أحياء وصالحون متدينون... وسننشر مقالاً شاملاً عن سيرته وأعماله في العدد القادم للمجلة إن شاء الله تعالى.

وبالنسبة لمحتويات العدد فيحتوي هذا العدد على تسعة بحوث علمية واستعراض لكتابين مهمين وتقرير للبرامج الثقافية التي عقدتها الملحقية الثقافية السعودية بنيودلهي وقصيدة عربية منسية أبرزناها من بطون الكتب العربية القديمة، وندعو الكُتّاب والباحثين أن يساهموا في العدد الخالص بسير وأعمال أساتذة اللغة العربية وكتّابها الهنود الذين توفوا في القرن العشرين في مختلف أنحاء الهند، والذي سينشر قريباً إن شاء الله تعالى.

وأخيراً نشكر كل من ساهم في هذا العدد من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيئة التحرير، وكل من كانت له جهود مضيئة في إخراج هذا العدد في صورته الحالية وتقديمه إليكم.

نسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورتك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة آل عمران)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورك زيب الأعظمي²

﴿19﴾

4- تفسير الآيات (18-22)

قد ذكر الأمر السالف بمدخل جديد وعن جهة أخرى وذلك أن الله شهد وملائكته وأولو العلم الحقيقي منذ البداية أن لا إله إلا الله، وأنه يقيم العدل والقسط، وأنه عزيز وحكيم فالدين الذي أنزله لهدى العباد وإقامتهم على العدل والقسط هو الإسلام، وهذا هو الدين الحق عند الله وهذا هو الدين الذي أرسله على أيدي أنبيائه ورسله ولكن اليهود والنصارى اختلفوا فيه عمداً من أجل البغي بينهم ونصبوا اليهودية والنصرانية مقابل الإسلام.

ثم خاطب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إذا أراد اليهود والنصارى أن يحاجوك في هذا الدين الحقيقي فلا تعبا بمعارضتهم بل قل بصراحة لأهل الكتاب وقريش على السواء إني وأصحابي قد اختاروا صراط الإسلام فليثبت في الضلالة من شاء منكم فأني لست مسؤولاً إلا عن تبليغ هذه الرسالة فالآن فوض الأمر إلى الله الذي يعرف بأحوالهم جميعاً فيجزئهم خيراً أو شراً وفق أعمالهم.

ثم وعد أهل الكتاب عن طريق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن من كذب بآيات الله

¹ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيودلهي، الهند

ومن أهرق دماء أنبيائه بدون سبب ومن أذى فقتل مصلحي الدين ومجدديه ومقيمي العدل والقسط قد آن أن يفصل عنهم فلن يفلتوا عن بطشة الله. قد بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة ولا ينهض أحد لحمايتهم ونصرهم مقابل الله جلّ جلاله.

في ضوء هذا المدخل اتل ما يلي من الآيات فقال تعالى:

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسَلُوا إِلَّا سَلَمًا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِعَايَتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيًا بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

5- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

في هذه الآية استشهد الله بملائكته وأولي العلم على توحيده وقيامه بالقسط. هذه الشهادة جاءت لثلاثة أوجه تالية:

أولها: شهادة الآفاق وتلك أن خلق هذا الكون بيد خالقه وتنظيمه يشهدان بصراحة أن خالقه واحد لا شريك له، وقد ذكر القرآن هذه الشهادة كدليل على التوحيد بتفصيل لا نحتاج إلى نقل نظائرها ثم أثبت القرآن بتنظيم الكون هذا أن خالقه قد وضع ميزاناً في كل نحو من أنحائه فلا يقدر شيء منه أن يتحرك أو يدور خلاف ما قرّر له أو يتجاوزه وهذا دليل على أن خالقه يحب العدل والقسط ولا يودّ أن يعتدي

أي مخلوق منه على هذا العدل اعتداءً ما. ولنا شواهد على هذا الواقع في القرآن، ومن أجل الإيجاز ننقل فيما يلي آية واحدة فقال تعالى:

"الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُحْسَبَانِ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝" (سورة الرحمن: 5-9)

أي يشهد هذا الكون بوجوده بأنّ خالقه يحبّ العدل والقسط ويدلّ كلّ مخلوق له من الشمس والقمر والشجر والحجر والسماء والأرض بلسان حالها أنه كما أنها لا تتجاوز ما قرّر له من الميزان فكل حركة لها محدّدة في ميزان وضع لها فكذا ينبغي للإنسان أن لا يتجاوز في كل ناحية من نواحي حياته، ما قرّره الله من الميزان له ولا يعتدي على الحدود التي عينها له.

ويأتي تاريخ الأمم والأقوام تحت هذه الشهادة الآفاقية فقد أثبت القرآن بتقديمه تاريخ الأقوام أنّ هذه الدنيا ليست بغاية بل خالقها ينظّمها تحت نظام خاص بالعدل والقسط فهو يبعث قومًا ويعزل آخر على ساحتها فيمتحنهم هل هم يستخدمون ما خيروا وما أعطوا من القوة طبقًا لقانون الله للعدل والقسط أو يختاروا طريق العدوان والتجاوز عليه فهو يرقي قومًا ما دام يستخدم ما وهب من مؤهلاته طبقًا لما قرّره الله من الحدود ولكنه حينما يسلك طريق العدوان فيعطيه فرصة لوقت محدّد ثم يهلكه من على الأرض ويقيم مقامه قومًا آخر ولقد فصلت في القرآن هذه السنة وجيء بتصريحات وتوضيحات تامة لها.

وأخراها شهادة النفس ولقد خلق الله الإنسان من حيث يشهد به توحيد الإله وقيامه بالقسط، وقد بينّا هذه الشواهد في غير موضع من كتابنا هذا كما أفردنا كتابين بهذا الموضوع بعنوان "حقيقة الشرك" و"حقيقة التوحيد" فليقرأ من يريد التفصيل على الموضوع. وطبقًا لهذا الميل الفطري للإنسان إلى التوحيد قرّر القرآن هذا الدين بـ"دين

الفطرة" فقال تعالى: "فَظَرَّتْ أَلَلَهُ الَّتِي فَظَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا" وطبقاً لهذا الميل إلى العدل يسأل القرآن منكري الجزاء "أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾" (سورة القلم: 35-36).

وثالثها هي شهادة الوحي وذلك أنّ الله قد أرسل عدداً لا يحصى من الأنبياء والرسل لبيان ما يرضى عنه وما لا يرضى به، وما يأمره وما ينهى عنه وقد أشهدهم بكونه وحيداً وقائماً بالقسط وبالتالي فقد بلغ الأنبياء هذه الشهادة إلى أمهم، وحتى الآن نجد لمحات عن هذه الشهادة في صحفهم وما حفظوه من رواياتهم الدينية ولكنهم صرفوا النظر عنها فأوقعوا أنفسهم في نظريات وعقائد تخالف التوحيد كما تعارض قيام الله بالقسط ولكن سير هذه الأمم الباطل لم ينزع هذه الصفات من الله بل يتصف بها ولا يزال متصفاً بها فنظراً لتلك الصفات نزل القرآن، كما مضى في المدخل الآنف الذكر، فرقاناً بين الحق والباطل لكي يتجلى به الصراط السوي للحق والعدل ولا يبقى لهم أيّ معذرة لبقائهم على الباطل.

اتضح من هذا التفصيل أنّ توحيد الإله وقيامه بالقسط لا يشهدهما جانب واحد بل ثلاثة جوانب؛ نظام الكون الذي خلقه هو وتاريخه، والفطرة التي خلقها ورسله. ذكر هذا الأمر بالإيجاز في هذه الآية ولكنه فصل في ثلاثين جزءاً من القرآن.

وقد أشار الله إلى شهادة الملائكة إضافة إلى شهادته. هذا ذكر واقع فالملائكة هم الذين ينفذون أمور الله في الكون ويبلغون رسالاته إلى الرسل فهم أول شاهد بتوحيده وقيامه بالقسط، وبصرف النظر عن حقيقة شهادتهم قد ذكرت شهادتهم بخصوص أنّ الحمقاء قد قرروهم شركاء لله وشفعاء لديه وهذا بالفعل ينفي التوحيد والقيام بالقسط كليهما وذلك لأنه إذا أمكن إبطال الحق وإحقاق الباطل عن طريق الشفاعة فزالت صفة قيام الله بالعدل والقسط. ولإزالة سوء الفهم هذا ذكر القرآن الكريم في غير مرة

اعتراف الملائكة بهذا الواقع ونودّ هنا أن ننقل آية واحدة مخافة التّطويل:

"وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصّٰفُّوْنَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾" (سورة الصافات: 164-166)

وقد أجرينا بحثاً مشبعاً عن الملائكة حين الحديث عن آية الإيمان في سورة البقرة.

وبعد الملائكة ذكر شهادة أولي العلم، والعلم مصطلح قرآني يراد به العلم الحقيقي الذي ينزل في الدنيا عن طريق الأنبياء والرسل وقد ناقشنا حول الموضوع في مكان آخر. وقد شهد من حمل هذا العلم في عصر من عصور التاريخ بتوحيد الإله وقيامه بالقسط فقد أشير بها إلى جماعة المصلحين والمجددين الذين ولدوا في كل عصر من عصور التاريخ والذين قد أبعدوا عن الدين الإلهي البدع والخرافات وجاهدوا أن يبنوا العقائد على التوحيد الخالص، والشرائع والأخلاق على الحق والعدل، وهؤلاء هم الذين أشير إليهم بقول "يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ ---" والذين قال فيهم إنّ أهل الكتاب لم يزالوا يقتلونهم. (سورة آل عمران: 21)

ولنلاحظ هنا نكتة حكمة الدين أنّ أولي العلم قد أحيل إليهم هنا بجانب الإحالة إلى الله والملائكة وكذا أحيل إلى العدل والقسط بجانب الإحالة إلى التوحيد فثبتت منها أهمية أولي العلم لدى الله ودرجة العدل والقسط في شرائعه فينتهي أولو العلم الحقيقي إلى جماعة الملائكة، وتعلو درجة العدل والقسط فيما بين صفات الله إلى حدّ جاء ذكرهما بعد توحيد الله فوراً.

"قَائِمًا بِالْقِسْطِ" حال من الضمير المنسوب في "أَنَّهُ" ويعني أنّ الله واحد لا شريك له ويده كل سلطان ونظام وهو يستخدم سلطانه ويقوم بالإدارة بكل عدل وقسط.

والقسط يعني الحق والعدل والإنصاف وضدّها ظلم وجور وما شابههما من الكلمات فيوجد في فكرة المرء وعمله وقوله ومعاملته ومظاهرة وأشكاله، ظاهره وباطنه، شيء

يطيع حدود خالقه الفطرية ولنعتبر هذا بالاعتدال أو مرجع العدل والقسط فإن وقع في أحد ميل قليل عن هذا فسيكون هذا خلافاً ومعارضاً للعدل والقسط، ويتغير الأساليب والتعبيرات بنسبة التغيرات المتنوعة ففي مكان نسميه بالظلم وفي آخر بقباحة الصورة، وفي ثالث بالحق وفي رابع بالجمال ولكن الواقع كما هو في كل مكان. وذلك أن الشيء المراد قد مال عن منزلته الفطرية فتبعه الفساد، وهكذا إذا انسلك بشاكلته فجاء الصلاح.

وبما أن خالق الكون هو خالق هذه الدنيا ومالكها فهو لا يحب فسادها بل يحب صلاحها فلقد أحكم نظامه التكويني من حيث لن يرى فطور فيه إذ نتقدم أيديه لإصلاحه لكيلا يخل بالقسط الذي يقوم عليه هذا المصنع، ونفس القسط يريد في نطاق حريتنا المحدودة فلما نفسد عن طريق سوء استخدام خياراتنا فهو يمهلنا ولكن لا لوقت طويل بل لمدة محددة للغاية فلا يدعه حبه للعدل أن يتركنا سدًى لكي نهريق دماء خلقه كما نشاء بل هو يقبض علينا ويصلح ما أفسدناه من جديد وذلك لأنه قائم بالقسط.

ولأجل هذا القيام بالقسط وضع قانون الجزاء ولأجله جعل سلسلة الأنبياء والصحف، وله اعتنى بالمجددين والمصلحين الذين يقومون بإصلاح ما فسد في الشرائع على حساب أنفسهم، وله أتبع عروج وزوال الأقوام الخلقين بعروجهم وزوالهم السياسيين وفوق ذلك أنه حدد، لأجل هذا القيام بالقسط، يوماً يوضع فيه الميزان الذي يبين أي عمل يستحق الجزاء وأي عمل يسبب الدخول في جهنم.

ولنلاحظ هنا نكتة أن كلمة التوحيد كررت في آية واحدة كما ألحقت صفتان مختلفتان بهما في كل مرة فقال أولاً: شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، قَائِمًا بِالْقِسْطِ" ثم قال: لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" ففي هذا الأسلوب وعيد شديد للمخاطبين من أهل

الكتاب وهو يعني أنّ الله والملائكة وأولي العلم كلهم يشهدون بأنه لا إله إلا الله وهو ليس بغافل عن أمور العالم فلم يتركهم أحراراً فيه ليفعلوا ما شاءوا ولا يستألفون عن أعمالهم بل هو سيقم العدل والقسط على الرغم مما تشتهون ولا عاصم له في ذلك اليوم ثم قال: لم لا يفعل كذلك فإنه إله واحد عزيز حكيم فتتطلب عزته وحكمته كتابهما هذه الخطوة النهائية فإن لم يفعل كذلك فهذا يعني أنه ليس بقادر ولا غيوراً عن الحق أو مثله مثل مَنْ خلق العالم عبثاً. والبديهي أنّ مثل هذا الخيال الباطل لا يسوغ عن الله جلّ جلاله.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَأَعْيُنٌ وَمَا يَحِطُّونَ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ مَّا يَدْعُونَ بِهَا بِغَيِّبٍ يَخْفَىٰ عَلَى السَّامِعِينَ وَيُظَاهَرُ عَلَى السَّامِعِينَ ۖ وَفِي هَٰذَا آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

المراد بـ"الَّذِينَ" الدين الحقيقي الذي أنزله الله لهدى عباده فإلحاق لام التعريف به مثل إلحاقها بـ"الْكَتَبَ" ولقد أوضحناه في بداية سورة البقرة.

والمراد بـ"الْعِلْمُ" هو العلم الحق الذي أنزله الله ليوضح الحق ويقطع دابر الاختلاف.

والمعنى: بما أنّ الله قائم بالعدل والقسط فقد أعطى عباده ديناً لكي يهديهم إلى طريقة صحيحة لقضاء حياتهم وهو الذي يسمّى بـ"الإسلام" الذي هو دين الله وهو ميزان العدل والقسط وهو متروّج في نظام هذا الكون التكويني وعليه خلقت فطرة الإنسان، وهو الذي أنزله على كافة أنبيائه ورسله من البداية فلم يُعطِ ديناً آخر لأحد ولكن اليهود والنصارى قد اختلفوا فيه بغياً بينهم ولأجل اختلافاتهم الكثيرة فجعلوا أديانهم الخاصة بهم باسم "اليهودية والنصرانية". لم يكن اختلافهم هذا قائماً على جهلهم عن أساس الدين بل قد ارتكبوه بعدما اتضح لهم الحق من أجل دناءة أنفسهم والبغي بينهم وخوضهم في البدع وهكذا فقد أضاعوا نعمة الله الخاصة بعدما ظفروا بها، وبما أنّ الله حيّ وقيوم وقائم بالقسط فقد أحيا نظامه للعدل والقسط أي

أبرز الإسلام من جديد إلى صورته الحقيقية الكاملة لكي يفوز الناس بالصراف المستقيم للهدى ويفلحوا في الدنيا والآخرة كليهما فإن لم يرجعوا عما اتبعوه من قبل وظلّوا مكذّبين بآيات الله فليذكروا أن الله سيأخذهم عن قريب ويحاسبهم حساباً شديداً فما أعطوا من الوقت القليل ينبغي لهم أن لا يظنوه طويلاً بل مثله مثل كلمة يحيى (عليه السلام) "الفأس موضوعة على أصول الأشجار".

وقد جاء ذكر هذا المقال في سورة البقرة فقمنا فيها بتوضيحه المفصل. ننقل تلك الآية لكي يراجع القراء ما كتبناه هناك. قال تعالى:

"كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾". (سورة البقرة: 213)

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْتُ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ
فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢١٤﴾

"أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ" تعبير عن تفويض نفسه إلى الله فالوجه أسمى وأشرف جزء من جسد المرء فلما فوّض المرء أعلى جزء من جسده فكأنه فوّض كلّ شيء، وهذا مثلاً نعبّر عن إظهار طاعة المرء عن طريق إنكاس رأسه فهذا التعبير يطوي نهاية التذلل والتواضع والتفويض فالحل يدلّ على أنه كما أنّ هذا الأسلوب قد استخدم للتعبير عن الإسلام فكذلك اتضح به روح الإسلام لكي يتنبّه به من يدّعي بالتدين ويشمّر عن ساقه لمعارضة الإسلام والمحجة ضده على أيّ شيء يذلون أقصى جهودهم.

"أمّي" كلمة تعني الجاهل عن دراسة مدرسية وكتابية ولقد استخدمت هذه الكلمة كصفة للعرب الإسماعيليين وذلك أنهم كانوا يقضون الحياة البدوية جاهلين عن

الدراسة المدرسية والكتابة المعروفة وكانت الأمية صفة مميزة لهم مقابل بني إسرائيل الذين كانوا أهل الكتاب وعسى أن هذه الكلمة قد استخدمت للعرب حين اختلاط أهل الكتاب بهم لأنّ أمية وبدوية إسماعيل وذريته المذكورتان في التوراة أيضاً ولكن يتضح أنّ استخدام هذه الكلمة لا يدلّ على تحقير العرب فقد استخدم القرآن هذه الكلمة لتمييز العرب عن أهل الكتاب ونظراً لهذه الجهة فقد لقّب النبي بـ"النبي الأمي" وكذا هذا يلحّ عن إحدى نبوءات التوراة. ولقد كانت العرب أنفسهم يستخدمون هذه الكلمة لهم، الأمر الذي يدلّ بصراحة على أنهم لم يشعروا بشيء من حقارتهم حين استخدام هذه الكلمة لهم. ويبدو من بعض الأحاديث أنّ النبي ذاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد استخدم هذه الكلمة لقومه مثل الحديث الذي جاء فيه "نحن أمة أمية ----". وإن استخدمت هذه الكلمة للتحقير في مكان ما فهي لم تأت مصطلحاً بل جاءت في معناها اللغوي فمثلاً قال تعالى "وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ".

عَاسَلَمْتُمْ: هذا الأسلوب يحتوي على الدعوة والوعيد كليهما بل هو كذلك يعبر عن الإعراض أي إن أردتم أن تسلبوا فأسلبوا وإننا لا نضيع أوقاتنا الغالية وراءكم، قد سلكنا سبيلنا والآن لا نريد أن نفقدها مرة أخرى.

والآية تعني أنّ اليهود والنصارى قد حرّفوا دين الله الإسلام بوعي حين ارتكبوا هذه الجريمة والآن هم يحاجونك عمداً في تأييد اليهودية والنصرانية ومعارضة الإسلام فهم يعرفون حق المعرفة ما هو الحق وما هو الذي تدعوهم إليه فلا فائدة في مناظرتهم وتضييع الأوقات في المباحثة معهم فقل لهم وللأُميين إني وأصحابي قد فوّضنا أنفسهم إلى الله واعتنقنا الإسلام فإن ارتضيتم عن هذا فتقدّموا واتبعوني وإن لم ترضوا فلا تتابعوني فلا نودّ أن نضيع أوقاتنا في الطيران إليكم.

ثم عَرِي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يتركهم لو آمنوا أو لم يؤمنوا واعتكفوا على سفاهتهم

فلست مسؤولاً سوى عن تبليغ الحق إليهم فقد أدت تلك المسؤولية والآن أنت بريء عما يقدمه هؤلاء من الأعمال فإن الله بصير بما يعملون ويجزيهم حسب مسعاتهم.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ»

وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ: فكما تشير كلمة "بِغَيْرِ حَقٍّ" إلى شناعة جريمة اليهود هذه لأنّ القتل بغير حق جريمة بديهية وإذا كان المقتول نبياً من الأنبياء فتزداد هذه الجريمة شناعة فكذلك هي تشير إلى عظمة الحق فهو أعلى وأسمى إلى حدّ يأتي الأنبياء تحته وقد أشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الواقع بأساليب عديدة.

والمراد من "الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ" هم المصلحون والمجدّون الذين برزوا من بين العامة وقاموا بإصلاح ما أفسده اليهود والنصارى وأدخلوه في الدين من البدع والخرافات وجاهدوا ليسيروا حياة الناس على الطريقة الحقّة التي دلّ عليها الله جلّ جلاله فردّ عليهم اليهود والنصارى مثلما فعلوا بمتبوعيه من الأنبياء والرسل فخالفوهم مستخدمين كافة حيلهم ولم يتخلّفوا عن قتل مَنْ قبضوا عليه.

وأما قوله في الآية السابقة من "وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ" وأنه يهدي من يليق بالهدى ويضلّ من يستحقّ الضلال" والآن ينكشف ما كمن في هذه المشيئة فعنّى ذلك أنّ الذين قد اعتادوا على تكذيب آيات الله وقتل أنبيائه وقتل مَنْ برز منهم من المصلحين والدعاة إلى الحق والعدل كيف أمكن لهم أن تتغيّر طبيعتهم اليوم وهل يصبرون على نظام العدل والدعاة إليه الذين لم يأل هؤلاء أيّ جهد في إفساده، وقتل مَنْ أراد القيام به والدعوة إليه فإذا اتبع الخلف سلفهم فكيف نتوقع من أولاد مَنْ قَتَلَ الأنبياء والرسل وحرّف التوراة والإنجيل عن مواضعهما أن يصبروا عليك وعلى كتابك الذي تقرّاه عليهم فما أبداه المسيح في غير موضع من الإنجيل عن اليأس عن إيمان أولاد

قاتلي الأنبياء ونجاتهم يدلّ على هذه المناسبة. نفس الشيء ذكره القرآن بأسلوبه الخاص بأنهم لا يستحقّون بشرى النجاة عن طريق اتخاذهم سبيل الإيمان فالإسلام فبشرهم بعذاب أليم.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣١﴾

"حبط العمل" يعني ضلال المحاولات والمسااعي والأعمال فلا شك أن كافة أنواع التدبّر التي عبّر عنها المسيح بغربة البعوضة وابتلاع الإبل هل تعود بشيء في الآخرة! وأما المحاولات التي كانوا يبذلونها أو الخطوات التي كانوا يتخذونها ضد القرآن والإسلام أو ضد نظام العدل والقسط فقد بشرت هذه الآية بضياها فقد ذكر في هذه الآية حبط أعمالهم في الدنيا والآخرة كما ذكر عدم إخراجهم من هذه الدلة من قبل نصيرهم سواء كان روحياً أو مادياً، والتاريخ يشهد أنّ نبوءة القرآن قد صدقت مئة بالمئة.

6- الإيمان بالقسط من أهم أركان الإيمان

أوضحنا أثناء تأويل الآيات قدر ما مسّت الحاجة إليه مما أرشدت إليه هذه الأمة في هذه الآيات ولكنّ ما أحيل إليه من صفة الله بالقيام بالقسط ضمن الإيمان الله هي من أهم أجزاء الإيمان وأما بالنسبة للإسلام فهي محيطة به من كل جانب فتتطلب أهميتها تلك أن نذكر فيما يلي بعض ما أشار إليه الإمام الفراهي من نكاتها لكي يستفيد منها من يريد التفكير في حكمة الدين؛ يرى الإمام الفراهي أنّ هذه الصفة تهم من جوانب تالية:

1. الإيمان من الأمن وهو يعني أنّ الاعتماد والاعتقاد سيّطا من دم فطرته وهذا يوجب اليقين الراسخ في وجود الله إلا أنه لا يحصل ما لم تؤمن بأنّ العقل خلق للهداية لا للضلالة أي العقل مثل ميزان قسط في الإنسان حسب فطرته ثم هذا يوجب شيئاً آخر وهو أنّ فاطر الفطرة قد بناها على أصول الحق والعدل

لأنَّ الله عدل ويحبُّ العدل ويقوم بالعدل وهذه كلها من البديهيّات دعها أن تكون من واجباتها عقلاً وهذا يعني أنَّ شيئاً لا يثبت حقاً ما لم تؤمن بكون فاطر الفطرة حقاً وعدلاً وبه ثبتت حقيقة كافة أفعاله فكما هي تلزم عقلاً فكذلك هي ثبتت خلقاً وذلك أن الله قد دخل الخير في الفكرة وأودع القلوب قبوله وتكريمه فكيف يمكن لنا أن نقرّ بالخير ولا نقرّ بأن الله يحبُّ الخير فكيف نطمئن بصحة حبنا للخير وصوابه إذا لم نطمئن قلوبنا إلى حبِّ فاطرنا للخير فلا نريد أن نرضي بتقديمنا الخير إليه لأننا نؤمن بأنه يحبُّ الخير وكذا نريد أن نصفه بالصفات الحسنة موقنين بأنَّ حبنا هذا يدلُّ على صواب فطرتنا.

2. إنَّ أصل الإيمان حبُّ الله فتؤمن بإله نحبّه ونرجو منه ونريد رضاه ولن تمكّن هذه كلها ما لم نتيقن أنه بعيد عن أيّ شوب من الظلم فهو لا ينعم إلا على مَنْ يطيعه ولا يعاقب إلا مَنْ يجدر به لأنَّ عقد أواصر الحبِّ بحاكم ظالم يعارضه فطرة الإنسان.

3. ما يثور في الفطرة من الإيمان بالله عن طريق التفكير على نعم الله وأفضاله يبني على الشكر وهو لا يلزم ما لم تؤمن بأن هذا مما يتطلبه فضل المنعم وحقه، وعلى هذا فقد اعتبر الشرك ظلماً والإيمان شكراً في القرآن الكريم، وعلى هذا فقد بنيت كافة حقيقة الحقوق على وجوب العدل. هذه حقيقة بديهية للشرعية والقانون وعلى هذا فقد بنيت كل شرعية على القسط.

4. الإيمان يسفر عن طاعة الله كما تسفر الطاعة عن رضا الله ولقد جعل الله هذه العلاقة بين الأفعال وثمارها بخلقه وتديره، وأمره كما دلّ عليها بمختلف الطرق، وبما أنَّ لنا اتكالاً تاماً على نتائج الأعمال تلك فنطيعه متكئين على وعده تعالى فإن لم نتيقن أن الله لا يخالف وعده فسينقضّ أساس كافة الأعمال فلا يبقى الاتكال إلا على أحد الأمرين؛ الشفاعة الكاذبة مثل النصارى الذين يتكلمون

تماماً على المسيح الذي يعبدّه معتبرين إياه إلهاً لهم ويحبّونه أكثر من محبتهم لله أو على الهميمان التامّ مثل اليهود وعدم الاتكال على النتائج فقد أودعوا سفنهم الهواء فلم يرضوا عن حكم الله لاستكبارهم وحسدكم فكأنهم لا يؤمنون بميزان عدل عند الله بين الخير والشر، ولخروج من هذه الضلالة لا بد لنا من اليقين التام بأن الله قائم بالقسط فكل أمر مبني على العدل وكلّ وعده يتمّ الوفاء به كما قال: وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا". (سورة الأنعام: 115)

فمن يتدبر هذه الجهات الأربع يتضح له الواقع بأن الإيمان بالقسط من أهمّ أركان الإيمان وتبني عليه القضايا الجوهرية للعقائد والأخلاق والشرائع.

7- تفسير الآيات (23-27)

أولاً تعجب من حال منكري القرآن بأنه قد تكاّن توقع منهم باعتبارهم أهل الكتاب أن يقدّروا الكتاب الذي أعطي جزء منه ولكنهم أضاعوه إذا أعطوا صورته الكاملة، ويزيلوا كافة اختلافاتهم في ضوءه فيختاروا سبيل العدل والحق من جديد ولكنهم قد فعلوا ما اعتادوه فاختاروا سبيل الإعراض.

ومن ثم كشف القناع عن أهمّ سرّ في إعراضهم هذا بأنهم قد أوجدوا عقيدة بديعة لسوء فهمهم بكونهم أمة مصطفاة وتيقنوا أنهم مبعدون عن عذاب جهنم البتة؛ فلا يساقون إلى النار أولاً وإن أدخلوا فيها فلا يقيمون بها بل يواجهون عقاباً تافهاً ثم يتمّ إخراجهم منها. هذه العقيدة من محدثاتهم والتي لا علاقة لها بالواقع ولكن ضلالهم هذا قد أغفلهم عن دينهم تماماً والحال أنهم سيستلون عن كل صغير وكبير ليوم من الأيام، ومن ثم يرون رأي العين أنّ ما قدّمتموه حاضرٌ لهم وأنّ الله لم يتعصّب لهم شيئاً وأنهم أعطوا جزاء ما فعلوا بكل عدل وقسط.

ثم أعلن أن اليهود والنصارى قد عزلوا عن منصب الإمامة وتفوّض هذه الأمانة

الإلهية إلى أمة وجدها الله صالحة لها فإلك الملك هو الله وليس إلا. فله الخيار في نزعها من أحب وإعطائها لمن أحب فالعزة والدلة كلتاها بيده وهو الذي يدخل الليل في النهار وهو الذي يحيي ويميت. ذكر هذا كله بأسلوب دعائي للصحابة عن طريق النبي، أشير فيه إلى أن الذين حملون هذا الثقل يجب عليهم أن يعتبروها أمانة لله عندهم فيستعينوه في تحملها وبراءة الذمة عنها. والآن اتل الآيات التالية في ضوء هذا المدخل:

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٧﴾ فَكَيفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَن تَشَاءُ بَغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾

8- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾

وقد تحدثنا عن خطاب "أَلَمْ تَرَ" في سورة البقرة فلا يصح أن نريد به الواحد في كل مكان فيمكن أن يراد به الجماعة وفي هذه الحالة يخاطب كل فرد من أفراد جماعة على حدة ثم هذا ليس بخطاب بسيط بل يطوي بين جنبيه معنى الاستعجاب.

المراد من "نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ" التوراة والإنجيل وأما المراد من "كِتَابِ اللَّهِ" فهو القرآن

فكما هناك نسبة الجزء والكل بين الأديان السماوية السابقة ودين الإسلام فكذلك هي توجد بين الصحف السماوية الأخرى والقرآن الكريم فقد أعطيت شريعة الله تدريجياً حسب مراحل نضج العقل الإنساني ورفق المجتمع البشري فلم يعط الإنسان الشريعة الكاملة والكتاب النهائي ما لم يكن الإنسان قابلاً لتحملهما بل أعطي الكتاب طبقاً لظروفه وحاجاته ولكن هذا الكتاب كان جزءاً من الشريعة الكاملة والكتاب النهائي، الذي كان من مشاريع الله فما أرشد إليه أنبياء بني إسرائيل لم يكن خارجاً عن إرشادات النبي الخاتم ﷺ بل كان من أجزائها ما كان يوافق وعصره وظروفه وكذلك ليست التوراة والإنجيل خارجين عن القرآن الكريم بل هي صفحات من الصحيفة الكاملة التي أنزلت للأمم السابقة فالصحف السماوية كلها مثل أجزاء وأبواب لكتاب سماوي نهائي وهي يشابه بعضها البعض أصلاً وفطرة فإن لم يتم التحريف في التوراة والإنجيل فلم يكن سوى فرق الإجمال والتفصيل بينها وبين القرآن الكريم ولكن مع ذلك يسهل لمن أعطي النظرة الثاقبة تقدير أن هذه الصحف كلها أنوار مشكاة واحدة وأوراق شجرة واحدة فلم يكن صعباً لمن كان يعرف التوراة والإنجيل ويؤمن بهما معرفة القرآن لأجل التشابه بينهما شريطة أنهم لم يضعوا غشاوة العصبية والعناد على أعينهم فالكتاب الذي قد قرأوا أبوابه الابتدائية، والذي قد عرفوا طريقه وأساليبه وطبائعه، والذي قد رأوا عكوسه البدائية، وعلموه بنبوءاته وبقوا منتظرين بمن يصدقها كيف يحدث أنهم لم يعرفوه إذا برز في جماله الحقيقي وصورته النهائية، وهذا من أنكر العجب أن أهل الكتاب أعرضوا عنه وتجاهلوه عمداً.

لِيُخَكِّمَ بَيْنَهُمْ: هذا هو هدف القرآن الذي يكون أحب لأهل الكتاب إذا قدروا كتاب الله حقّ القدر فقد مضى آنفاً أن الله أنزل التوراة والإنجيل لهدايتهم ولكنهم قاموا بأنواع الاختلاف فيهما فأنزل الله القرآن فرقاناً لكي يزيل كافة الاختلافات ويبين لهم الحق مرة أخرى. أعاد نفس الشيء مرة أخرى بأنه إذا دعوا إلى هذا

الكتاب فلا يدعون لما فيه فائدة لداعيمهم بل هو مفيد لهم تماماً فهم يدعون إليه لكي يزيل لهم الاختلافات التي قد اخترعوها في الشريعة الإلهية فيستفيدوا من الشريعة التي قد فقدوها وضيعوها.

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ: "ثم" جاءت هنا للاستعجاب ولم يرد من "فريق" مَنَّهُمْ" أن شرذمة قليلة من أهل الكتاب تعرض عن هذا الكتاب وذلك لأن أهل الكتاب كلهم ارتكبوا هذه الجريمة سوى قليل منهم أسلموا كما أوضحه القرآن في غير هذا من مواضعه فقد ركز هنا على "مَنَّهُمْ" أي تنأسف على أن الفريق الذي يعرض عن القرآن من أهل الكتاب الذين كان أجدر من غيرهم بأن يسبقوا الآخرين في الإيمان به ولكنهم سبقوا في كفره بدلاً من الإيمان به.

وفي النهاية ألقى الضوء على طبيعة أهل الكتاب الجماعية بكلمة "مُعْرِضُونَ" بأن إعراضهم هذا عن الحق ليس بدعاً بل قد اعتادوا على هذا فهذه الجملة تلوم أهل الكتاب كما تعزي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمعنى أن الذين قد فطروا على الإعراض عن الحق وأصبحت هذه طبيعتهم القومية فليس هذا من سوء تبليغك أو عدم تأثير الحق بل هذا لأجل فساد طبيعتهم فهل يمكن أن يذوب الحجر ليتدفق عنه الماء.

لا يخفى على من له إلمام بتاريخ بني إسرائيل أن كل نبي من موسى إلى سيدنا المسيح قد لاموا طبيعتهم الفاسدة ونصرف عن سرد الأمثلة مخافة التطويل.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨١﴾

قد مضى هذا المعنى في سورة البقرة وقد أوضحنا فيها كل جانب منه فقال تعالى فيها: وَقَالُوا لَن تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ ۖ حَظِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾" (سورة البقرة: 80-81)

ففي سورة البقرة جاءت هذه الآية أثناء ذكر أمانى أهل الكآب التى لا يجدون لها سلطاناً فى دينهم فقد اختلقها علماءهم من عند أنفسهم وأدخلوها فى شريعتهم وبما أن هذه البدع كانت لافتة القلوب فقد رسخت هذه البدع فيها رسوخاً اتكلوا على أمانيتهم تلك اتكالاً ومن بين تلك الأمانى أن بنى إسرائيل أمة مصطفاة فلا يدخلون فى نار جهنم لعذاب خالد؛ فلا يساقون إلى نارها وإن سيقوا فلا يقيمون بها ويخرجون بعد مواجهة عقاب قليل فالبدية أنهم قد برئوا ذمة عن مسؤوليات الدين بعدما خلقت لهم هذه العقيدة فكيف يؤمنون بهذا القرآن الذى يخرجهم من جنتهم المزعومة هذه ويحضرهم أمام مسؤوليات متعددة كانت تقع عليهم من قبل الدين أصلاً فبين لهم القرآن أن عقيدتهم هذه افتراء على الله فإنه لم يعط بنى إسرائيل رخصة الخوض فيما شاءوا من الجرائم والدخول فى الجنة بعد مواجهة القليل التافه من العذاب كما قال لهم إن هذه البدعة وأمثالها التى رغبتم عن الدين والتفكير فيه فأصبح دينهم مجموعة أمانٍ ممتعة وأحلامٍ ساحرة تريحهم العديد من حقوقهم على الله واحد فوق الآخر إذ ليس لله حقٌ عليهم سوى تقاليد وأعراف لايعنية.

فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٠﴾

إنهم يأملون ما ذكرنا ويرون هذه الأحلام الحلوة عن الآخرة ولكن الأمر مختلف فلما يجمعون يوم الفصل ليروا أهواله وعواقب ما فعلوا، وما أدراك ما يوم الفصل أمرٌ معلوم من الكون وما لا شك فى وقوعه ولا ريب فى حدوثه. ويمكن أن تكون "اللام" هنا بمعنى "فى" لأنها تحوي معنى الظرفية كذلك يمكن حذف مضافٍ بعد حرف الجر وقد اخترنا التأويل الثانى فى توضيح الآية.

من خصائص هذا اليوم (يوم الفصل) أنه غير مشكوك فيه وأن كل نفس توفى ما فعلت بدون ظلم فليحكم أهل الكآب ماذا يرون بعد يقظتهم من هذا النوم الثقيل الذى ألقاهم فيه علماءهم؛ جنة خالدة أم نار لا مفر منها.

قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٥﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٦﴾

هذا دعاء علمه الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن ثم أمته عن طريقه وهو يحتوي على ما يأتي:

1. البشرى الكبرى التي يطويها هذا الدعاء لهذه الأمة وهي أنّ هذا الدعاء يشير من خلال محتوياته أنّ منصب الإمامة والسيادة الذي قد احتله بنو إسرائيل حتى اليوم يتقلّ إلى بني إسماعيل على الرغم من عناد وبغي بني إسرائيل ولا يغير أيّ معارضة من قبل بني إسرائيل هذا الحكم الإلهي لأنه مالك ملكه فيعطيه من يشاء وينزعه عن من يشاء، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء ويده الخير كله وأما ظن بني إسرائيل بأنهم يجدرون بكل خير ويرثونه ولا نصيب لهم لغيرهم لا سيما لبني إسماعيل فقد فند هذا الدعاء فطرتهم الباطلة تلك فقد أشير فيه إلى أنّ مفاتيح الخير تنزع من الخائنين فتعطى من هو يجدر بتحملها.
2. وبجانب هذه البشرى يحوي الدعاء إنذاراً لبني إسرائيل وهذه نتيجة فطرية لتلك البشرى السالفة فلها يعطى بنو إسماعيل السيادة والإمامة فالبديهي أنّ بني إسرائيل يحرّمونها ولما يعزّ بنو إسماعيل فالبديهي أنّ بني إسرائيل يتم تذليلهم فبذكر النصب والعزل، العزة والذلّة، الحياة والموت قد أعلن القرآن عن قدر من يتبعه ومن هو المعارض له.
3. وكذلك هو يحوي نصحاً عظيماً لهذه الأمة وذلك أنه حينما تنقل هذه الأمانة إليكم فلا تفكروا أنكم جديرون بها أو ورثتها كما زعمت بنو إسرائيل بل هي فضل من الله تستحقونه ما لم تتخلّفوا عن أداء حقها وادعوا الله بصورة متواصلة أنّ يوفّقكم لأدائها.

فاتضح من هذا التفصيل أنّ هذه الآية إعلان عن عزل اليهود وبشرى بنصب الأمة المسلمة ولكن هذا لم يبيّن بأسلوب خبري أو إنشائي بل ذكر بصورة دعاء ولهذا الأسلوب وجهان؛

أولهما: أنّ الظروف كانت غير واضحة حتى نزول هذه الآيات وخير أسلوب لشيء لم يتجلّ قبلُ هو أن تدعوه الأمة.

وثانيهما: أنّ فيه إشارة إلى أن لا تقبل الأمة هذه البشرى بأسلوب ملؤه الفخر والكبرياء بل تقبله بأسلوب ملؤه التواضع والتذلل والشعور بالعبودية والدعاء فإنّ الأمر كله بيد الله فمن يحرم يحرم بأمره كما ينعم من ينعم بأمره تعالى.

وهناك أمثلة بليغة أخرى، في القرآن، لبروز البشرى في أسلوب الدعاء فقد علّم النبي الدعاء التالي قبل الأمر بالهجرة بقليل:

"وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾". (سورة بني إسرائيل: 80-81)

ففي هذا الدعاء خبر بالهجرة كما فيه بشرى بأنّ خروجك من مكة ودخولك في المدينة كلاهما يكون معزّزا وستكون مصوناً من قبل الله بعونه الخاص وكذا بشرّ فيه أنّ دخولك في المدينة قد تمّ إعداده ويبدو هذا من تقديم الدخول على الخروج بل ولو تدبّرت مرة أخرى لوجدتم أنّ الهجرة فاتحة الفتح وغلبة الحق ولكن هذه كلها لم تذكر بأسلوب خبري ولا إنشائي بل تمّ بيانها بأسلوب دعائي وفيه حكمة أشرنا إليها آنفاً.

وفي "توليج اللَّيْلِ" إشارة إلى الشهادة على ما ذكر آنفاً، المختفية في نظام الكون التكويني والمعنى أنّ الله الذي يولج الليل في النهار ويدخل النهار في الليل ويحيي ويميت فهل أحد يقدر على العزل والنصب، العزة والذلة؟

وإدخال النهار في الليل والليل في النهار تشبيه جميل لاختلاف الليل والنهار فيبدو أن الليل والنهار يعاقب أحدهما الآخر بكل نشاط فتارة يدخل الليل في النهار وأخرى يدخل النهار في الليل وتمشي هذه الدورة بكل تواصل. قد ذكر هذا التشبيه في القرآن بمختلف الأساليب، وكذا تبدو آيات عديدة لبروز النهار من الليل وبروز الليل من النهار في كافة أنحاء العالم، في المادية وفي المعنوية. هذا تعريض لطيف على الوضع الذي كان يبرز من موت بني إسرائيل وحياة بني إسماعيل فالنبات الذي غرسه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في أرض فلسطين الخصبية قد كان جفَّ الآن وكما قال يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنَّ الكأس موضوعة على أصله وبالعكس من ذلك فالنبات الذي غرسه في وادي مكة غير ذي الزرع والذي كان ذابلاً حتى الآن بدأت تفتتح أزهاره وكما قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: كاد أن يصبح شجرة عظيمة تظلُّ عالماً بظلاله.

وَتَرَزُّقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ: الرزق هنا عبارة عن النعمة وليس في معنى الرزق المحدود و"بِغَيْرِ حِسَابٍ" يحوي معنيين أحدهما في الكثرة أي أنه ينعم على من يشاء نعماً لا حد لها كما قال "إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (سورة الزمر: 10)، والآخر بحيث لا يحتسب كما قال تعالى "وَبَرَزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" (سورة الطلاق: 3).

دراسة تحليلية منهجية لأحداث السيرة النبوية غزوة تبوك نموذجاً

- د. محمد البويسفي¹ ود. محمد الفاضلي²

﴿1﴾

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد!

فإن التاريخ لم يتحدث عن سيرة أحد وصفاته وأطوار حياته ومنهج يومياته مثلما تحدث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا لأنه صلى الله عليه وسلم جاء بالرسالة الجامعة والدين الخاتم، فنسخ ما قبله، ولا شيء بعده، فقد انقطع بعده حديث السماء إلى الأرض، فكان خليقاً به أن يكون طرازاً من البشرية النقية الصرفة التي تعطي البشر القدوة والمثالية في الاستقامة على نهج الواضحة وسبيل التوحيد.

ولذلك فقد ارتأينا أن يكون موضوع بحثنا في السيرة النبوية، وكيف لا وهي منبع القدوة الحسنة ومنهج رباني لتنزيل قيم الإسلام على أرض الواقع ونور يضيء سبيل السالكين وطريق الهداية وهدى الله الذي ألهمه نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يكون قدوة لأمته تنعم بالسعادة في التمسك بها وترزح وتثني تحت وطأة الشقاوة بالانسلاخ عنها. قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا" ³. وقال تعالى أيضاً: "فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ

¹ جامعة القاضي عياض، المغرب

² جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس، المغرب

³ سورة الأحزاب: 21.

مَنْ هَدَى فَمَنْ أَتَّبَعَ هَدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٢٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿٢٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٢٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴿٢٢٦﴾¹ وقال أيضاً: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ"². فخرى بنا أن نتبعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرف قلوبنا لمحبهه ونلتمس الأسباب التي توثق الصلة فيما بيننا وبينه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولعل النبش في سيرته العطرة لسبب من هذه الأسباب التي تنير درب المآسي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ونرجو أن يكون هذا البحث المتواضع - الذي هو نقطة من بحر السيرة النبوية - محطة للتزود بهدي سيدنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاعتراف من معينه الفياض، ومرآة لتنقية وتقويم السلوك والأخلاق.

وقد حاولنا - قدر المستطاع - في هذا البحث، تتبع منهج كل من الإخباريين والمحدثين وطريقة تناول كل منهما لأحداث السيرة النبوية فتوصلنا إلى بعض الملاحظات التالية:

- أن الإخباريين يأخذون بعين الاعتبار التسلسل الزمني للأحداث، في حين أن المحدثين لا يعيرون اهتماماً لذلك، بل أنهم يقومون بتقطيع الأحاديث لأغراض التبويب والاستدلال. يظهر هذا جلياً في صحيح البخاري وكذا في صحيح مسلم.
- أن الإخباريين يعتمدون الإسناد الجمعي في تناول المرويات، إذ أنهم يجمعون عدة أسانيد في سياق رواية واحدة بحيث تمتزج ألفاظ تلك الطرق وتداخل فيما بينها فيصعب بعد ذلك تمييز لفظ كل إسناد. وهو ما لا يسلكه المحدثون الذين يحرصون كل رواية بسندها وألفاظها لتطبيق قواعد النقد الحديثي عليها، سيما وأن المحدثين يسعون من وراء تطبيق هذه القواعد إلى تخصيص الأرضية لاستنباط الأحكام

¹ سورة طه: 123-126.

² سورة آل عمران: 31.

الفقهية، بينما سعي الإخباريين هو رواية الأحداث في تسلسل زمني لأخذ
الدرس واستخلاص العبرة دون اشتراط الصحة فيما يكتبونه.

والحقيقة أنّ تطبيق قواعد النقد الحديثي على مرويات السيرة النبوية سيؤدي حتماً
إلى إقصاء العديد من الأخبار التي قد يكون إثباتها أولى من إقصائها إذا كانت لا
تتعلق بجانب العقيدة أو الشريعة.

ونظراً لما يحتاجه تتبع كل الروايات والأحداث الواردة في غزوة تبوك من وقت،
وإدخالها في ميزان قواعد النقد الحديثي لمعرفة درجة صحتها من سقمها، فقد اعتمدنا
في بحثنا هذا على مؤلفين جمعوا بين صفتي المحدث والمؤرخ، من أمثال ابن شهاب
الزهري في قطعة من مغازيه وموسى بن عقبة وابن هشام وابن سعد وابن حبان وابن
كثير والذهبي وابن حجر وغيرهم من المحدثين الإخباريين.

وقد قننا بتقسيم هذا البحث في ثلاثة فصول: عقدنا الفصل الأول منها للوقوف على
بعض المبادئ الأولية في علم السيرة، التي لا بد للباحث فيه من الإلمام بها، وذلك
في أربعة مباحث خصصنا الأول منها للسيرة النبوية والتاريخ، والثاني لأهمية السيرة
النبوية في فهم الإسلام، والثالث لنشأة علم السيرة، والرابع لمصادر علم السيرة. أما
الفصل الثاني فنخصصناه لدراسة حدث غزوة تبوك، واشتمل على ستة مباحث عالجنا
في الأول منها: أصل تسمية الغزوة وتاريخها وسببها، والثاني: ظروف الغزوة وعدد
الذين خرجوا إليها والمستخلفون فيها ومميزاتها عن غيرها، والثالث: الإنفاق في الغزوة،
والرابع: الخلفون، والخامس: ما نزل من القرآن حولها، والسادس: نتائجها. وفي
الفصل الثالث والأخير قننا فيه باستثمار ما تبث من أحداث في هذه الغزوة
لاستنباط ما يمكن استنباطه من الدروس والأحكام التي تنخر بها أحداث غزوة
تبوك. ثم ذيلنا هذا البحث بخاتمة. وأملنا كبير أن نكون قد وفقنا في ملامسة محاور
هذا الموضوع. وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه نيب.

الفصل الأول: مبادئ أولية في علم السيرة

بإلقاء نظرة عامة على أحداث السيرة النبوية نجدها قد مرّت بمرحلتين بارزتين: مرحلة ما قبل الهجرة التي هي المرحلة المكية ذات الطابع التأسيسي؛ حيث تركّزت الجهود على تصحيح العقيدة وبيان الأصول الكلية في الحلال والحرام أمراً ونهياً، بغية ترسيخ مبادئ الدين الإسلامي الخفيف. ثم مرحلة ما بعد الهجرة وهي المرحلة المدنية التي فتحت صفحة جديدة في تاريخ الإسلام حيث استقرت العقيدة الإسلامية ونشأت النواة الأولى للمجتمع الإسلامي. فبدأت الدعوة في طور عملي تنظيمي جديد واتجه التشريع إلى بناء الأمة الإسلامية وتحديد علاقاتها الاجتماعية والسياسية. فكان تشريع القتال وفرض الجهاد من بين الأسس التي قام عليها هذا البناء خلال هذه الرحلة، وذلك لصد الخطر الذي يهدد هذا المجتمع الفتى، وكذا لمواجهة العاندين الواقفين في وجه الدعوة المحمدية. فكان نزول آيات القتال بمثابة الضوء الأخضر له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في تجهيز جيش إسلامي شهم وصلب سلاحه وعتاده الإيمان القوي والتقوى وتمكن بقدرة السميع العليم من تحطيم قوى الظلم والبي والطغيان، فأخذ الإسلام والإيمان يتدفق من قلب الجزيرة العربية ناشراً أجنحته على جبالها وملقياً بظلاله على سهولها ومشعاً بنوره فوق رمالها. كل هذا تم في إطار سلسلة من الغزوات والسرايا التي جهّزها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتي خرج منها عالي الرأس والكلمة، وكانت أولى غزواته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي غزوة ودان وآخرها هي غزوة تبوك التي هي محور هذا البحث إن شاء الله تعالى.

وقبل أن نتناولها بالدرس والاستنباط لا بد في البداية من ذكر بعض المبادئ التي يجب على الباحث في علم السيرة أن يعلّمها، وهكذا فقد جاء هذا الفصل في أربعة مباحث وهي كالآتي:

المبحث الأول: السيرة النبوية والتاريخ: يقول تعالى في محكم كتابه العزيز: "قُلْ سِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَأَنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ¹. فلا جرم أنَّ هذه الآية الكريمة تعتبر دعوة صريحة للسير في الأرض والتدبر في الكون، وذلك قصد التأكد والبرهنة ورؤية الآيات واكتشاف قوانين وسنن التسخير، قال تعالى: "سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ"². لذلك رأينا، ولا نزال نرى أنَّ السائرين في الأرض بلا دليل الوحي ومعرفة الوحي وقعوا في تناقضات وتخططات ونظريات لا نهاية لها.

ولا يخفى أنَّ التاريخ الإسلامي أو حركة المجتمع الإسلامي هي في الحقيقة تمثل استجابة المسلمين لقيم الدين وانفعالهم بها وتجسيدها في الواقع، والسيرة النبوية على الرغم من أنها تمثل من الناحية الزمانية مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، إلا أنها تتميز عنه بأنها تنزيل للقيم على الواقع وبيان عملي تطبيقي لقيم الكتاب والسنة من قبل المعصوم عن الخطأ، وبحراسة الوحي. ومن هنا تتميز السيرة النبوية بأنها مصدر للتشريع والأحكام لأنها تعتبر من السنة سواء كانت من فعل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو من إقراره لفعل الصحابة، كما أنها تعتبر فترة القدوة أو المعيار العملي لتنزيل الإسلام على الواقع، والتي هي أشبه ما تكون بالتجربة المخبرية التي تمكن من الامتداد بالأحكام الشرعية وكيفيات التعامل معها وتجسيدها في الواقع وتحقيق انفعال الناس بها وتمثلها في حياتهم.³

والمعرفة التاريخية التي تنتمي إليها علوم السيرة النبوية، خصّها القرآن بعناية ظاهرة وشملها بتقدير كبير سواء من الواجهة النظرية أو على مستوى التطبيق وفقاً لما تقتضيه رؤية التصحيحية الشاملة للكون والحياة والإنسان.

وتجلى العناية بالجانب النظري فيما عوضه القرآن من أخبار الماضين وسيرهم وأحوالهم من مثل قول الله تعالى: "وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ

¹ سورة العنكبوت: 20.

² سورة فصلت: 53.

³ كتاب الأمة: قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي، 50/1.

فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَمَوْعِظَةً وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾¹. وقوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ"²، وقوله تعالى: "تَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" ﴿٣١﴾³.

وأما الجانب التطبيقي فيتجلى في القدرة على توظيف الحدث في الاستدلال لردّ فاسد الدعاوي والارتقاء بالحس النقدي، ولعل خير مثال يمكن اقتباسه من القرآن الكريم هو موضوع الجدل بين اليهود والنصارى حول الانتماء الديني لخليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد ادّعت اليهود أنه يهودي وادّعت النصارى أنه نصراني، وجاء القرآن الكريم ليردّ مزاعم الفريقين معتمداً الدليل التاريخي قائلاً: "يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ نَحْجُبُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" ﴿٣٢﴾⁴.

ووعياً من علماء النقد الحديثي بأهمية ومكانة عنصر التاريخ في تحصين وحماية السنة النبوية والذود عنها من افتراء المفتريين وادعاء المغرضين، فقد استثمره- أي عنصر التاريخ- هؤلاء في نقد الرجال وتحييص الإسناد وفحص المرويات. والشاهد على هذا ما روى إسماعيل بن عياش قال: "كنت بالعراق فأتاني أهل الحديث فقالوا: هاهنا رجل يحدث عن خالد بن معدان فأتيته فقلت: أي سنة كتبت عن خالد بن معدان؟ قال سنة ثلاث عشرة، يعني ومائة، فقلت: إنك تزعم أنك سمعت منه بعد موته بسبع سنين، لأنّ خالدًا مات سنة ست ومائة"⁵.

وعلى هذا نعيد القول بأنّ السيرة النبوية هي المدخل الطبيعي لتاريخ الإسلام فيقدر ما نخطط علماء بهذه السيرة ونتفهم أسرارها وأخبارها بقدر ما نستطيع فهم أحداث تاريخ

¹ سورة هود: 120.

² سورة يوسف: 111.

³ سورة القصص: 3.

⁴ سورة آل عمران: 65.

⁵ أضواء على نشأة علم السيرة ومنهج روادها الأوائل: مجلة كلية الشريعة، عدد: 21، ص 70-71-72.

⁶ المرجع نفسه.

الإسلام في جميع مراحلها.

المبحث الثاني: أهمية السيرة النبوية في فهم الإسلام: "في عالمنا المتصارع المتناحر يسمع الناس بين الفينة والأخرى، صدى أصوات رخصة تدعو الإنسانية إلى الوداعة والهدوء وعدم الحيف وترك الظلم، كما تدعوهم إلى الرحمة والشفقة على الإنسان، فتشيد الإنسانية بهذه الأصوات وتنعتها بأرفع النعوت وتحلبها بأعظم الألقاب وتمنحها جوائز السلام وتسلكها في سلك الخالدين العظام.

وإنّ العاقل المتدبر الذي يفنّد هذه الأصداء ويربطها بمصدرها يجد أنّ هناك فارقاً كبيراً بين القول وسلوك قائله، وغالباً ما يكون هذا القائل قاصداً للرحمة والشفقة على طائفة خاصة وجنس معين، وإذا أمعنا النظر والبحث لوجدنا أنّ هذا الداعية يستند إلى تاريخ طويل من ممارسة السفك والإجرام، وأنّ زبائنه هم الذين يعلقون له الشعارات والأوسمة، وما على الدهماء إلا الإعجاب والتصفيق....

في هذا الجوّ العالمي الرهيب الذي لا تستقر فيه القيم ندعو البشرية كلها على اختلاف مللها ونحلها ولغاتها وأوطانها إلى تأمل سيرة محمد بن عبد الله، صلوات الله وسلامه عليه، وتحيص أقواله ودعوته، علّها تجد في سيرته وسلوكه المثل الأعلى والميزان القسط الذي تزيّف دعاوي الأعداء والأعيب المحتالين وعلّها تجد في سيرته "الإنسانية الحقة في صورتها المشرقة" وهي تعيش على وجه الأرض.

وإنّ دراسة سيرة محمد بن عبد الله ﷺ في أيامنا هذه ضرورة، وأي ضرورة!! يملها الواقع البئيس الحزن الذي يعيشه الإنسان العربي والمسلم وغيرهما في متاهات لا نهاية لها... كما تفرضها الأوامر الإلهية على الإنسان المسلم "فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" الآية.¹

إنّ المسلمين الآن لا يعرفون عن السيرة النبوية إلا قشوراً خفيفة لا تحرك القلوب ولا

¹ مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص 19-20.

تستثير الهمم، وهم يعظمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته عن تقليد موروث ومعرفة قليلة ويكتفون من هذا التعظيم بإجلال اللسان أو بما قلت مؤنته من عمل، ومعرفة السيرة على هذا النحو تساوي الجهل بها. إنه من الظلم للحقيقة الكبيرة أن تتحول إلى أسطورة خارقة ومن الظلم لفترة نابضة بالحياة والقوة أن تعرض في أكفان الموتى. إن حياة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست - بالنسبة للمسلم - مسالة شخص فارغ، أولى دراسة ناقد محايد، كلا، إنها مصدر الأسوة الحسنة التي يقتفيا ومنبع الشريعة العظيمة التي يدين بها، فأَيَّ حيف في عرض هذه السيرة وأَيَّ خلط في سرد أحداثها إساءة بالغة إلى حقيقة الإيمان نفسه.¹ ولهذا لا ينبغي أن تكون دراسة السيرة مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية ولا سرد ما طرف أو جمل من القصص والأحداث، وإنما الغرض الذي ينبغي أن يكون هو أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن فهمها أحكام ومبادئ وقواعد مجردة في الذهن.

وعلى هذا يمكن حصر الأهداف السامية التي ترمي إليها دراسة السيرة النبوية إلى:

1. فهم شخصية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من خلال حياته وظروفه التي عاش فيها وذلك للتأكد من أنه رسول الله أرسله بوحى من عنده وتوفيق من لدنه.² فمن خلال سيرة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "تظهر تلك الصورة المشرقة للإنسان الذي يمارس إنسانيته بكل أبعادها ويتفاعل مع الواقع بكل معطياته، وندرك أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البشر - بكل نوازعه البشرية - قد تربع قمة التسامي الإنساني وهو المثل الأعلى للحق للبشرية، وكيف كان في كل أحواله غير منسلخ من بشريته ولا متجرداً منها، وبنفس الوقت لم يجر ولم يحف عليها بل عاش مشاعرها كلها، خوفاً ورجاء، فقراً وغنى، عزلة واختلاطاً، عزوبة وزواجاً، فرداً ورب أسرة، قائداً حربياً، ومخططاً سياسياً، إماماً حاكماً، وإنساناً يجلس مع

¹ فقه السيرة للغزالي، ص 4.

² فقه السيرة للبوطي، ص 3.

الناس للحكم، آمناً مستقراً، وهارباً خائفاً، منتصراً مظفراً، ومغلوباً أسيفاً... وفي كل هذه الأحوال كان ينهج وتيرة واحدة من الاستقامة والعدل والرجولة والخلق الكريم، لما يشهد له به كل منصف، مسلماً كان أو غير مسلم، أنه أعظم البشر على الإطلاق، وبهذه السيرة العطرة التي لا يستطيع أحد أن يخدش من طهارتها وسموها، يستطيع المسلم القول جازماً أن محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اليتيم الذي لم يتلقَّ التعليم والتربية على أساتذة كبار ولا معلمين فحول، إنما تلقى ذلك من العليم الخبير. ويدرك الدارس للسيرة النبوية التلازم والتطابق الذي لا ينقسم بين القول والعمل، والمبدأ والسلوك، فلا يأمر الناس بالخير والبر وينسى نفسه، بل هو أول ملتزم ومطبق ولو كان وحده".¹

2. السيرة النبوية تجسيد حيّ لتعاليم الإسلام كما أراد الله تعالى أن تطبق في عالم الواقع، فتعاليم الإسلام لم تنزل لتحصر في جدران المساجد وداخل أروقة بيوت العلم الشرعي وكتباته، بل تنزلت من الحكيم العليم لتكون سلوكاً إنسانياً ومنهجاً حياتياً يعيشها الفرد المسلم في نفسه وشخصه ويدركها في واقعه ومجتمعه، هذه التعاليم ينشأ في بحبوحتها الفرد ويشب عليها فتصبح جزءاً لا يتجزأ من كيان، يتصرف على هديها في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل موقف وشأن، فالمبدأ النظري يرى ماثلاً قائماً في شخص صاحبه، وهذا ما نجده في السيرة النبوية حيث كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجسد تعاليم الإسلام كما أراد الله تعالى أن تطبق في عالم الأحياء والبشر، وذلك في جميع أحواله وظروفه، نوماً وبقظة، سلماً وحرباً (....) فرداً وجماعة. (....) وقد يشكل علينا أمر ونختلف في حله وحرمة، وقربه من روح الإسلام وبعده فيحسم لنا هذا الأمر ويوضح لنا الطريق سيرته وهديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد يرى راء في الإسلام جزئية لا تعجب ولا يدرك مغزاها وممرها فما عليه

¹ مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص 21-22.

إلا أن ينظر كيف طبق رسول الله ﷺ هذه الجزئية؟ ومتى؟ ولماذا؟
ليدرك موقعها من مجموع البناء الإسلامي، ولا يستعجل الأمور فيلتمس
التعليلات الباردة ليرد الأحكام الصريحة الواضحة كما يفعل كثير من الناس.¹
3. أن يجد الإنسان بين يديه صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة
الفاضلة كي يجعل منها دستوراً يتسك به.² فالقمة الرفيعة من الإنسانية في شخص
محمد عليه الصلاة والسلام، والتي كانت تدرج على الأرض وتسير في فجائها،
عندما تقدم للإنسان على اختلاف زمانه ومكانه ودينه ولغته تقديماً صحيحاً غير
مشوبة بأساطير وخرافات المحبين والمعجبين الجاهلين، وغير مشوهة بتحليلات
الجاحدين والمنكرين، بل تقدم حية نابضة يراها القارئ وكأنه يعيش أحداثها دون
حُبّ التعصب أو غشاوة العاطفة الجاهلة، لا نشك أنها ستستهي القلوب ويرى أيّ
شخص فيها إنسانيته التي يحن إليها لأن النفوس السليمة جبلت على التسامي والتعلق
بالمثل الأعلى- وإلا لما كان هناك معنى لكتب سير العظماء وحفظ أخبار العباقة
والمصلحين وتدوينها- وقد كان في قدر الله تعالى أن يكون محمد ﷺ مظهر
الكمال الإنساني، وطلب من الناس أن يسعوا إليه ويحاولوا التخلق بأخلاقه
والتأدب بآدابه وسلوكه لأنّ هذه الأخلاق هي السيرة المرضية عند الله، يقول
تعالى: "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ" ³ وفي عظمة هذا الخلق جعله الله تبارك
وتعالى القدوة لكل الناس كما قال تعالى: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ" ⁴

4. ومن خلال دراسة السيرة النبوية نعرف تطور الدعوة الإسلامية وبدايتها منذ

¹ نفسه، ص 20-21.

² فقه السيرة للبوطي، ص 3

³ سورة القلم: 4.

⁴ سورة الأحزاب: 21.

⁵ مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص 23.

نزل قوله تعالى: " أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ..." إلى قوله تعالى: " فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠﴾ " مروراً بقوله تعالى: "إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" إلى أن عمّت وانتشرت وملأت سمع الدنيا وبصرها وختمت بقوله تعالى: "وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١﴾ " ومن قبله بقوله تعالى: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" حتى وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي مسيرنا مع الخطب البياني للدعوة الإسلامية نلاحظ كيف كانت تنتشر ضمن إمكانات البشر وفي حدود قدرتهم وليس بالمعجزات والطلاسم والمغيبات، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن جالساً والدعوة في انتشار، بل كان يأخذ للأمر عدته ويعيش الدعوة الإسلامية بشراً وليس ملائكة (....) كما نتعرف من خلال تاريخ الدعوة الإسلامية على موقف صاحبها عليه الصلاة والسلام من الأحداث والقضايا التي كانت تواجهه، ولا زالت وستبقى تواجهها، فقد واجه مثلاً، حصاراً وتشريداً ونفيّاً، وواجهته ضغوط نفسية واجتماعية وحروب ومعارك، وواجهته مؤامرات وخيانات ومساومات سياسية وعقد مصالحات، وواجهته مشكلة بناء أمة ومجتمع على أسس متينة في بلاد لم تعرف التنظيمات والدولة الواحدة، منذ زمن سحيق (....) ودراسة السيرة تحدّد لنا موقف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كل هذه الأمور لنطمئن إلى الحكمة والعدل والاستقامة والدقة في كل أحواله.¹

5. كما أنّ دراسة السيرة النبوية تحدّد لنا الإطار العام للآيات القرآنية الكريمة ومواضع نزولها ومواقع دلالتها، إذ أنّ الكثير من أحداث القرآن تفسّرها الأحداث التي مرّت برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموقفه منها. وكذلك تفيدنا دراسة السيرة في بيان أسباب ورود الحديث الشريف، وكذلك تفيدنا في معرفة

¹ نفس المرجع، ص 24-25.

الناسخ والمنسوخ سواء في القرآن الكريم أو في الحديث الشريف مما يتوقف عليه كثير من الأحكام الشرعية.

المبحث الثالث: نشأة علم السيرة: سبقت الإشارة إلى أنّ السيرة النبوية هي المدخل الطبيعي والمحور الذي تدور حوله حركة التدوين لتاريخ الإسلام فكيف تطورت كتابة السيرة إذن؟ وما هي المراحل التي مرّت بها؟.

لا شك أنّ الحديث عنا تطور أي علم يجرنا إلى إلقاء الضوء على الأصل والمنبع الذي انبثق منه، ومعلوم أنّ السيرة النبوية هي جزء لا يتجزأ من السنة النبوية كما أنّ السنة النبوية جزء من الحديث النبوي الشريف، فلا غرابة إذن أن تأتي كتابة السيرة في الدرجة الثانية بالنسبة لكتابة السنة النبوية لا لشيء إلا أنّ السنة النبوية من حيث المفهوم هي كل ما صدر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية أو أضيف إلى الصحابي أو التابعي، وطبيعتها هذه تقتضي أن توجد في الدرجة الأولى من حيث التدوين، إلى السنة بدأت كتابتها في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبإذن منه إن لم نقل بأمر منه عليه الصلاة والسلام، لاسيما بعد أن اطمأن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تمكن الصحابة رضوان الله عليهم من القرآن الكريم وتمييزهم بين أسلوبه وأسلوب الحديث النبوي.

أما السيرة النبوية فهي تعبر فقط عما لاحظته الصحابة في شخصية رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل شؤونهم، لهذا كذلك اقتضت طبيعتها أن تأتي بعد كتابة السنة من حيث التدوين، وهذا لا يعني أنّ الحديث عن السيرة النبوية لم يظهر في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل كان هناك من الصحابة من يهتم بروايتها شفويّاً، إلى أن ظهرت الكتابة (التقيد) ثم التصنيف المنهجي بعد ذلك. وبهذا تكون السيرة النبوية قد مرّت بأشواط ثلاثة:

الشوط الأول: طبعته الرواية الشفوية، وممن اشتهر في هذا الطور من رواة الحلية والأوصاف النبوية جماعة من الصحابة منهم: علي بن أبي طالب، وهند بن أبي هالة- ربيب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وكان وصافاً ماهراً، وأمّ المؤمنين عائشة، وأبو هريرة

وغيرهم من كبار الصحابة.

الشوط الثاني: وإن كانت قد ظهرت الكتابة في السيرة النبوية أو ما يسمّى بالتقييد، فهذا لا يعني أنّ الرواية الشفوية قد اختفت بل بقيت جنباً إلى جنب مع ظهور الكتابة ولذلك يمكن تسمية هذا الطور بالطور المختلط، وكان هذا في عصر صغار الصحابة وكبار التابعين، من رواد هذا الطور: الصحابي الجليل عبد الله بن عباس الذي خطى بعلم السيرة خطوة كبيرة إلى الأمام حيث أنه أعطى هذا العلم البعد الذاتي المستقل، ووعياً منه بأن الثراء العلمي في مادة السيرة النبوية يسمح لها بأن تأخذ حصتها الزمنية في المنهاج الدراسي، مادة أساسية، فقد كرس يوماً من أيام أسبوعه التعليمي لمادة السيرة النبوية، وبجانب عبد الله بن عباس وجد كذلك من شباب الصحابة المهتمين بالسيرة النبوية: سعيد بن سعد بن عبادة وسهل بن أبي حنيفة الأنصاري الأوسي، هذا في عهد صغار الصحابة. أما عصر كبار التابعين فقد دخلت كتابة السيرة النبوية عهداً جديداً يتمثل في إصدار ولي أمر المسلمين أمره بتدوين العلم خشية ضياعه، وهو ما عرف بعصر التدوين، ومن الأسماء التي لمعت في هذا الطور: عروة بن الزبير (94هـ) وأبان بن عثمان بن عفان (105) ووهب بن منبه الصنعاني (110هـ) وشرحبيل بن سعد (123هـ) ومحمد بن شهاب الزهري (124هـ) وموسى بن عقبة (141هـ) إلا أنّ كتابات هؤلاء بادت وتلفت ولم يصل إلينا منها إلا النزر القليل.

الطور الثالث: وهو طور التصنيف المنهجي حيث شقّت مادة السيرة النبوية طريق الكتابة المنهجية ومرحلة التنظيم والترتيب وفق الضوابط والأصول التي يقتضيها النهج العلمي. ومن رواد هذه الرحلة بدون منازع الاسم الذي تردده السنة المهتمين بعلم السيرة النبوية "محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ويقال بن يسار بن كوثان المدني مولى قيس بن مغرمة بن المطلب بن عبد مناف أبو بكر وقيل أبو عبد الله، رأى أنس بن مالك وسعيد بن المسيب وسمع القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق وأبان بن عثمان بن عفان ومحمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب وأبا سلمة بن عبد

الرحمن بن عوف وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج ونافعاً مولى ابن عمر والزهري وغيرهم، وحدث عنه أئمة العلماء منهم يحيى بن سعيد الأنصاري وسفيان الثوري وأبو جريح وشعبة وإبراهيم بن سعد وسفيان بن عيينة ومن بعدهم¹.

توفي ابن إسحاق سنة 152 هـ وهو أقدم من وصل إلينا علمه كاملاً في السيرة النبوية من خلال كتابه: "المغازي" الذي أخرجه ابن هشام بدوره في حلة جديدة بعدما هذبه ونقّحه وسمّاه تهذيب سيرة ابن إسحاق، وهو المعروف حالياً بالسيرة النبوية لابن هشام المتوفى سنة 218 هـ بمصر، وإلى جانب ابن إسحاق وابن هشام وجد كذلك محمد بن عمر الواقدي المتوفى سنة 207 هـ الذي لم يأخذ عن ابن إسحاق شيئاً وهو ما يؤكد توفر المادة العلمية في هذه الحقبة، وكذلك محمد بن سعد المعروف بكتاب الواقدي المتوفى سنة 230 هـ هو الذي استفاد مما كتبه ابن إسحاق والواقدي، وهؤلاء الأسماء هم رواد التصنيف المنهجي في علم السيرة النبوية بدون منازع، وعلى أيديهم أخذ علم السيرة مكانه بين سائر العلوم الشرعية الأخرى.

المبحث الرابع: مصادر علم السيرة النبوية: "وعلى أية حال فكل من يكتب في السيرة لا بد أن يرجع إلى السابقين لأن كتابة السيرة والتاريخ عموماً ليست من صنع الخيال وابتداع الذكاء، بل هو البحث عن حقائق مرّت على هذا العالم في فترة من الفترات، وعن أحداث كانت ماثلة في مكان ما وعن حياة عاشها فرد أو مجتمع بكل ما في هذه الحياة من أبعاد.

وقد قال الإمام الطبري في مقدمة تاريخه: "إنّ العلم بما كان من أخبار الماضي وبما هو كائن من أنباء الحادّثين غير واصل إلى من لم يشاهداهم، ولم يدرك زمانهم إلا بأخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس". وبعد الوصول إلى تحديد الأحداث والأشياء التاريخية تكون مرحلة الاستنباط والتحليل والتعليل

¹ مقدمة كتاب: "عيون الأثر في فنون المغازي والسير"، 8/1

ويلعب آئذ الذكاء دوره والنزاعات الشخصية هي التي تحدد النتائج في كثير من الأحيان. وهكذا فإن كتب السيرة التي نقل منها اللاحقون تخلص في عدد معين محدد، ولهذا كان لزاماً علينا تحت مقتضيات المنهج العلمي أن نقسم مصادر السيرة النبوية إلى قسمين رئيسيين: مصادر أصلية وهي الكتب الأولى وما قاربها، ومصادر فرعية، وهي التي أخذنا من المصادر الأولى وعولت عليها واقتصر عمل مؤلفيها على الجمع والتنسيق والتعليق والشرح، بيان الغامض... وما إلى ذلك، وإن كان الغالب على هذه المصادر (الفرعية) واحداً من شيئين: إما المبالغات الزائدة وتصوير السيرة والصورة الأسطورية إن كان المؤلف مؤمناً محباً لمحمد ﷺ (....) وإما تحليلها تحليلات جافة وإظهار بعض المواقف في السيرة بغير حقيقتها إن كان المؤلف غير مسلم أو كان مسلماً ولكنه أدخل السيرة لخدمة نزعته السياسية التي لا تتفق والإسلام. كما فعل المستشرقون عندما تكلموا عن حياة النبي ﷺ العائلية وزوجاته وأمثال ذلك، وكما فعل بعض السلمين عندما جعل النبي ﷺ اشتراكياً، وبعضهم رأسمالياً وبعضهم بانياً للمجد القومي العربي... إلخ، وهؤلاء وجدوا في هذا القرن، لذلك فإن عملية تحديد المصادر الأصلية للسيرة النبوية أهم عمل أمام الدارس للسيرة النبوية خصوصاً وللإسلام عمومًا، سيما وأن هذه الأخيرة يجب أن يرجع فيها إلى مصادرها الأولى، ولكل واحد الحق أن يحللها بالطريقة التي تهتمه، تحليلًا أدبيًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو غير ذلك، ولا بد أن يكون هذا التحليل مستنداً إلى السيرة الصحيحة الكاملة، وليس إلى الأساطير والخرافات التي أضافها المتأخرون أو اخترعها أعداء الإسلام.¹ ويمكن حصر المصادر الأصلية فيما يلي:

1. كتاب الله عز وجل باعتباره المصدر الرئيسي في هذا العلم، نظراً لما تضمنه من أخبار تتعلق بشخصية الرسول ﷺ، فهو العمدة في بيان ذلك بغض النظر عن أسلوبه في ذلك.

¹ المرجع نفسه، ص 27-31.

2. كتب السنة النبوية كصحيح البخاري ومسلم والسنن الأربعة وموطأ الإمام مالك ومسند الإمام أحمد وغيرها مما صحّ سنداً ومتناً.
3. الرواة الذين اهتموا بسيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحياته عموماً قبل أن يظهر أمر تدوينها وجمعها، ووجد هؤلاء من الصحابة الذين حضروا المشاهد مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرووها لمن بعدهم ومن بعدهم إلى من يلونهم وهكذا حتى دوّنت وجمعت ونسّقت بين دفتين.

الفصل الثاني: غزوة تبوك

لقد أمر الله تعالى المسلمين بجهاد أهل الكتاب كما أمرهم بجهاد المشركين، ولكنه وافق على احتفاظهم بدينهم إذا خضعوا سياسياً للمسلمين وأدّوا إليهم الجزية، خلافاً لعبدية الأوثان فإنه لم يقبل منهم الجزية بل لا بد لهم من الدخول في الإسلام إذا أرادوا الأمن من القتال، قال تعالى: "قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ" ¹. وبذلك دخل المسلمون مرحلة جديدة بعد قضائهم على الوثنية في جزيرة العرب وإجلالهم أهل الكتاب من اليهود، إلى قتال أهل الكتاب من النصارى، هذا التحول الذي يتسق مع طبيعة الإسلام وأهدافه في الحياة والذي تعتبر غزوة تبوك أحد شواهد، ² وقد بذل "جيش العسرة" في هذه الغزوة العسيرة المضنية، المال والجهد، وضوا بالراحة في أجمل فرصها واستبدلوا به العذاب في أقسى صوره وأشكاله، ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم له، فحقّ لهم النصر والتأييد. ³

وسأخصّص هذا الفصل إن شاء الله لدراسة حدث غزوة تبوك انطلاقاً من تسميتها إلى سببها وظروفها ومميزاتها والمتخلفين فيها وكذا الإنفاق فيها ثم ما نزل فيها من

¹ سورة التوبة: 29.

² السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري، 524/2.

³ فقه السيرة للبوطي، ص 450.

القرآن وأخيراً نتأججها. وقبل الدخول في صلب هذه المباحث لا بأس من الإشارة إلى مشروعية الجهاد ثم مفهوم الغزوة والسرية والفرق بينهما.

مشروعية الجهاد: الجهاد مصطلح شرعي يراد به القتال في سبيل الله لإقامة نظام عادل يلتزم بأحكام الشريعة ويسعى لتحقيق أهداف الإسلام في المعمور. ولم يشرع الجهاد في الإسلام في العهد المكي، بل أمر المسلمون بالألا يواجهاوا المشركين بالقوة والألا يحملوا السلاح في وجوههم، فكان الشعار المعلن آنذاك "كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ"،¹ وهو الموقف الذي اتخذ عندما كانت الدعوة جديدة مثل النبتة الصغيرة تحتاج إلى الماء والغذاء لترسخ جذورها وتقوى على مواجهة العواصف، فلو واجهت الدعوة آنذاك المشركين بالسيف فإنهم يحتثونها ويقضون عليها من أول الأمر، فكانت الحكمة تقتضي أن يصبر المسلمون على أذى المشركين وأن يتجهوا إلى تقويم أنفسهم وزيادة إيمانهم بدعوتهم عن طريق العبادة ومجاهدة النفس ودعوة الآخرين لتكثير سواد المسلمين، ولم يكن المسلمون متميزين عن المشركين في معيشتهم اليومية، وليس لهم معسكر يخازون إليه عند إسلامهم، وإن كانوا يجتمعون بينهم في دار الأرقم وغيره لتلقي تعاليم الإسلام. ولو كان الجهاد قد فرض في تلك الفترة لجرت معركة في كل بيت أسلم منه أحد. فلما هاجر المسلمون إلى المدينة وآزر الأنصار دعوة الإسلام وصارت للمسلمين أرض يمتلكون السيادة عليها شرع الله تعالى القتال أو الجهاد، وكان الإذن بالقتال دفاعاً عن النفس أولى المراحل وذلك في الآية الكريمة: "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ"²، ثم أمر المسلمون بالقتال دفاعاً عن النفس والعقيدة في الآية الكريمة: "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"³، وكانت هذه هي المرحلة الثانية في تشريع الجهاد.

¹ سورة النساء: 77.

² سورة الحج: 39. وانظر عن سبب النزول: مسند أحمد، 122/7، وزاد المعاد، 58/2.

³ سورة البقرة: 190، والآية محكمة إن أريد بها عدم الاعتداء بقتل النساء والشيوخ والأطفال ومن لا يرفع السلاح بوجه المسلمين، نواسخ القرآن لابن الجوزي، ص 180

وهو بذلك يختلف عن القتال والحروب التي شهدتها التاريخ الإنساني والتي استهدفت تحقيق أهداف سياسية أو اقتصادية لأفراد أو جماعات طموحين يريدون العلو في الأرض، فالهدف وضوابط الحق والعدل والرحمة التي احتفت بالجهاد ميزته عن أنواع الحروب الأخرى "الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ".¹

اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليد.²

ثم كانت المرحلة الثالثة وتمثل في الأمر بقتال المشركين وابتدائهم به، وذلك للتمكين للعقيدة الإسلامية من الانتشار دون أية عقبات تضعها قوى الشرك ولتصبح كلمة المسلمين هي العليا في الأرض، وبذلك لا يقوى أحد على فتنة المؤمنين وصرفهم عن دينهم حيثما كانوا. ويظهر هذا التوجيه الأخير في الآيات الكريمة الآتية: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ"³ "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"⁴ وكتب معناها فرض كما في الآية "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ". "فَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ"⁵.

إن الجهاد يمثل فريضة من أبرز الفرائض الإسلامية، وهو يوضح الهدف الكبير الذي يسعى المسلمون إلى تحقيقه، وهو حرية اعتناق الناس للإسلام في سائر أرجاء الأرض وتكوين القوة العسكرية والسياسية الأزمنة لدعم هذه الحرية وحماية المسلمين

¹ سورة النساء: 76.

² قطعة من حديث رواه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها

³ سورة الأنفال: 39.

⁴ سورة البقرة: 216.

⁵ سورة التوبة: 29.

الجدد، ورغم أنّ اعتناق الإسلام على صعيد الأفراد لا يمكن أن يتحقق بالقوة إذ [لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ] ولكن الإعلان عنه والتمكن له وحماية معتنقيه في سائر المعمورة يقضي التفوق على القوى السياسية والعسكرية العالمية الأخرى، خاصة في العالم الذي ظهر فيه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً حيث كانت الحكومات المعاصرة تمنع أتباعها من اعتناق الإسلام وتوقع بالمسلمين الفتنة، مثل ما حدث من قبل الملأ من قريش بمكة ومثل موقف الفرس والروم المتناحيين لجزيرة العرب في الشام ومصر. وقد أوضحت النصوص الإسلامية أنّ تشريع الجهاد ليس مؤقتاً بطرف طارئ وإنما هو فوض ديني دائم ففي الحديث "الجهاد باقٍ إلى يوم القيامة، ومن مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق".¹ وهو من فروض الكفاية إلا إذا غُزيت ديار الإسلام في عقرها فيتعين على الجميع الدفاع عنها.²

هكذا يتبين لنا مفهوم الجهاد كما شرعه الله سبحانه وتعالى وكما عرفه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. وما أحوجنا إلى فهم حقيقة هذا المصطلح، لأنّ الشرع قد ضبط المصطلحات الشرعية وجعل لها حداً معيناً بحيث لا يأتي أحد كائناً كما كان ليحرف تلك المصطلحات عن حقيقتها التي وضعها لها الشارع. وسوء فهم حقيقة مصطلح الجهاد قد يؤدي إلى نتائج لا تحمد عقباه كما هو الحال في بعض الأقطار الإسلامية الشقيقة التي أصبح فيها القتال مستشرياً في صفوف المسلمين بدعوى تأدية فريضة الجهاد.

مفهوم الغزوة والسرية والفرق بينهما: تعريف الغزوة: الغزوة لغة مشتقة من فعل غزا يغزو غزواً وقد وردت في القرآن الكريم حيث قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى".³ قال ابن

¹ صحيح مسلم، 3/1517.

² السيرة النبوية الصحيحة، ص 7.

³ سورة آل عمران: 156.

كثير في تفسير قوله تعالى: "أَوْ كَانُوا غَزَى" أي كانوا في الغزو. جاء في لسان العرب لابن منظور: "غزا الشيء غزواً أراداه وطلبه وغزوت فلاناً أغزوه غزواً، والغزوة: ما غزى وطلب، قال ساعدة بن جوية:

لقلت لدهري إنه غزيتني وإني، وإن أرغبتني غير فاعل
مغزى الكلام مقصده وعرفت ما يغزى من هذا الكلام أي ما يراد، والغزو: القصد
وكذلك الغزو وقد غزاه وغازه غزواً وغوزاً إذا قصده، والمغازي مواضع الغزو وقد
يكون الغزو نفسه، ومنه الحديث: كان إذا استقبل مغزى.¹

وجاء في معجم مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد بن فارس: غزو: الغين والزاي
والحرف المعتل أصلان صحيحان أحدهما طلب شيء والآخر في باب اللقاح: فالأول:
الغزو ويقال غزوت أغزو والغازي: الطالب لذلك والجمع غزاة وغزى أيضاً كما يقال
لجماعة الحاج الحجيج.

والثاني: قولهم: أغزت الناقة: إذا قُسرَ لقاحها، وقال قوم الآتان المغزية التي يتأخر
تأجيلها ثم تنتج.²

واصطلاحاً: قال ابن منظور: الغزو: السير إلى قتال العدو وانتباهه.³ وقال ابن الأثير في
غريب الحديث والأثر: أغزيت فلاناً: إذا جهزته للغزو.⁴

تعريف السرية: أما السرية لغة فهي من فعل سرى سرياً، وردت هذه الكلمة في
القرآن الكريم ولكن بمعنى آخر في سورة مريم حيث قال تعالى: "فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا
أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا" ⁵. قال بعض المفسرين في تفسيره لكلمة

¹ لسان العرب، 1244-123/15. مادة غزو.

² معجم مقاييس اللغة، 423/4.

³ لسان العرب.

⁴ النهاية في غريب الحديث والأثر، 365-366/3.

⁵ سورة مريم: 24.

سرياً: هي الجدول الصغير والسرية من الشيء السري أي النفيس.

واصطلاحاً هي: طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمئة تبعث إلى العدو وجمعها السرايا، سموا بذلك لأنهم يكونون خلاصة العسكر وخيارهم من الشيء السري النفيس، وقيل سموا بذلك لأنهم ينفذون سراً وخفية، والفرق بين الغزوة والسرية هو أنّ الغزوة قصد النبي ﷺ الكفار بنفسه أما السرية فهي قصد النبي ﷺ الكفار بجيش من قبله، بمعنى أوضح أنّ الغزوة تكون بحضور النبي ﷺ في القتال أما السرية فهي تبعث هنا قبله دون حضوره للقتال.

المبحث الأول: أصل تسمية الغزوة وتاريخها وسببها

المطلب الأول: أصل تسميتها: بعدما تعرفنا على مفهوم الغزوة لغة واصطلاحاً، ننتقل بعد ذلك إلى تعريف الشق الثاني من الركب الإضافي الذي هو تبوك سبب تسميتها بهذا الاسم. والأصل في ذلك. قال الحافظ بن حجر: "وتبوك مكان معروف هو نصف طريق المدينة إلى دمشق، ويقال بين المدينة وبينها أربع عشرة مرحلة... ووقعت تسميتها بذلك في الأحاديث الصحيحة: منها حديث مسلم: "إنكم ستأتون غداً تبوك" وكذا أخرجه أحمد والبخاري من حديث حذيفة، وقيل: سميت بذلك لقوله ﷺ للرجلين اللذين سبقاه إلى العين: "ما زلتما تبوكانها منذ اليوم" قال ابن قتيبة فبذلك سميت عنا تبوك" والبوك كالخفر. والحديث المذكور عند مالك ومسلم بغير هذا اللفظ، أخرجاه من حديث معاذ بن جبل "إنهم خرجوا في عام تبوك مع النبي ﷺ فقال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً، فجئناها وقد سبق إليها رجلان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء" فذكر الحديث، فغسل رسول الله ﷺ وجهه ويديه بشيء من مائها ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس، وبينها وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة وبينها وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة.¹

¹ فتح الباري، 111/8، قال القسطلاني: "(باب غزوة تبوك) بفتح الفوقية وتخفيف الوحدة المضمومة موضع بينه وبين الشام إحدى عشرة مرحلة"، إرشاد الساري، 499/6

ومن بين الأسماء التي اشتهرت بها غزوة تبوك، الفاضحة، لافتضاح المنافقين فيها، وكذلك عرفت بغزوة العسرة. والأصل في تسميتها بهذا الاسم كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ: أما كتاب الله تعالى فقد جاء في سورة التوبة: "لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ" ¹. قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: قال مجاهد وغير واحد: نزلت هذه الآية في غزوة تبوك، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمور في سنة مجلبة وحر شديد وعسر من الزاد والماء، وقال ابن جرير في قوله تعالى: "لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة"، أي من النفقة والظهر والزاد ².

وقال ابن العربي أيضاً في تفسيره لقوله تعالى: "في ساعة العسرة" يعني جيش تبوك، خرج الناس إليها في جهد وحر ورجلة وعري وجفاء ³.

أما سنة رسول الله ﷺ فيدلّ عليها ما جاء في الحديث الشريف الذي أخرجه مسلم في صحيحه: "حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي حدثنا أبو علي الحنفي حدثنا مالك "وهو ابن أنس" عن أبي الزبير المكي أن أبا الطفيل عامر بن واثلة أخبره أن معاذ بن جبل أخبره، قال ش خرجنا مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك فكان يجمع الصلاة، فصلّى الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً حتى إذا كان يوماً آخر الصلاة ثم خرج فصلّى الظهر والعصر ثم دخل ثم خرج بعد ذلك فصلّى المغرب والعشاء جميعاً، ثم قال: إنكم ستأتون غداً إن شاء الله عين تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار فمن جاءها منكم فلا يمس من ماءها شيئاً حتى آتي، فجئناها وقد سبقنا إليها رجالان والعين مثل الشراك تبض بشيء من ماء قال فسألهما رسول الله ﷺ:

¹ سورة التوبة: 118.

² تفسير ابن كثير، 443/2.

³ أحكام القرآن لابن العربي، 595/2.

"هل مسستما من مائها شيء؟ قالوا: نعم. فسبهما رسول الله ﷺ وقال لهما ما شاء الله أن يقول: قال ثم غرّفا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر أو قال غزير- شك أبو علي أيهما قال- حتى استقى الناس ثم قال: يوشك يا معاذ أن طالت بك حياة إذا ترى ما هاهنا قد ملئ جناً".¹

وكذلك الحديث الذي جاء في صحيح البخاري: "حدثني محمد بن العلاء حدثنا أبو أسامة عن يزيد بن عبد الله بن أبي بردة عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك...".²

المطلب الثاني: تاريخ الغزوة: لا خلاف بين أهل السير والمغازي في تاريخ غزوة تبوك، إذ أنّ جميع الروايات الواردة في هذا الشأن تحدّد في شهر رجب سنة تسع من الهجرة، والأكثر من هذا أنّ بعض هذه الروايات تحدّد لنا حتى اليوم الذي خرج فيه النبي ﷺ إلى تبوك وكذا الفصل الذي كان فيه هذا الخروج، وجاء في طبقات ابن سعد: "أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو العقدي حدثنا سليمان بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حنظلة الغسيل حدثني ابن لعبد الرحمن بن عبد الله أو بن لعبد الله بن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه عن جده، أنّ رسول الله ﷺ خرج إلى غزوة تبوك يوم الخميس، وكانت آخر غزوة غزاها وكان يستحب أن يخرج يوم الخميس"،³ وجاء في كتاب المغازي النبوية لابن شهاب الزهري (124هـ) وبالضبط في ثنينا قصة كعب بن مالك: "... وأنا في ذلك أصغو إلى الظلال، وطيب الثمار! لم أزل كذلك، حتى قام النبي ﷺ غادياً بغداة وذلك يوم الخميس".⁴

¹ صحيح مسلم (شرح النووي)، 41-40/15، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ.

² صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة.

³ طبقات ابن سعد، 119/2.

⁴ المغازي النبوية لابن شهاب، ص 111، الجزء الموجود منها فقط.

وبالتأمل في الروايات الواردة في تاريخ غزوة تبوك تستطيع ولا شك تحديد الفصل الذي خرج فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي هو فصل الخريف تنضج فيه الثمار وتحلو فيه الظلال وتشتد فيه الحرارة، ويؤكد هذا ما جاء في كتاب المغازي لموسى بن عقبة: "ثم إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تجهز غازياً يريد الشام فأذن في الناس بالخروج وأمرهم به وكان في حر شديد وليالي الخريف والناس خائفون في نخلهم".¹

من خلال ما ذكر نستطيع القول أن تاريخ غزوة تبوك والله أعلم هو: يوم الخميس خمسة أيام خلت من شهر رجب من خريف سنة تسع للهجرة.

المطلب الثالث: سبب غزوة تبوك: اختلف المؤرخون في سبب غزوة تبوك اختلافاً بيناً، فذكر ابن سعد أنه: "بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجلبت معه لحم وخدام وعاملة وغسان وقدموا مقدماتهم إلى البلقان، فندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس إلى الخروج وأعلمهم المكان الذي يريده ليتأهبوا لذلك".²

وذكر الإمام السهيلي سبباً آخر حيث قال في الروض الأنف: "وذكر يونس بأثر حديث الجد بن قيس عن عبد الحميد بهرام عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم، أن اليهود أتوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي فألق بالشام فإن الشام أرض الحشر وأرض الأنبياء، فصدق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما قالوا فغزا غزوة تبوك لا يريد إلا الشام، فلما أنزل الله عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعدما ختمت السورة، "وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٩﴾ سُنَّةَ مَنْ

¹ المغازي النبوية لموسى بن عقبة، ص 294، وفي هذا الشأن قال برهان الدين حلي: "... أي كونه عند طيب الثمار يؤيد قول عروة بن الزبير: إن خروجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتبوك كان في زمن الخريف، ولا ينافي ذلك وجود الحر في ذلك الزمن، لأن أوائل الخريف وهو الميزان يكون فيه الحر". السيرة الحلبية في سيرة الحلبي في سيرة الأمين المأمون، 99/3

² طبقات ابن سعد، 119/2

قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ فَأَمَرَ بِالرَّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَ: "فِيهَا مِحْيَاكُ وَفِيهَا مَمَاتُكَ، وَمِنْهَا تَبْعُثُ" ثُمَّ قَالَ: "أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ" إِلَى قَوْلِهِ "مَحْمُودًا" فَرَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ نَاصِحًا وَكَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ مَطِيعًا، فَقَالَ: مَا تَأْمُرُنِي أَنْ أَسْأَلَ؟ قَالَ: "وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾" وَهَؤُلَاءِ نَزَلْنَ عَلَيْهِ فِي رَجْعَتِهِ تَبُوكَ.¹

بينما جاء في السيرة النبوية لابن كثير: "روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم: أنه لما أمر الله تعالى أن يمنع المشركون من قربان المسجد الحرام في الحج وغيره قالت قريش: لتتقطعن عن المتاجر والأسواق أيام الحج وليذهبن ما كنن نصيب منها فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكلاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، قال ابن كثير كذلك: قلت فعزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتال الروم لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى: "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يَكُونُكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٣٩﴾"."²

وقال الديار بكري في تاريخ الخميس: "وقصتها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما انصرف من غزوة الطائف وعمره الجعانة مكث بالمدينة ما بين ذي الحجة إلى رجب ثم أمر أصحابه بالتهيؤ إلى غزوة الروم وذلك أنه قدم المدينة جماعة من الأنباط بالدرمك والزيت وغير ذلك من متاع الشام فذكروا أن الروم قد جمعت بالشام جموعاً كثيرة لقتال المسلمين وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة وكان معهم بنو لحم وجذام وغسان وعاملة واجتمعوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها وتحلف عرقل بمحصر وكانوا كاذبين في ذلك ولم يكن

¹ 359-360/7، قال الحق: عن ابن عباس قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة، ثم أمر بالهجرة فأُتِىَ اللَّهُ هذه الآية: رواه أحمد وقال الترمذي حسن صحيح. وإذا كانت هذه الآية مكية فإن هذا السبب ضعيف.
² السيرة النبوية لابن كثير، 3/4.

من ذلك شيء وإنما ذلك شيء قيل لهم فأرجفوا به. ورد الطبراني من حديث عمران ابن حصين: قال كانت النصارى كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذي يدعي النبوة قد هلك وأصابهم سنون فهلكت أموالهم فبعث رجلاً من عظمائه وجهز معه أربعين ألفاً كذا في المواهب اللدنية فلما سمع رسول الله ﷺ بذلك أمر الناس بالتأهب للشام والتجهيز للمسير إليها وكان الزمان زمان حر وعسرة الظهر...¹

وإذا قمنا بربط غزوة تبوك بغزوة مؤتة فيبدو لنا جلياً أن سبب غزوة تبوك ما هو إلا امتداد للسبب الذي كان وراء إشعال فتيل الحرب الطاحنة التي خاض غمارها المسلمون ضد الروم، حيث قام شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان يومها عاملاً على البلقان من أرض الشام من قبل قيصر، بقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي الذي كان يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى، ومنذ ذلك الحين والعداوة قائمة بين المسلمين والروم والاستعدادات للحرب جارية لمحاولة القضاء على الخصم، فلا غرابة إذن أن يكون هناك إحساس بخطير متبادل، سيما أن الروم كانت أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان، وبالرغم من هذا كله فقد كان الخطر الإسلامي المسلح بالإيمان القوي والمدجج بالرغبة الأكيدة للجهاد في سبيل الله، يقض مضاجع الروم، فقد كان الخوف والقلق هو الخيم عليهم خشية هجوم مباغت في كل وقت وحين من هذا الطرف أو ذاك، فاشتد التوتر بين المسلمين والروم الذي هو أشبه ما يكون بالحرب الباردة بلغة العصر، أنحدت لهما غزوة تبوك بعدما استنفر رسول الله ﷺ جيوشه الباسلة وأمرهم بقتال بني الأصفر.

المبحث الثاني: ظروف الغزوة وعدد الذين خرجوا إليها والمستخلفون فيها ومميزاتها عن غيرها
المطلب الأول: ظروفها: في ظلال ذلك الجو المكهرب بين المسلمين والروم، أمر رسول الله ﷺ أصحابه إلى الخروج لغزو الروم وذلك في زمن عسرة من الناس

¹ تاريخ الخميس في أحوال أنفاس نفيس، 122/2-123.

وشدة من الحر وجذب من البلاد وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخصوخ على الحال من الزمان الذي هم عليه. فالمسلمون في عسرة من المال وضيق من العيش ولفح شديد من الحر ولكنهم كانوا يعتقدون آمالهم يوم قريب يجنون فيه الثمر ويحصدون الزرع ويروحون عن نفوسهم بفرج مقبل وخير آت، وبينما هم يرجون ذلك الأمل ويترصدون هذا اليسر وهم أشد ما يكونون رغبة في البقاء وأزهد ما يرون ميلاً عن السفر، إذاً رسول الله ﷺ يدعوهم للجهاد ويؤذن فيهم بالنفير العام "انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ".¹

ودعوة للجهاد في عسرة من المال وعسرة في الإنفاق وعسرة في الظهر، لتلقاها النفوس بحسب ما قدر لها من الهداية والتوفيق وبمقدار ما خالطها من الإيمان واليقين، فالنفوس الفياضة بالتقوى الطامحة إلى الجنة المتطلعة إلى رضوان الله عز وجل، لا تبالي الجهاد صيفاً أو شتاء، حراً أو قرأ، وإنما هي كلمة يلقيها رسول الله ﷺ فإذا أموالهم وأنفسهم بين يديه وطاعتهم منتبهة إليه، ذلك لأنهم علموا أنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يبطئون موطناً يغيب الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون.²

إنّ العدد الهائل الذي خرج به جيش المسلمين إلى غزو الروم لدليل قاطع وبرهان ساطع على قوة الإيمان ورغبة أكيدة في مغازلة الجيران رغم عجزهم- مع ما بذلوه من أموال- عن تجهيزه تجهيزاً كاملاً حيث تروي لنا كتب السيرة بأنّ المسلمين خرجوا إلى تبوك الرجالن والثلاثة على بعير واحد جاء في طبقات ابن سعد: "أخبرنا محمد بن حميد العبدي عن معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب في قوله تعالى: "الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ" قال: خرجوا في غزوة تبوك الرجالن والثلاثة على بعير واحد وخرجوا في حرّ شديد فأصابهم يوماً عطش شديد حتى جعلوا ينخرون

¹ سورة التوبة: 42.

² قصص القرآن، ص 447-448.

إبلهم فيعصرون أكراشها ويشويون ماءها، فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من الظهر وعسرة من النفقة".¹

وقال الأعمش عن أبي صلاح عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد، شك الأعمش، قال لما كان يوم غزوة تبوك أصاب الناس مجاعته فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فننحر نواضخنا فأكلنا وادهننا، فقال: أفعل، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إن فعلت قلّ الظهر، ولكن أدع بفضل أزوادهم لجعل الرجل يأتي بكف ذرة ويحيى الآخر بكف تمر ويحيى الآخر بكسرة حتى اجتمع على النّطع من ذلك شيء يسير، فدعا رسول الله ﷺ بالبركة، ثم قال لهم خذوا في أوعيتكم فأخذوا حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه وأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بها عبد غير شاك فيحجب عن الجنة.²

وهناك روايات كثيرة تصف لنا الظروف الصعبة والعسيرة التي خرج فيها النبي ﷺ وأصحابه إلى غزوة تبوك وما كابده من محن لا يستطيع الصمود في وجهها إلا من اصطفاه الله من عباده المخلصين.

المطلب الثاني: عدد الذين خردوا فيها: قد يظن صن اطلع على ظروف غزوة تبوك، من بعض مسلمي هذا الزمان، أنّ استجابة المسلمين لدعوة رسول الله ﷺ للخروج إلى تبوك في الظروف السالفة الذكر، لن تلقى صداها بالشكل المطلوب، وذلك راجع للقطيعة الشبه تامة التي تعيشها الغالبية العظمى من المسلمين بينهم وبين دينهم الإسلامي الحنيف، أنّ الظروف القاسية التي طبعت أجواء غزوة تبوك، والتضحيات العظيمة التي بذلت فيها، لكفيلة بتقييم درجة إيمان تلاميذ المدرسة الربانية، مدرسة سيدنا محمد ﷺ، فقد لقيت دعوة النبي ﷺ هذه

¹ طبقات ابن سعد، 165/2.

² مغازي الذهبي، 526/2، وقال أخرجه مسلم: صحيح مسلم، كتاب الإيمان باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرّم على النار، (41/1-42)

استجابة منقطعة النظير قاد من خلالها أكبر جيش في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال ابن سعد: "ومضى لوجهه يسير بأصحابه حتى قدم تبوك في ثلاثين ألفاً من الناس والخيول عشرة آلاف فرس، فأقام بها عشرين ليلة يصلي بها ركعتين".¹

وكان هذا الجيش أعظم جيش تألف في العرب.

المطلب الثالث: المستخلفون فيها: المستخلف على الأهل: استخلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب على أهله، حين خرج إلى تبوك وظن المنافقون إنما خلفه استئقلاً له وانتقاماً منه، فخرج علي يهرول وراء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليخبره بما يقول به المنافقون، قال ابن هشام: "وخلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه على أهله وأمره بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استئقلاً وتخففاً منه، فلما قال ذلك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضوان الله عليه سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نازل بالجرف"،² فقال يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أشبه استئقتني وتخففت مني، فقال: "كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورأيي، فارجع، فاخلفني في أهلي وأهلك أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على سفره".³

أخرج البخاري في صحيحه: "حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة عن الحكم عن مصعب بن سعد عن أبيه: "أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أخلفني في الصبيان والنساء؟ قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي".⁴

¹ طبقات ابن سعد، 119/2.

² موضع قريب من المدينة كان على بعد ثلاثة أميال منها.

³ السيرة لابن هشام

⁴ فتح الباري، 112/8.

- المستخلف على المدينة: اختلف أهل العلم فيمن استخلفه رسول الله ﷺ على المدينة: فمنهم من يقول محمد بن مسلمة ومنهم من يقول سباع بن عرفة، قال ابن هشام: "واستعمل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة الأنصاري، وذكر عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن أبيه، عن رسول الله ﷺ استعمل على المدينة مخرجه إلى تبوك سباع بن عرفة".¹

وكان ممن قال باستخلاف سباع بن عرفة على المدينة ابن حبان، حيث قال: "واستخلف على المدينة محمد بن عرفة أخا بني غفار".²

إلا أن الراجح في المستخلف على المدينة هو محمد بن مسلمة، قال ابن سعد: "واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة وهو أثبت عندنا ممن قال استخلف غيره".³ وبه قال الحافظ الذهبي⁴ وابن سيد الناس⁵ وغيرهما.

- واستخلف رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق للصلاة بالناس: قال ابن سعد: "وكان ﷺ استخلف على عسكره أبا بكر الصديق يصلي بالناس".⁶

المطلب الرابع: مميزات غزوة تبوك عن غيرها من الغزوات: لعل ما يميز غزوة تبوك عن غيرها من الغزوات تلك الظروف العصيبة والقاسية التي تم الخروج فيها، بالإضافة إلى تحقق بعض المعجزات فيها:

- ما انفردت به غزوة تبوك عن غيرها: منها أن رسول الله ﷺ لم يكن يعلن عن الجهة التي يقصدها في غزواته والقوم الذين سيغزوهم، وإنما العهدي به يخفي ولا

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 133/4.

² السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، ص 367.

³ طبقات ابن سعد، 119/2.

⁴ مغازي الذهبي، 523/2.

⁵ عيون الأثر، 216/2.

⁶ المرجع نفسه، ص 118.

يصرح. ويكني ولا يفصح، حتى كانت غزوة تبوك، وحيث غزاها في حر شديد واستقبال سفر بعيد وغزو عدو كثير، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم وأخبرهم بوجهه الذي يريده: فأمر الناس بالجهاز لغزو الروم. جاء في السيرة النبوية لابن هشام: "أنه كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان في غزوة تبوك فإنه بينها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو الذي يعتمد له لتأهب الناس لذلك أهبة، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم".¹ ومنها أيضاً العدد الهائل الذي خرج به جيش المسلمين والذي بلغ حوالي ثلاثين ألف مقاتل، بحيث لم يخرج المسلمون في مثل هذا الجمع الكبير قط، مما استعصى على المسلمين تجهيزه تجهيزاً كلياً، وكذلك سمي جيش العسرة.

ومنها كذلك أنّ هذه الغزوة انتصر فيها المسلمون دون إراقة دماء، فقد عوضهم الله سبحانه وتعالى محنتهم في رحلتهم العجبية إلى تبوك.

- المعجزات التي تحققت فيها: أولها تلك التي كانت بمناسبة تقول المناقبتين عند ضلال ناقة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال ابن اسحاق: ثم إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلَّت ناقته فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل من أصحابه يقول له عمارة بن حزم، وكان عقيماً بديراً، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقاً، فحدثني عاصم بن عمرو بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رجال من بني عبد الأشهل قالوا: فقال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة وعماراة عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس محمد يزعم أنه نبي ويخبركم عن السماء وهو لا يدري أين ناقته؟! فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعماراة عنده: "إن رجلاً قال هذا محمد يخبركم أنه نبي ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علّني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب في كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها" فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 130/4.

حزم إلى رحله، فقال، والله لعجب عن شيء حدثناه رسول الله ﷺ أنفاً عن مقالة قاتل أخبره الله عنه بكذا وكذا، للذي قال زيد بن لصيت، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد يجأ في عنقه ويقول: إني عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، أخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبي".¹

ثانيها ما ذكره، ابن عائذ أن رسول الله ﷺ نزل تبوك في زمان قل ماؤها فيه فاغترف رسول الله ﷺ غرفة بيده من ماء، فضمض بها فاهتم بصفه فيها ففارت عينها حتى امتلأت فهي كذلك حتى الساعة.²

ثالثها خبر أبي ذر: وأبو ذر هذا من الصحابة الكبار الذين لهم الخروج إلى غزوة تبوك رغم تقدمه في السن وقلته هته هي أنه أبطأ به جملة وتلومت به ناقته حتى تخلف عن الجيش فأخبر الصحابة النبي ﷺ بذلك فقال ﷺ: دعوه فإن يبه فيه ختير فسيلحقه الله بكم، فإن يك فيه غير ذلك فقد أراحكم الله منه"، فأخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ بعض منازل، فنظر ناظر من المسلمين فقال يا رسول الله: إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله ﷺ: "كن أبادر" فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: "رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده".³

قال ابن إسحاق ت فحدثني بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي، عن عبي الله بن مسعود، قال: لما نفى عثمان أبادر إلى الربرة، وأصابه بها قدره، لم يكن معه أحد إلا

¹ المرجع نفسه، 136/4.

² المرجع نفسه، 136/4.

³ عيون الأثر، 218/2، الحديث أخرجه مسلم في الفضائل (706) باب 3 في معجزات النبي ﷺ واللفظ لمسلم وأخرجه مالك في موطئه في قصر الصلاة (300) في فاتحته، وأحمد في مسنده (8/22131)

امراته وغلّامه، فأوصلاهّما أن اغسلاني وكفّاني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبو زر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فلما مات، فعلا ذلك به، ثم وضعوه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عمارة، فلم يرّهم إلا بالجنّازة على ظهر الطريق قل كادت الإبل أن تطوّها وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو زر صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، قال فاستهل عبد الله بن مسعود بيكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ تمشي وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك.¹

ورابعها: أنه لما انصرف رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، وكان في الطريق ماء يخرج من وشل² ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة، بواد يقال له وادي المشقق، فقال رسول الله ﷺ: "من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئاً حتى نأته" فسبقه إليه نفر من المنافقين، فاستقوا ما فيه، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه، فلم ير فيه شيئاً، فقال: "من سبقنا إلى هذا الماء؟" فقبل له يا رسول الله فلان وفلان، فقال: أو لم أنهم أن يستقوا منه شيئاً حتى آتاه؟ ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل، فجعل يصبّ في يده ما شاء الله أن يصبّ، ثم نضحه به - أي رشّ ما اجتمع في يده المباركة من ماء على الوشل - ومسح بيده، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما إن له حشا كحس الصواعق، فشرّب الناس، واستقوا حاجتهم منه، فقال رسول الله ﷺ: "لئن بقيتكم أو من بقي منكم لتسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه".³

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 137/4.

² ماء قليل يخرج من صخر أو جانب جبل.

³ الخبر أخرجه ابن هشام في السيرة النبوية من طريق ابن اسحاق، 139/4-140.

وخامسها أنّ رسول الله ﷺ لما مر بالحجر بديار ثمود، قال: "لا تشربوا من مائها شيئاً ولا تتوضؤوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرج أحد منكم إلا معه صاحب له" ففعل الناس، إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته فإنه خنق على مذهبه، وأما الذي خرج في طلب بعيره فاحتملته الريح، حتى طرحته بجبلي طيء فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال: "ألم أنحكم أن لا يخرج أحد منكم إلا ومعه صاحبه" ثم دعا للذي خنق على مذهبه فشفي، وأما الآخر، فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا الله فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتملوا حاجتهم من الماء.¹ والذي في صحيح مسلم، من حديث أبي حميد: انطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ "ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقيم منكم أحد، فمن كان له بعير فليشد عقاله" فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى القته بجبلي طيء.² هذه هي بعض المميزات والمعجزات وخوارق العادات التي طبعت غزوة تبوك التي هي آخر غزوة غزاها ﷺ.

المبحث الثالث: الإنفاق فيها

ما إن عزم رسول الله ﷺ على غزو الروم. وما إذا دعا الصحابة رضوان عليهم إلى التجهيز للخروج إلى تبوك حتى شمر هؤلاء عن سواعدهم، واستنفروا همهمهم، وأخذوا في السباق لفعل الخيرات، فرأيتهم يتطوعون بأموالهم وأنفسهم تفاعلاً مع دعوة نبيهم، ولا جرم في ذلك وهم يعلمون أنه ﷺ مؤيد بالوحي

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 135/4.

² قطعة من حديث مسلم وهو حديث طويل أخرجه في الفضائل (1392) باب 3 معجزات النبي ﷺ.

ومسدد به، ولا غرو في ذلك وهم الذين سمعوا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "من جهز جيش العسرة فله الجنة"¹ فاقية المال أمام مغفرة الله عز وجل عند جيل يؤمن بالله رباً ومحمد نبياً ورسولاً وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، وما قيمة المال عند جيل قال فيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم"، فلا عجب والحالة هذه أن تجد منهم من أتى بأمواله كلها ومنهم من أتى بنصفها، ومنهم بمن استطاع من ذلك، سيما والظروف عصبية والأيام أيام حر شديد وجذب من البلاد.

ولما كانت نفقة عثمان بن عفان عظيمة في هذه الغزوة فقد خصصت لها مطلباً منفرداً لأتحدث في مطلب آخر عن نفقة باقي الصحابة.

المطلب الأول: ما أنفقه عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال الحافظ الذهبي: "قال عمرو بن مرزوق، ثنا السكن بن أبي كريمة عن الوليد بن أبي هاشم، عن فرقد بن أبي طلحة، عن عبد الرحمن بن خبال، قال شهدت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحث على جيش العسرة، قال: فقام عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال يا رسول الله، علي مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله فقال: ثم حث ثانية، فقام عثمان فقال يا رسول الله علي مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم خص أو قال حث الثالثة. فقام عثمان فقال: يا رسول الله علي ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، قال عبد الرحمن: أنا شهدت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يقول على المنبر: ما على عثمان ما عمل بعد اليوم، أو قال: بعدها، وراه أبو داود الطيالسي وغيره عن السكن عن المغيرة".

وقال ضمرة عن ابن شاذب، عن عبد الله بن القاسم، عن كثير مولى عبد الرحمن، بن سمرة عن مولاه، قال: جاء عثمان إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألف دينار حين جهز جيش الحسرة، ففرغها في حجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل يقلبها ويقول: ما ضر عثمان

¹ صحيح البخاري كتاب الوصايا، باب. إذا وف! أرفعا أو بئرا، واشترط لنفسه مثل دلايه المسلمين، ورقم الحديث: 2626.

ما عمل يعد اليوم، قالها مراراً¹.

قال أبو داود الطيالسي: حدثنا أبو عوانة، عن حصين بن عفان يقول لسعد ابن أبي وقاص وعلي والزبير وطلحة: أنشدكم بالله هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال: "من جهز جيش العسرة غفر الله له فجهزتهم حتى ما يفقدون خطاماً ولا عقلاً؟ قالوا: اللهم نعم، ورواه النسائي من حديث حصين به"².

وفي المواهب اللدنية وكان عثمان بن عفان قد جهز عيراً إلى الشام، فقال يارسول الله هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ومائتا أوقية فضة، قال فسمعتة يقول لا يضرب عثمان ما فعل بعدها، وروي عن قتادة أنه قال: "حمل" عثمان في جيش العسرة على ألف بعير وسبعين فرساً، وعن عبد الرحمن بن سمرة قال جاء عثمان بن عفان بألف دينار في كمه حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره عليه الصلاة والسلام فرأيت رسول الله ﷺ يقلبها في حجره ويقول: "ما ضر عثمان ما فعل بعدي اليوم" أخرجه الترمذي وقال حديث غريب وعند الفضائي والملا في سيرته، كما ذكره الطبري في الرياض النضرة من حديث حذيفة بعث عثمان يعني في جيش العسرة بعشرة آلاف دينار إلى رسول الله ﷺ فصبت بين يديه فجعل ﷺ يقول بيديه ويقلبها ظهر البطن ويقول غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما هو كائن إلى يوم القيامة ما يبالي ما عمل بعدها وجعل الرجل من ذوي اليسار يحمل الرهط من فقراء قومه ويكفهم مؤنتهم"³.

قال ابن هشام: حدثني من أثنى به أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة

¹ قال ابن كثير: "وهكذا رواه الترمذي عن محمد بن بشار، عن أبي داود الطيالسي، عن سكن بن المغيرة أبي محمد مولى لآل عثمان به وقال غريب من هذا الوجه، ورواه البيهقي من طريق عمرو بن مرزوق عن سكن بن المغيرة به وقال: ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها"، 7/4

² السيرة النبوية لابن كثير، 7/4.

³ تاريخ الخميس، 123/2.

تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راض".¹ هكذا ومن خلال هذه الروايات وغيرها التي تبرز لنا نفقة عثمان، في غزوة تبوك، يتضح لنا أنّ عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الممول الأول لجيش العسرة، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على عمق الإيمان برسالة المصطفى. وصدق المشاعر والرغبة الأكيدة في ابتغاء وجه الله عزّ وجلّ والاستعداد الجدي للآخر.

المطلب الثاني: ما أنفقه باقي الصحابة رضي الله عنهم أجمعين: إنّ أفراد نفقة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحديث، لا يعني أنّ باقي الصحابة لم ينفقوا شيئاً أو أنفقوا الشيء اليسير في هذه الغزوة، بل على العكس من ذلك، فهذا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتنافس مع أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فيأتي عمر بنصف أمواله ويزعم أنه سينفق أكثر من أبي بكر، لكن هذا الأخير أتى بأمواله كلها، فيتحسر عمر ويقول في نفسه: يا ابن أبي قحافة ما سبقتك إلى خير، إلا سبقتني إليه، وهذا عبد الرحمن بن عوف يأتي بمائتي أوقية من الفضة، وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير...

وهناك نقطة أساسية لا بد منا التنبيه إليها، وهي إذا النفقة لم تقتصر على عنصر الرجال فقط، بل شملت حتى النساء اللائي أدلين بدلوهم في العطاء والنفقة: قال الديار بكري في تاريخ الخميس: "وبعث رسول الله ﷺ إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة وكانوا كلهم مسلمين في هذا الوقت يستنفرهم إلى الغزو، وحض رسول الله ﷺ من عنده من المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه وأمرهم بالصدقة، فجاءوا بصدقات كثيرة وكان أول من جاء بها: أبو بكر، جاء بماله كله أربعة آلاف درهم وجاء عمر بنصف ماله وجاء العباس بن عبد المطلب بمال كثير، وجاء طلحة بمال، وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتي أوقية من الفضة، وجاء سعد بن عباد بمال وجاء محمد بن مسلمة بمال، وجاء عاصم بن عدي بتسعين وسقاً من تمر وجهز

¹ السيرة النبوية لابن هشام، 131/4.

عثمان بن عفان ثلث ذلك الجيش كفاهم مؤنتهم، فقال رسول الله ﷺ ما يضر عثمان بن عفان ما فعل بعد اليوم... وجعل الرجل من ذوي اليسار يحمل الرهط من فقراء قومه ويكفهم مؤنتهم، وبعث النساء بكل ما قدر عليه من مسك ومعاضد وخلاخل وقرطة وخواتيم والناس في عسرة شديدة...¹

وروى عثمان بن عطاء الخرساني، عن أبيه، عن عكرمة، عن ابن عباس، في غزوة تبوك قال: "أمر النبي ﷺ المسلمين بالصدقة والنفقة في سبيل الله. فأنفقوا احتساباً، وأنفق رجال غير محتسبين، وحمل رجال من فقراء المسلمين، وبقي أناس، وأفضل ما تصدق به يومئذ أحد عبد الرحمن بن عوف، تصدق بمائتي أوقية وتصدق عمر بمائة أوقية، وتصدق عاصم الأنصاري بتسعين وسقاً من تمر، وقال النبي ﷺ لعبد الرحمن: هل تركت لأهلك شيئاً؟ قال نعم، أكثر مما أنفقت وأطيب، قال: كم؟ قال ما وعد الله ورسوله من الرزق والخير.²

¹ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، 123/2.

² مغازي الذهبي، 520/2.

الألفاظ الهندية المعربة

﴿1﴾

- د. محمد يوسف¹

امتازت الهند منذ أقدم العصور بوفرة وتنوع إنتاجها النباتي والحيواني والمعدني كما أنها اشتهرت بجودة الصناعات المختلفة المرتكزة على ذلك الإنتاج الطبيعي، ثم هي تصاقب من الناحية الشرقية بلاد الصين التي اختصت بطائفة أخرى من الحاجيات والكاليات التي لم يكن للعالم الغربي بد منها، ومن هنا نشأت "التجارة الشرقية" التي تنافس عليها المتنافسون من الفرس والعرب والروم، وأخيراً أقوام أوروبا الغربية، أعني البرتغاليين والفرنسيين والهولنديين والإنجليز، وقد استمرت هذه التجارة العالمية تجري من الشرق إلى الغرب حتى غير مجراها الآلات والمخترعات الحديثة وما أدت إليه من الانقلاب الصناعي والتقدم الاقتصادي في الممالك الغربية.

لقد كان لهذه التجارة أثرها الفعال في مداولة الأيام بين الناس، فثلاً يقول العلامة بارتولد: "صارت إيران مزاحمة قوية للدولة الرومانية في زمن الساسانيين ... واستولت براً وبحراً على طريق تجارة الهند والصين ذات الخطر لجميع العالم المتحضر، وبهذا الحادث يبتدئ انتقال التفوق في الحضارة من أوروبا إلى الشرق الأدنى".² كذلك يعتبر اهتداء واسكو دي كاما (Vasco da Gama) إلى طريق الهند نقطة التحول في العلاقات بين الشرق والغرب، وحقاً لئن كانت صفقة تفوق صفقة أبي غبشان في الخسارة والغبن، فهي تلك التي جعلت أسد البحر ابن ماجد يقود رائد البرتغاليين إلى ميناء كاليكت (Calicut) في سنة 1498م.

¹ أحد أبرز تلامذة العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي في باكستان

² الحضارة الإسلامية، 1950م، ص 4

فأثر تجارة الهند والصين في التطورات السياسية بين الأمم الشرقية والغربية معروف عند كثير من المؤرخين بإبرازه وتقدير خطورته، إلا أنّ هناك ناحية أخرى طالما بقيت غامضة مطوية لم تلق الاهتمام اللائق بها إلا منذ زمن قريب، ألا وهي تأثير العلاقات التجارية بالهند وما وراء الهند في حضارات الفرس والعرب والروم في العصور القديمة والوسطى، ولا أجد ما أقدم به لهذا الموضوع أحسن مما كتبه البروفيسور هيرن (Heeren) العالم المختص في العلاقات التجارية الدولية القديمة وهذا نصه:

"Of all the divisions of Asia the southern, containing the trategy of Hindustan, is distinguished by the richness and diversity of its productions. Here we not only find, with very few exceptions, all the products of other parts of civilized Asia, but so great a variety peculiar to its own climate, that it would appear as if a new and more beautiful creation had sprug up under the hand of nature. Nearly all the spices, which become necessary to mankind in excat proportion to the progress of luxuary and refinement, have at all times been peculiar to this region, while two of the most important articles used in clothing, viz., cotton and silk, were first produced here, and continue to be so in an especial degree, though their cultivation has been gradually extended to other countires.... The influence which an intercourse with India may have had on the civilisation of mankind, is a question worthy the close attention of the philosophical student of history, and one which not withstanding the important illustration, it has of late received, has been by no means sufficiently illucidated, it is of the greatest consequence to ascertain the channels through which, at various periods, it found its way, or into which it was conducted; and the whole course of history tends to prove that the countries which became the staples or depots of this commerce, uniformly attained a high degree of opulence and refinement; which, however, gradually

changed the habits and corrupted the manners of their inhabitants; at the same time that these were softened, sowing among them the seeds of luxury, and consequently of decline and ruin.¹

إذن كان من أثر تجارة الهند أن تطوّرت سبل المعيشة وأساليب الحياة، بل وتغيّرت الأمزجة والطباع لغير واحد من الشعوب القاطنة غربي الهند، وغني عن القول أنّ العرب، بالاشتراك مع الفرس سكان الخليج الفارسي، كانوا، بطبيعة مركزهم الجغرافي، أكثر تلك الشعوب اتصالاً وحرصاً على الاحتفاظ بدورهم في حركة استيراد المنتجات الهندية المختلفة ونقلها عبر أراضيهم إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ولئن كنا نأسف حقاً لعدم وجود المصادر اللازمة للحصول على معلومات وافية عن نشاط العرب في هذا الميدان فيما يتعلق بالصور السابقة للإسلام، ففي وسعنا أن نتلافى هذا النقص بالرجوع إلى لغة العرب وآدابهم² ودراستهما دراسة مقارنة إلى جانب اللغات الهندية مثل ما فعل العلماء الأفرنج بشأن دراسة علاقات الروم بالهند، وبما أنّ العرب كانوا في موقع وسط بين الروم والهند فقد ألفت بحوثهم أضواء على العلاقات العربية الهندية إلا أنها، بطبيعة الحال، أضواء جانبية فقط، أما موضوع العلاقات العربية الهندية بالذات فقد بقي مغموراً مجهولاً لا شيء إلا لعدم اتساع علم اللغويين الأوّل والمعنيين بالمعرب والدخيل في العربية إلى الهند ولغاتها، نراهم- وكثير منهم ينتمون إلى أصل فارسي- يقتصرون على إرجاع الكلمات إلى

¹ A. H. L. Heeren: Historical Researches into the Politics, Intercourse and Trade of the principal Nations of Antiquity, I/35-36.

² يقرّر الأستاذ هيرن هذا الأصل بقوله:

"We too often fine ourselves without the information necessary to follow the course of trade into the most remote regions: but when we meet with the mention of articles which are unquestionably peculiar to certain countries, we are warranted in concluding that a communication then existed with those countries, though we may be unable to define its nature and extent. A piece of sugar or a morsel of pepper in a neglected corner of a villageinn would be a certain proof of the trade with either Indies, even if we possessed no other evidence of the commerce of the Dutch and English with these countries." Heeren, 139-40.

الفارسية، وفي بعض الأحيان يقفون حائرين أمام كلمات لا يجدون لها أصلاً بالفارسية فيأتون بتعليلات من الخيال¹ إن دلت على شيء فهو أنّ الكلمة عدت غريبة في نظرهم، وأخيراً لفتت دراسات الغربيين النظر إلى هذا الموضوع الشيق فأقبل عليه العلماء الهنود بجدّ واهتمام، وفعلاً أثمرت جهودهم ثمرة طيبة من حيث أنها مهدت الطريق أمام الباحثين في المستقبل إلى ميدان واسع بكر.

هناك ثلاث طرق سارت عليها تجارة الهند إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط:

1. براً من الممرات على الحدود الشمالية الغربية للهند إلى بلخ، ثم على خط سير القوافل شمال صحراء كرمان إلى المدائن إلى أنطاكية والموانئ، المجاورة لها.
 2. بحراً من الساحل الغربي للهند إلى الخليج الفارسي مصعداً بالفرات ثم براً إلى إنطاكية والموانئ المجاورة لها.
 3. بحراً من الساحل الغربي للهند إلى ساحل عمان إلى ساحل اليمن ومن هناك إما على طول ساحل البحر الأحمر أو على خط سير القوافل إلى موانئ سوريا وفلسطين.
- غني عن القول أنّ الطريق البري استخدم قبل أن يستخدم الطريقان البحريان، وفعلاً وجد علماء الآثار ما يؤكد أنّ العلاقات بين أرض الأنهار الخمسة (البنجاب) وأرض الرافدين ترجع إلى عشرات القرون قبل عهد التاريخ المنتظم،² إلا أنّ التجارة عن هذا الطريق كانت عبارة عن انتقال البضائع من قبيلة إلى أخرى ضد أحوال طبيعية صعبة وكانت أيضاً متأرجحة لعدم استقرار الأحوال السياسية، ولذلك كان التحول إلى الطريق البحري إيداناً بزيادة ملحوظة في التبادل التجاري بين البلدين.

والدليل الموثوق به على جلب البضائع براً من الهند فيلة³ على مسلة (Shalmanassar)

¹ راجع مثلاً تحقيقنا عن "الفالج" و"القلقي" والكلام على "الشال" في الصفحات التالية.

² Wilson: The Persian Gulf. P. 28.

³ الفارسية "Pil" السنسكريتية "Pilu" إلا أنّ بعض العلماء يذهبون إلى أنّ هذه الكلمة ليست أصيلة في السنسكريتية.

(824-858 ق.م) ذكرت باسم غير معهود في الآشورية هو (Baziati) عن السنسكريتية (Vasita) وبما أنّ الفيلة ذكرت إلى جانب "الإبل من (Bactria) ذات السنامين" يتأكد لدينا أنها نقلت بالطريق البري عبر الحدود الشمالية الغربية للهند.¹

ولا بأس بأن نقف قليلاً عند ذكر "الإبل من Bactria" في القرن التاسع ق.م فنلاحظ أنّ من أشهر وأعزّ أصناف الإبل عند العرب "البختية" وهي على حد قولهم "الإبل الخراسانية تنتج من بين عربية وفالج" (اللسان) والفالج: البعير ذو السنامين ... يحمل من السند للفحلة (الصحاح) وصف الفالج بهذه الصفة ابن حوقل سنة 350هـ² والمقدسي سنة 375هـ حيث يقول هو الآخر:

(من خصائص السند) "الفالج الذي تراه بالمشرق وفارس يولد البخاتي وهو أعظم من البخت له سنامان مليح لا يستعمل ولا يملكه إلا الملوك ولا تكون البخت إلا منه".³

والفالج كلمة سنديّة محلية والجيم فيها علامة العجمة لا غير مع أنّ بعضهم لم يعد مهم التعليل بأنّ الفالج "يسمى بذلك لأنّ سنامه نصفان"⁴ وكذلك البختية "دخيل في العربية أعجمي معرب (اللسان ومثله في المخصص، 135/7 عن صاحب العين). إذن فما هو أصل الكلمة لم ينصّوا عليه بل ربما لم يهتموا إليه حتى أنّ بعضهم اجترأ على القول بأنّ الكلمة عربية (انظر اللسان) ... على كل حال ما من شك في أنّ "البختية" لم تكن غير "الإبل من Bactria".⁵

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً في هذا الصدد أنّ أصحاب المعاجم قد فرقوا، جرياً على عادتهم، بين مادتي "بخت" و"بختر" إلا أنّ مشية الجمال البختية طوال الأعناق ذات السنامين هن

¹ أنظر: Hobson-Jobson, (Supplement. "Elephant" Kenned", J.Early Commerce of Babylon with India. JRAS, 1897, p. 242-288

² المسالك والممالك، ص 231.

³ أحسن التقاسيم، ص 482.

⁴ المخصص، 68/7

⁵ أنظر: Dozy: Supplement.

أشبه شيء بمشية الخيلاء وقد جرت العرب على هذا المنوال في قولها "نفخت" من مشي الفاخنة¹ ومن الثالث أيضاً أنها كانت تصف النساء "بالخت". قال الشاعر:

وفيهن من بخت النساء سبحة تكاد على غرّ السحاب تروق²
أما العلاقات التجارية البحرية بين المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر وبين الهند فمن المقطوع به أنها راسخة في القدم إلا أنّ الأدلة فيما يتعلق بالفترة السابقة لسنة 700 ق.م ليست بكثيرة، من أهمها:

1. ورد في الكتابات التي ترجع إلى ما قبل 2000 ق.م أنّ الأكاديين كانوا يستوردون الأخشاب من Mangan أي عمان، ويرجع أنّ تلك الأخشاب إنما كان أهل عمان بدورهم يجلبونها من الساحل الغربي للهند³.
2. كلمة (Sindhu) الواردة في مكتبة (Assurbanipal): 626-688 ق.م) إنما يرجع أصلها إلى الهند وهي تعني "القطن الهندي" ومنها العبرية (Sadin) والعربية "سدين"⁴.
3. كلمة "Karpas" العبرية توافق السنسكريتية "Karpasa".
4. في القرن العاشر ق.م استعان سليمان، جرياً على سياسة أبيه داود، بالفينقيين لتنشيط حركة الملاحة والتجارة بين ميناء (Ezion Geber) (العقبة) و⁵Abhira=Ophir أعالي الساحل الغربي للهند⁶ وتعدّ الكلمات الآتية من آثار

¹ المخصص، 109/3

² سمط الآلي، ص 351.

³ انظر: Wilson: The Persian Gulf. P. 27 ولعل Magan هي "مزون" بالعربية.

⁴ H. J. Rawlinson: Intercourse between India and the Western World, Cambridge. 1926. P. 2-3

⁵ لقد أمكن تحديد الموقع بتل الخليفة غربي العقبة على أثر الأعمال التي قامت بها بعثة أمريكية هناك أثناء 1938-40م.

⁶ اختلف كثيراً بشأن Ophir بعضهم قرأوا الكلمة Sophir "سوبارة" بالهند أيضاً أو "ظفار" باليمن أو "سغالة" الزنج، إلا أنّ المرجح أنها كانت بالهند.

- هذه الحركة التي كانت ولا شك أقدم بكثير من عهد سليمان، ولم يكن منه إلا أن جعلها مباشرة بعد أن كانت تجري على أيدي وسطاء كثيرين:
5. العبرية "Shen Habbin" = "سن الفيل" (العاج) عن السنسكريتية "ibha-danta".
 6. العبرية (almug)¹ عن السنسكريتية والتاميلية (Valgu).
 7. العبرية (Koph) القردة عن السنسكريتية (Kapi) (قارن المصرية القديمة (Kafu).
 8. العبرية (thuki-im) عن التاميلية (tokei-togai) وعنها الفارسية والعربية "طاؤوس".
- هذا بالإضافة إلى الذهب والفضة والأجار الثمينة التي تتألف منها قائمة البضائع المستوردة من الهند على ذلك العهد².
- ولا يخفى أنّ هذه الأدلة، قليلة كما هي، قد تناولها بعض العلماء بالتجريح والرفض³ إلا أنهم في الوقت نفسه أكدوا أنّ عدم توفر الدليل لا يعني وجود ما يمنع التجارة البحرية، بل بالعكس امتاز الدراويون (Dravidians) سكان جنوب الهند منذ قديم الزمان بالاتجاه إلى الملاحة.
- ومنذ القرن السادس ق.م ينقشع الظلام وتوفر لدينا الأدلة القاطعة على ازدهار التجارة البحرية، منها:
1. العثور على قطع من الساج (المرهتية Sag) وغيره من الأخشاب الهندية في قصر نبخت نصر (Nebuchadnezzar) (562-604 ق.م) وفي معبد إله القمر الذي جدد نبخت نصر بناءه بـ(Ur).
 2. انتشار عدد كبير من البضائع الهندية في اليونان حيث كانت ترد عن طريق بابل ولا تزال أسماؤها اليونانية والعربية ترشدنا إلى أصلها فثلاً:

¹ نوع من الخشب الثمين، الصندل الأحمر على الأرجح، راجع: Cheyne: Ency. Biblica.

² Rawlinson, pp. 10-11.

³ في مقدمة هؤلاء الأستاذ J. Kennedy الذي مضت الإشارة إليه.

اللغة المصدر	اللغة الهدف (العربية)
السنسكرتية (Chandan)	العربية (صندل)
التاميلية (Arisi)	العربية (الأرز) ¹
التاميلية (Karppu)	العربية (قرفة)
التاميلية (Inchiver)	العربية (زنجبيل)
التاميلية (Pippali)	العربية (فلفل)
السنسكرتية والتاميلية (Vaidurya ²)	العربية (بلور)
السنسكرتية (Kirmj)	العربية (قرمز)

فهذه هي بعض الكلمات الهندية الأصل التي دخلت اللغة اليونانية عن طريق بابل في الفترة التي نحن بصدددها³.

وقد بحث العلماء عن التطورات التي أدت إلى نمو التجارة البحرية بين بابل والهند في القرنين السابع والسادس ق.م فوجدوا أن تلك الظاهرة توافق تشكيل (Sennacherib) بالكلدانيين وإحلال الفينيقيين محلهم في سنة 694 ق.م لأن الكلدانيين الذين سكنوا "سيف البحر"⁴ منذ القرن التاسع ق.م لم يكن لهم من التفوق في الملاحة ما كان

¹ الرز والآرز والرنز لغات فيه (الإنجليزية = Rice) وقد اتجه بعض العلماء أخيراً إلى الاعتقاد بأن المركز الذي انتشر منه الأرز في العالم هو التركستان ولذلك قالوا: إن أصل الكلمة هو "virinzi / virinza" بالفارسية القديمة = "briinj" بالفارسية الجديدة = "Vrihi" بالسنسكرتية. انظر: Sir George Watt: The Commercial Products of India, London, 1908, p. 824 etseq.

² بالبراكرتية "vailurya" انظر: Hobson-Jobson "Beryl".

³ Rawlinson, p. 14.

⁴ "Sealand" الوارد ذكره في الكتابات المسمارية والممتد من مصب الفرات إلى Dilmun = البحرين (فارس نامه لابن البلخي تذكرجب، 1921م، ص 140، ويظهر أن العرب كانوا يعنون بـ"السيف" هذا السيف الغربي للخليج الفارسي خاصة، قال الأخنس بن شهاب:

لكيز لها البحران والسيف كله وإن يأتيها بأس من الهند كارب

المفضلية: 41/9

لأقربانهم الفينيقيين الذين جلبهم الملك الآثوري من أعالي دجلة والفرات وعلى هذا يمكن القول بأن شجاعة الفينيقيين وخبرتهم بأعمال الملاحة والتجارة التي اكتسبوها في موطنهم الغربي هما اللتان تغلبتا على مخاوف البحر الهندي.¹ ومن ناحية أخرى نجد في المصادر الهندية الراجعة إلى هذا العهد ولاسيما المجموعة المسماة بـ "Baveru Jatka" قصصاً عن التجار الهنود (أغلبهم من الدراوديين الذين مضى الإلماع إليهم) قيل إنهم أثاروا إعجاب أهل بابل بالغراب تارة وبالطاووس تارة أخرى.

ولا يفوتنا في هذا المقام التنويه بأن تجارة الهند هذه كانت السبب الرئيسي في رخاء بابل وعظمتها التي بلغت أوجها في هذا العصر حتى أثار حسد فرعون مصر (نخاو) (Necho) (596-612 ق.م) فما كان منه إلا أن بذل الكثير من الأموال والأرواح في سبيل إعادة بناء القناة الموصلة من النيل إلى البحر الأحمر، تلك التي كان افتتحها لأول مرة (Sesostris) في القرن العشرين ق.م.

وقد كان لهذه العلاقات أيضاً أثر خالد في أربع من أهم نواحي الحضارة في الهند:

1. الخط البراهمي (Brahmi)، الذي تفرعت منه الخطوط الهندية المختلفة، إنما كان من أصل سامي قوي الشبه بالحروف الفينيقية إلى درجة تؤكد أنه دخل الهند عن طريق الساحل الغربي على أيدي التجار الفينيقيين وقد حدّد الدكتور بوهلر (Dr. Buhler) تاريخ دخوله الهند بسنة 800 ق.م ومع أنّ هذا التحديد لا يزال موضع نقاش إلا أنه من البديهي أنّ الخط لا بد أن يكون قد مضى عليه قرون قبل أن يتطور فيتلاءم مع مقتضيات اللغات الهندية كما يبدو في الكلمات التي يرجع عهدها إلى القرن الثالث ق.م وهي أقدم الكتابات التي عثر عليها في الهند.²

¹ راجع مقال Kennedy السالف الذكر.

² Cam. Hist. of India I. pp. 140-142 وانظر أيضاً دائرة المعارف البريطانية "Sanskrit" كذلك الخط الخروشي الذي انتشر في المناطق الشمالية الغربية للهند كان من أصل سامي آرامي.

2. نظام منازل القمر المعهود عند الهنود إنما هو مأخوذ من بابل. (Nakshatras)
3. يرجع الأستاذ كينيدي (Kennedy) أنّ الهنود إنما اقتبسوا نظام التعامل بالعملة المعروفة بـ "Puranas" مما كان متبعاً عند أهل بابل¹ ولا يخفى أنّ (Puranas) أقدم عملة عرفت بالهند وقد استمر التعامل بها إلى عهد قريب، ويرى كاتب هذا المقال أنها هي المعنية بـ "الفهري" عند مسعر بن مهلهل² و"القنبري" (تصحيف "الفهري" أو "القنبري")، عند المقدسي³.
4. يتبين بعض العلماء علاقة ما بين الأوزان الهندية القديمة وبين مثيلاتها عند أهل بابل مثل "المن" إذ أنّ أمرها مشكوك فيه جداً⁴.

في سنة 538 ق.م: امتدت سيطرة الفرس على بابل وغرب آسيا كلها وامتازوا بالجمع بين مصر من جهة ووادي السند من جهة أخرى في حوزتهم إلا أنّ هذه الميزة، التي لا يمكن التقليل من أهميتها، لم تستخدم، كنتيجة للمنازعات السياسية، لتسهيل التبادل بين المناطق الثلاث (البنجاب وبابل ومصر) التي كانت أهم مراكز التجارة الدولية، ومن ثم يعتبر هذا العهد- عهد الأخمينيين (Achoemenians) الذي امتد إلى ظهور الإسكندر (القرن الرابع ق.م)- عهد ركود على الرغم مما هو معروف عن دارا الأكبر (485-521 ق.م) أنه جهز وحدة بحرية تحت قيادة (Scylax) اليوناني للسفر وتفقد الأحوال من نهر السند إلى مصر كما أنه أنشأ قناة من النيل إلى السويس وأرسل من هناك سفناً إلى فارس.

لكن العلاقات التجارية بالهند كانت قد توطدت إلى حد أنها أبت إلا أن تتخذ لها

¹ راجع الجزء الثالث من مقاله الذي سبقت الإشارة إليه.

² البلدان لياقوت "الصين": "درهمهم (أهل كلة) بزن ثلثي درهم ويعرف بالفهري".

³ أحسن التقاسيم، ص 482 في نسخة "الفهري" وليعلم أنّ المقدسي نفسه ينص على القنبريات غير "القاهريات" أو "القندهاريات" كما عند ابن حوقل 228 والأصطخري، ص 173، كل درهم منها خمسة دراهم.

⁴ Rawlinson, p. 15.

مجرى آخر،¹ فإنّ الفرس لما لجأوا إلى التّكّيل بأهالي بابل وتخريب موانئهم وسدّ دجلة والفرات ما كان من الكلدانيين، الذين قد عرفناهم من قبل، إلا أن نقلوا أنفسهم ونشاطهم إلى (Gerrha) (على شاطئ الحسا)² التي سرعان ما أصبحت مدينة تجارية معروفة، وبعد قليل ظهر الينيون كمنافس قوي للكلدانيين في هذا الميدان فاتخذوا من (Mouza) = موخا وقنا (Kane) وعدن مراكز لهم وما لبثوا أن جذبوا إليها معظم تجارة الهند وأفريقيا الاستوائية أيضاً بالإضافة إلى التجارة في أنواع الطيب المحلية من جنوب جزيرة العرب وكلما تدفقت هذه التجارة على خط سير القوافل من اليمن إلى الشام- ذلك الخط الذي ربما سارت عليه بلقيس لزيارة سليمان- اشتهر قوم سبأ بالثروة والبسطة اللتين ضرب بهما المثل. وسنرى كيف أنّ فقدان هذه التجارة أدّى إلى خراب العمران الذي أصبح هو الآخر مضرب المثل.

في النصف الثاني من القرن الرابع ق.م قلب الإسكندر الأوضاع ببسط سلطانه إلى حدود السند وسرعان ما أبدى اهتمامه بإعادة النشاط التجاري بين ساحل السند والخليج الفارسي فأرسل بعثة استكشافية لهذا الغرض تحت قيادة (Nearchus) على غرار ما كان فعله دارا الأكبر من قبل إلا أنّ موته حال دون القيام بأيّ عمل آخر في هذا الشأن، أما خلفاؤه الذين اقتسموا المملكة بينهم فقد شغلوا بالحروب الأهلية حتى أنّ السلوقيين (Seleucids) لم يكن يهمهم غير الحصول على الفيلة من الهند عن طريق إيران كما أنّ خصمهم في مصر بطليموس الثاني كان معنياً بجلب ذلك الحيوان من الحبشة لأغراض حربية ولكن إلى جانب ذلك نلاحظ أنّ العلاقات بين ملوك الهند من جهة وملوك الشام ومصر من جهة أخرى كانت في هذه الفترة أكثر توثقاً من ذي

¹ لعلّ تحول تجارة الهند عن طريق الخليج الفارسي إلى طريق البحر الأحمر كان قد بدا في عهد نسخت

نصر وبعث ونسنت تخريب ذلك الملك لمدينة صور بهذا السيف نفسه، انظر: Wilson: p. 33

² بخذاء هجر في الجنوب الغربي من مدينة القطيف تقع "العقير" وهي الآن ميناء صغير وعلى مقربة منها خرائب يعتقد العلماء أنها موضع (Gerrha) = جرهاء (الدكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، 1/140).

قبل، لا أدلّ على ذلك من وفود (Megasthenes) و (Dionysius) سفيرين لسلوكس وبطليموس على الترتيب لدى بلاط جندر كبت موريا (Chandragupta Maurya) ومما يذكر عن ملك الهند هذا أنه أقام عدداً من الموظفين للاتصال بالأجانب والسهر على راحتهم أثناء زيارتهم للهند ويستنتج من هذا كله أنّ التجارة بين الهند والخليج الفارسي لم تكن قد وقعت أو هبطت إلى درجة كبيرة، ثم ساعدت الأحوال السائدة بأعالي الخليج على تركيز هذه التجارة في أيدي أهل Gerrha الذين ربما كانت ثألف أغليبتهم الآن من العرب وفي نفس الوقت كان نشاط سبأ في ازدياد مستمر وقد شاركهم في هذا النشاط النبطيون بأعالي البحر الأحمر، أولئك القوم الذين ما كانت عاصمتهم الرقيم (Petra) لتنال شهرتها في التاريخ لولا أنها وقعت موقعاً هاماً على خط سير القوافل من اليمن ومن العقبة (Aelana) أيضاً.

لقد اتضح مما سبق أنّ مصير سبأ ورخاءها وحضارتها كانت مرتبطة ارتباطاً تاماً باستمرار تجارة الهند على الخط البري المحاذي لساحل البحر الأحمر إلى أسواق الثعام، وفعلاً نرى تجار سبأ حريصين حرصاً بالغاً على الاحتفاظ بهذا الخط إلى حد أنّ الروم واليونان كانوا يعتقدون طوال هذه المدة أنّ المنتجات الهندية التي كانت تنقل إليهم عن هذا الطريق كانت من منتجات اليمن المحلية.¹ ويجدر بالملاحظة في هذا المقام أنّ الأخطار الشديدة التي كانت تحدق بالملاحة في البحر الأحمر فوق عدن من عدم وجود موانئ صالحة وقلة الماء والقرصنة وما إليها كانت من أهم العوامل التي جعلت من الخط البري الطريق المفضل قروناً عديدة، إلا أنّ اليونانيين كانوا دائماً يبذلون محاولات جدّية للتغلب على تلك الصعاب من قاعدتهم في مصر مما جعل اليمنيين يرقبون تصرفاتهم بيقظة وحذر، فثلاً لما عمد بطليموس الثاني (246-285 ق.م)، الذي كانت سلطته تمتد إلى فينيقية وفلسطين، إلى إعادة فتح القناة القديمة بين النيل والسويس (Arsinoe) أولاً وإنشاء الطريقين الصحراويين من (Koptos)

¹ Hitti: Hist. of the Arabs, p. 48.

إلى (Berenike) ومن (Koptos) إلى (Myos Hormos) ثانياً أحدث ذلك ردّ فعل قوي بين اليمنيين. على كل حال أقصى ما توصل إليه اليونان، بعد هذه الجهود المضنية، هو ابتياع البضائع الهندية من حين إلى آخر في الموانئ اليمنية، خاصة (Mouza)، ثم نقلها إلى (Koptos) كما مرّ بدون أن يتسنى لهم الاستغناء عن وساطة سبأ ومن المعتقد أنّ النساء والكلاب والنيران والأبقار والتوابل الهندية المحملة على الجمال، تلك التي ازدان بها الموكب التاريخي لبطليموس الثاني سنة 270-271 ق.م. أمّا وصلت إلى عاصمة مصر بعد إعادة شحنها في الموانئ اليمنية، نعم وقد برز في هذه الأونة أيضاً اسم جزيرة ستوطرة¹ كسوق دولي هاجر إليها واستوطنها اليونانيون² للمشاركة في تجارة الهند والحبشة.

خلاصة القول أنّ تجارة الهند ما زالت تتحول من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر منذ بداية عهد الفرس الأخمينيين، بل وقيل ذلك منذ أيام بخت نصر إلى أن أصبح الطريق الأخير هو الطريق الرئيسي في القرن الثاني ق.م وفي هذه الفترة بالذات "أي منذ انتقال الكلدانيين إلى (Gerrha) بدأ العرب سكان المناطق الساحلية الجنوبية الشرقية والجنوبية يمارسون هذه التجارة ويستولون عليها أكثر حتى أصبحوا محتكرين لها يعضّون على احتكارهم بالنواجد ولم يستطع عملاؤهم اليونان مع شدة تلقتهم، إحداث أيّ تغيير جوهري في الوضع حتى القرن الثاني ق.م.

ولكن ما كاد القرن الثاني يقترب من النهاية حتى حدث ما كان في الواقع بداية لنهاية أمر العرب وهو أنّ ملاحاً هندياً غرقت سفينته فوصل في قارب النجاة إلى الساحل الغربي للبحر الأحمر حيث تولّى الخفر نقله إلى الإسكندرية، وبينما هو في تلك المدينة وقد أخذه الحنين إلى الوطن إذ التقى بـ (Eudoxus of Cyzicus)

¹ السنسكريتية "Dvipa Sukhatara" أي جزيرة السعادة.

² بقول أبو زيد السيرياني (سلسلة التواريخ، باريس 1845م، ص 133-134)، "إن الإسكندر هو الذي اهتم بإسكان اليونانيين تلك الجزيرة تحقيقاً لرغبته في الاستيلاء على منابت الصبر بها".

الذي كان له باع في علم الجغرافيا، ولم يمض وقت طويل حتى تواعد الاثنان وحصولا على موافقة الملك (Euergetes II) ومساعدته للقيام برحلة إلى الهند وقد تم ذلك فعلاً ما بين 110-120 ق.م¹ فرجع الملاح الهندي إلى أهله بعد أن دلّ يودوكسس على الطريق إلى الأرض التي كان يسمع عنها اليونان أن بها "أشجاراً تنبت الصوف" و"أشجاراً تذوب في الفم فتكون أحلى من التين ومن العسل" (القطن والسكر على حد تعبير (Herodotus, Megasthenes) على الترتيب).

ولم تكن نتائج هذه الرحلة، التي كانت الأولى من نوعها، لتضيق على الملاحين اليونان فقد اتبعها يودوكسس نفسه على الأقل برحلة أخرى وما من شك في أن آخرين حذوا حذوه من حين لآخر، لأننا نفاجاً قبل مضي فترة طويلة بسبق الملاح اليوناني، المتمثل في (Hippalus)، على العرب إلى الاكتشاف عن طريقة استخدام الرياح الموسمية الجنوبية الغربية في السفر إلى الهند أيام الصيف، من المؤكد أن العرب لم يكونوا يجهلون الرياح الموسمية، كفى دليلاً على ذلك أن الكلمة العربية "موسمية" هي التي انتقلت وتطورت إلى (monsoon) لكنهم، لسبب ما، لم يكونوا قادرين على استخدامها أبان هباج البحر في فصل الصيف بالذات.² مهما يكن من أمر فإن ما امتاز به اليونان كان كشفاً عظيماً أدّى إلى انقلاب خطير في طريق الملاحة والتجارة ويؤرخ هذا الكشف - كشف (Hippalus) في سنة 45م إلا أن بين أيدينا أدلة على تغلغل اليونان وكثرة ترددهم على المناطق التجارية بالهند قبل ذلك، منها إفاد بعثة من قبل الملك (Pandion) بأقصى جنوب الهند³ إلى (Augustus) بمصر في سنة 20 ق.م، كذلك شهادة استرابو (Strabo) الصريحة بأن 120 مرجاً

¹ انظر: Rawlinson, p. 96-99

² سيجد القارئ بحثاً قيماً عن هذا الموضوع في George Fadlo Hourani: Arab Sea-faring in the Indian Ocean, Princeton, 1951, p. 25.

³ "Pandya = Pandion" هذا هو التفسير السائد وقد ذهب البعض إلى أن المراد به (Kadphises) "Porus" (I) بالمنطقة الشمالية الغربية انظر: Rawlinson, p. 108

سارت إلى الهند في سنة واحدة (25 ق.م) من ميناء (Myos Hormos)، ثم لا يخفى أنّ حملة (Aulus Galus) على اليمن في عهد (Augustus) نفسه سنة 24 ق.م لم تكن إلا حلقة في سلسلة الخطوات لانتزاع تجارة الهند من أيدي العرب.¹ وذلك بالتواطؤ مع النبطيين شركاء سبأ الذين سبقوا الإشارة إليهم، لكن الحملة فشلت فشلاً ذريعاً وظل مركز العرب قوياً. وكان ناقوس الخطر قد دقّ والخراب يتسرب إلى اليمن رويداً رويداً.

وبمناسبة ذكر الملك (Pandion) لا بأس بأن نستطرد قليلاً لنضرب مثلاً للفائدة التي تعود على الأدب العربي من الدراسات المقارنة فنقول إنّ مملكة (Pandye) بأقصى جنوب الهند قد اشتهرت من قديم الزمان بمغاصات اللؤلؤ الواقعة في المياه الضيقة بين ساحل الهند وجزيرة سيلان وجاء عنها في الأساطير الهندوكية أنّ الإله كرشن (Krishna) جمع اللآلي من أنحاء العالم وركبها في تلك المنطقة لتنتزّن بها ابنته ملكة (Pandye). لقد ذكر (Megasthenes) المغاصات والأسطورة المتعلقة بها² كما لم يغفل الإشادة بها أحد من الزائرين لتلك المنطقة في جميع العصور من بينهم سليمان التاجر³ وماركو بولو⁴ إلا أنه كان بهذه المنطقة ميناء هامّ ربما سار اسمه مع اللآلي التي كانت تصدر منه وهو (Kolkai)⁵ وبما أنّ مياه البحر انحسرت وابتعد الساحل من موقع هذا الميناء أثناء العصور القديمة نفسها اختفت الإشارة إليه فيما عدا المصادر اليونانية الراجعة إلى الفترة التي نحن بصدددها، ثم مضت قرون فاجأنا على أثرها الشاعر العربي علقمة بقوله:

¹ انظر: Hitti, p. 46.

² Can. Hist. of India.

³ سلسلة المتواريخ ص، 120.

⁴ The Travels of Marco Polo, Broadway Travellers, London, 1931, pp. 292-293.

⁵ على نهر Tamraparni بإقليم Tinnevely انظر The Periplus of the Erythraean Sea (Schoff), 1912, p. 237.

محال كأجواز الجراد ولؤلؤ من القلقي والكيس الملوب¹
كذلك قول ابن الرومي أيضًا:

يفتر ذاك السواد عن يقق من ثغرها كالآ القلق²
"القلقي" = ال(Kolkai) لا غير. لكن انظر ما جاء عنه في اللسان "القلقي ضرب من الحلي، قال ابن سيده: ولا أدري إلى أي شيء نسب إلا أن يكون منسوباً إلى القلق الذي هو الاضطراب كأنه يضطرب في مسلكه ولا يثبت..!" وفي بعض الأحيان ألبأت الحيرة النساخ إلى التحريف: "القلقي" بدل "القلقي" إلا أن الأمر لم يزل مغلقاً.

لقد سبق أن رأينا ما كان لـ (Gerrha) من شأن كبير في التجارة الدولية، يبين لنا (Eratosthanes) 194-276 ق.م كيف أن أهلها- ولا شك أن غالبيتهم كانت من العرب- كانوا يقومون بنقل أنواع الطيب والبضائع الأخرى المجلوبة من جنوبي جزيرة العرب والحبشة إلى بابل و (Seleucia) كانوا ينقلونها بالقوافل البرية وربما أيضًا بالسفر التي كانت تصعد بدجلة إلى (Seleucia) نفسها³ وقد كان لهم نصيب من تجارة الهند أيضًا مع أن معظمها كانت قد تحولت إلى اليمن والبحر الأحمر، ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء التجار الوسطاء على ساحل الخليج الفارسي استمروا في أعمالهم ونشاطهم طوال قرون عديدة بدون أية محاولة للتدخل من قبل السلوقيين اللهم إلا ما كان من (Antiochus III) الذي أغار على (Gerrha) حوالي سنة 205 ق.م لكنه سرعان ما رضي بالرجوع قانعاً بالغنائم والهدايا من البضائع التي كان الأهالي يتجرون بها ولا يخفى أن السلوقيين كانت لهم تجارة واسعة بالهند عن طريق البر (إيران) وهكذا ظل الحال أيام البارثيين (Parthians) الذين استولوا على بابل

¹ القعد الثمين، ق 4/1.

² كتاب التشبيهات لابن أبي عون- تذكركب-، ص 97.

³ Wilson, p. 45.

والمدائن ما بين 140 و130 ق.م فهم أيضاً قصرُوا اهتمامهم على تجارة الهند (والصين أيضاً) عن طريق البر فقط¹ وقد كانت تكفي لتدبرّ عليهم أرباحاً طائلة. على كل حال لم يحدث في منطقة الخليج الفارسي مثل ما حدث في منطقة البحر الأحمر من منافسة اليونان للعرب.

لم تكد دعائم الإمبراطورية الرومانية تتوطد في سوريا وفي مصر قبيل بدء التقويم المسيحي حتى نعمت البلاد بالاستقرار وتأمين السبل والقضاء على القرصنة مما أدى إلى شدة الإقبال على سلع الكماليات المستوردة من الهند والصين في روما والإسكندرية والمدن الأخرى، ولذلك يعتبر القرن الأول المسيحي أزهى عصور تجارة الهند بالغرب، أما التطورات التي كانت قد حدثت في سير هذه التجارة بالنسبة إلى العرب فتبينها بوضوح في مذكرات بحار يوناني مجهول كتبها حوالي سنة 80م باسم (The Periplus of the Erythraean Sea) نتبين منها أنّ الملاحين الروم كانوا إذ ذاك يجرون رأساً من قنا أو من (Ocelis) إلى (Muziris=Cranganore) بالجزء الأسفل من الساحل الغربي للهند وذلك في الحقيقة يمثل تقدماً كبيراً على ما جرت عليه العرب من السير بمحاذاة الساحل إلى منطقة البوانج² أي بكرات (Gujerat) وربما انحدرُوا من هناك إلى ساحل المليبار أيضاً- إلا أنّ الروم، على الرغم من تفوقهم هذا، كانوا لا يزالون بعيدين من القضاء على نفوذ العرب القديم في الأسواق الهندية، يذكر أنّ الروم لم يكونوا يستطيعون الحصول على القرفة (الحاء) إلا في رأس (Guadrafal) لأنها كانت تحجب عنهم في الأسواق الأصلية بينما كان ورق تلك الشجرة، شجرة القرفة نفسها، معروضاً عليهم في المليبار حتى اشتهر بينهم باسم (Malabathrum)³ وهذا أطرف مثال للأوامر

¹ Hourani, p. 14.

² هكذا يسمّيها أبو الفداء: التقويم (باريس)، ص 358.

³ Periplus، ص 4.

الوطيدة بين المصدرين من التجار الهندوس والوسطاء العرب ضد عملائهم الروم. لكن لا يظن أنّ الاتفاق بين الشريكين القديمين كان كفيلاً بمقاومة تغلغل الدخيل الجديد الذي اقتحم الميدان مسلحاً بالتفوق في طرق الملاحة فإنّ المصدر نفسه أعني (Pariplus) يحدّثنا أيضاً عن الموالاة بين الروم وبين حمير ملوك ظفار الذين كانوا قد حلّوا محلّ سبأ منذ حوالي 115 ق.م، وذلك شاهد على أنّ العرب وإن لم يكونوا قد تركوا الميدان إلا أنهم كانوا قد بدأوا يهادنون خصومهم وهل ذلك إلا كنتيجة للضعف والوهن.

ومما زاد الطين بلة ظهور منافس جديد للعرب في تجارة الهند. لا يخفى أنّ الهندوس كانت لهم علاقات تجارية قديمة جداً بساحل الصومال والحبشة، لا أدلّ على ذلك من أنّ المصادر الهندوسية تحتوي على أقدم الإشارات إلى "رجال القمر" و"جبال القمر"،¹ ثم أنّ العرب، وإن لم يرحّبوا بالتجار الهندوس في الموانئ اليمنية، كانوا قد أمسكوا عن مزاحمتهم في منطقة شرق أفريقيا² حتى أصبحت ملتقى للتجار الهنود والعرب واليونان والروم أيضاً وقد ظلت على حالها هذه إلى أن بدأ الحبشيون يتطلعون في الفترة التي نحن بصددّها إلى نصيب أكبر لأنفسهم من تجارة الهند وسرعان ما راحوا ينشدون تحالفاً مع الروم ضد العرب لهذا الغرض،³ وهكذا أصبحوا عاملاً جديداً كان له شأن يذكر فيما بعد.

على كل حال بلغ استهلاك البضائع الشرقية، ولاسيما أنواع الطيب، ذروته في عهد نبرو (Nero) - 68-54م فقد ذكر بيلني (Pilny) أنّ المملكة الرومانية كانت تتكبد ما يقدر بمليون ومئة ألف جنيه سنوياً ثمناً لمشترياتها من جزيرة العرب والهند والصين

¹ المصدر نفسه، ص 87 نقلاً عن Speke: Discovery of the Source of the Nile.

² المصدر نفسه، ص 3.

³ Hitti، ص 59

وكان نصف هذا المبلغ تقريباً من نصيب الهند وحدها،¹ وقد اضطر الملوك الذين جاءوا من بعد إلى فرض بعض التقشف صوناً للمركز المالي إلا أنّ حركة الاستيراد ما زالت قوية حتى كان عهد طراجن (Trajan) 98-117م- الذي سعى لتضييق الخناق على العرب وذلك بإعادة فتح القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر. (وكانت قد انسدت منذ عهد البطليموس الثاني) وتوصيلها إلى بابل مصر ثم بضم إقليم النبطيين، الذين كانوا قد ساعدوا (Aulus Galus) ضد اليمنيين، إلى مملكته وإنشاء طريق رئيس من العقبة إلى دمشق وأخيراً بانتزاعه جميع الأراضي الممتدة إلى (Charax) و (Apologus) بأعالي الخليج الفارسي من أيدي البارتيين، لا شك أنّ فكرة السيطرة على هذين المنائين كانت فكرة سليمة جريئة لأنهما كانا على اتصال بحري شرقاً بالهند، وقد اتفق لطراجن نفسه حينما كان واقفاً على رصيف Charax أن رأى سفينة تتأهب للإقلاع إلى الهند فأسف على أنه لم يكن في وسعه التقدم إلى تلك البلاد لكبره وكانت تمتد أيضاً من المنائين خطوط تجارية غرباً إلى موانئ الشام وعلى ذلك فقد أراد طراجن أن يتم له الجمع بين منطقتي الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سيطرته، وتلك ميزة لم تيسر من قبل لغير دارا الأكبر والإسكندر وكان يرجى أن تكون لمثل هذه الخطوة آثار بعيدة لولا أنّ البارتيين سرعان ما استردوا ما كانوا قد فقدوه فاقصرت النتيجة على أن يرز اسم مدينة (Palmyra) تدمر تكلف للرقم التي خربها طراجن سنة 105م وقد نال هذا المركز التجاري الجديد قسطاً وافراً من الازدهار لأنّ الفريقين رأيا من مصلحتهما عدم التعرض له حتى بقي أهله يتجرون في كلتا المملكتين المتخاصمتين وينقلون البضائع بينهما وذلك إلى سنة 273م الوقت الذي رأى فيه الروم أنّ الفرصة قد سنحت للاستيلاء على تدمر كما كانت قد استولت على الرقيم من قبل.

¹ Rawlinson، ص 103

يتجلى لنا في جغرافية بطليموس (حوالي 150-160م) مدى التقدم الذي كان قد أحرزه التجار الروم في الاستيلاء على التجارة الشرقية وذلك طبعاً على حساب نفوذ العرب ومصالحهم فقد كانوا عرفوا خليج البنغال بما فيه مصب نهر الكنك (Ganges) و"بلاد الذهب" (جنوبي ملايو) كما أنّ واحداً منهم على الأقل يسمّى الإسكندر كان قد زار طونكنج (Tong King)، كذلك وصل وفد منهم في سنة 166م إلى عاصمة الصين ليشكو من احتكار الإيرانيين لتجارة الحرير ويعرض لإنشاء علاقات مباشرة عن طريق الهند¹ ومن جهة أخرى تفيدنا المصادر الهندية التاميلية (Tamil) عن وجود جاليات للروم في جنوب الهند وانخراطهم في خدمة الأمراء الهنود² كما أنّ ظهور التجار الهنود في أسواق الإسكندرية- الأمر الذي يشهد به Dio Chrysostom على عهد طراجن³ يعدّ دليلاً على نمو العلاقات التجارية المباشرة بين الروم والهند.

وهكذا استمرت هذه الحركة قوية طوال القرنين الثاني والثالث بينما أصبحت العرب غير ذات شأن إلى أن حدثت تطورات سياسية جديدة وساءت أحوال روما الاقتصادية وانخفضت قيمة عملتها التي كان يتعامل بها كلّ من العرب والهنود، فكانت النتيجة أن ركبت التجارة وتضاءلت إلى أدنى حدّ بدليل أنه لم يعثر في الهند على العملة الرومانية الراجعة إلى ما بعد 211م إلا القليل النادر.⁴

لقد رأينا أنّ كيف أنّ العرب غلبت على تجارة الهند ولكن القضاء لم يمهل الروم طويلاً ليجنوا من ثمرات نصرهم فسرى كيف أنّ الفرس حلوا محل العرب والروم جميعاً أثناء القرون التالية، نعم وقد اشتدّ أيضاً في الوقت نفسه مركز الأحباش حتى أصبحوا المنافس الوحيد للفرس في تجارة الهند.

¹ انظر Hirth: China & the Roman Oriën, 1885، ص 173-178

² Rawlinson، ص 121

³ المصدر نفسه، ص 140

⁴ المصدر نفسه، ص 151

انتقل زمام الحكم من البارتيين إلى الساسانيين في سنة 225م ومن أهم ما امتاز به الساسانيون اهتمامهم بتشجيع الملاحة عند الفرس- الناحية التي لم يلتفت إليها أسلافهم قط، يتجلى هذا الاهتمام فيما قام به أول ملوك الأسرة الجديدة، أردشير الأول (241-225م) من إنشاء المواني وما إليها، وفي مطلع القرن الرابع نسمع عن حملة العرب سكان الساحل الغربي على الفرس بالساحل الآخر عبر الخليج الفارسي ثم عن انتقام سابور الثاني من العرب بعد ذلك بزمان قليل مما يدل على تقدم الملاحة واجتياز العنصرين دوراً من المزج والصر في بوتقة واحدة، وفي هذه الأثناء زالت روما وخلفتها قسطنطينية سنة 330م كما أنّ حمير استكملت سيادتها على الجزء الجنوبي من جزيرة العرب حتى أصبح التبغ "ملك سبأ وحضر موت ويمينات ونهامة"، لكن حمير كانت الآن مهددة تماماً من قبل الحبشيين الذين كان يجري في عروقهم دم المهاجرين من اليمن نفسها وفعلاً بدأ ملوك كسوم (Axum) يتحرشون بسكان الساحل الشرقي للبحر الأحمر منذ أواخر القرن الثالث حتى نجحوا في النصف الأول من القرن الرابع في إخضاع حمير لسيادتهم، ومع أنّ سيادتهم لم تدم إلا برهة قصيرة استأنفت حمير بعدها استقلالها إلا أنّ الحبشيين بقوا عاملاً يعتد به في كل ما يتعلق بالتجارة والسياسة في البحر الأحمر.

لقد مررنا سريعاً بالقرن الثالث والرابع والخامس لقلة المصادر عنها غير أنّ الوقائع التي سردناها تعطينا فكرة عن التيارات الآخذة في النمو والاشتداد وما إن نصل إلى القرن السادس حتى نرى نتائجها واضحة مستكملة وهي نتلخص في استيلاء الحبشيين مرة أخرى على حمير سنة 525م، ومما يسترعي الانتباه أنّ ذانواس لم يكن يملك أسطولاً ولم يظهر أية مقاومة إلا بعد وصول المهاجمين إلى البر، ثم جاءت النهاية الكبرى للخراب الذي كان يتسرب إلى اليمن منذ قرون بشكل انشقاق سدّ مآرب ما بين 542-570¹، أما الفرس فكانت مكانتهم عالية ممتازة جداً، كانوا قد اكتسحوا الروم

¹ المهم أنّ انشقاق سد مارب كان نتيجة لا سبباً لخراب اليمن وتشتت سبأ. أنظر: Hitti، ص 65

من الموانئ الهندية وكانوا كما يشهد به (Procopious) و (Cosmos) يتسلمون الحرير الوارد عن طريق البحر من "الصين" (Sinae) الساحلية في سيلان بينما كانوا هم أنفسهم مسيطرين على الخطوط البرية الموصلة عبر وسط آسيا إلى (Seres) مصدر "السرق"¹ أي الصين الشمالية، خلاصة القول أنه لم يكن أحد ينفذ من الحصار المضروب من قبل الفرس على الموانئ الهندية إلا الحبشيون الذين كثيراً ما ترددوا ببضائعهم، ولا سيما العاج، على سيلان والساحل الغربي للهند حتى على موانئ الفرس أنفسهم وكانت (Adulis) (حالياً Massawa) ميناء الحبشة الرئيسي (وقاعدة الهجوم على اليمن)، في هذا الوقت مركزاً تجارياً هاماً لأن الروم كانوا قد اضطروا إلى قصر نشاطهم على الاتصال بها والحصول على طلباتهم منها ولم يكونوا يستطيعون التجاوز عن باب المندب إلا قليلاً، وهل أدلّ على تخرج موقف الروم وعجزهم من أنهم تَوَّما سمعوا عن استيلاء الحبشيين على اليمن بعثوا بعيد 531م بسفارة من قبل الإمبراطور (Justinian) إلى أكسوم يطلبون من الحبشيين أن يحاولوا شراء الحرير رأساً من الهنود وبيعه لهم (الروم) لكي تتوفر الأموال التي كان الروم مضطرين إلى دفعها لأعدائهم الفرس، وفعلاً حاول الحبشيون العمل بهذا الاقتراح إلا أنهم لم ينجحوا في ذلك لما كان يتمتع به الفرس من النفوذ وحسن إدارة الأمور في أسواق سيلان والهند، ولم يقتصر نفوذ الفرس عند هذا الحد بل تعداه إلى إنشاء مراكز لهم في سقطرة وفي (Adulis) نفسها وأخيراً نراهم يطردون الحبشيين من اليمن وينتزعونها لأنفسهم حوالي 570م.

هكذا تمت للفرس السيطرة على جميع المياه الواقعة بين سيلان من جهة وساحل شرق أفريقيا من جهة أخرى، وكان من الطبيعي أن يصبح الخليج الفارسي الطريق

¹ ظل العالم الغربي يجهل حقبة طويلة أنّ (Sinae) التي كان الوصول إليها عن طريق البحر و (Seres) التي كان الوصول إليها عن طريق البر إنما كانتا تمثلان جزئين لبلد واحد، كما أنّ سكانهما كانوا من شعب واحد، وتمثل كلمة "السرق" بالعربية (بالإنجليزية = Silk) الحرير الوارد عن طريق البر أي إيران (بالفارسية "سره" والأصل بالمنغولية (Sirkek) والصينية "Ssi") انظر: (Periplus)، ص 266

الرئيسي لتجارة الهند في عهدهم، كما كان البحر الأحمر أبان نبوغ الروم من قبل. ونجد هذه الأحوال منعكسة على الشعر الجاهلي العربي والروايات التي وصلتنا عن ذلك العهد: أفهل أدلّ على الاتصال الوثيق المستمر بين الهند والخليج الفارسي من أنّ الأبلّة كانت تعرف بـ"فرج الهند"¹ كذلك يرجع أنّ "عدولية" في قول طرفة:

عدولية أو من سفين ابن يامن² يحجور بها الملاح طوراً ويهتدي هي السفينة المنسوبة إلى (Adulis) مما يدلّ على الاتصال بينهما وبين الخليج الفارسي.³

بقي أن نتساءل: ماذا كان نصيب العرب من الملاحة والتجارة في هذا العهد؟ يبدو أنه لم يكن لهم صفة مستقلة، إنما كان أهالي عمان وما حولها قد اختلطوا اختلاطاً كبيراً بحيرانهم الفرس، وكان من الطبيعي أن يشاركوهم أعمالهم مما أكسبهم دراية وخبرة أو لا نرى إلى أزد عمان وهم يحتقرون لكونهم "مزونيين" وملاحين كما أنّ كبراءهم ربما نسبوا في معرض الهجو إلى أصل فارسي،⁴ أما الصور الرائعة لمناظر البحر وأهواله وسير السفن فيه التي يزخر بها ديوان العرب، فلا يصح أن نتخذ دليلاً على مزاوله العرب للملاحة أو اهتمامهم بها ولا سيما إذا كان هناك ما يؤكد استهجانهم لها، إنما كانت تلك الصور كليشيات نقلت إلى داخل الجزيرة من المناطق الساحلية.⁵

¹ تاريخ الطبري، ليدن، 12/2021، انظر أيضاً: 2023 حيث جاء: "كان فرج الهند أعظم خروج فارسي شأناً وأشدّها شوكة وكان صاحبه يحارب العرب في البر والهند في البحر".

² ورد ذكر ابن يامن في بيت لامرئ القيس أيضاً:

أو المكروعات من نخيل ابن يامن دوين الصفا اللائي بلين المشقرا

المشقر: قصر البحرين (البلدان لياقوت) يرجح الدكتور سليمان الندوي أنه كان تاجراً عربياً يهودياً هناك (عربون كي جهاز راني، ص 26).

³ انظر: (Hourani)، ص 42، أما اللغويون فنجد أقوالهم متناقضة مما ينم على نوع من التخبط: عن الأصمعي عدولي قرية بالبحرين، وقيل: موضع يسمى عدولاة، وعن ابن الكلبي: عدولي ليسوا من ربيعة ولا مضر ولا ممن يعرف من اليمن إنما هم أمة على حدة (كذا في اللسان: "عدل").

⁴ المهلب بن أبي صفرة مثلاً.

⁵ انظر: دائرة المعارف الإسلامية "السفينة".

على ضوء ما سردناه آنفاً من الأوضاع السائدة في القرن السادس نستطيع أن نفهم جيداً بعض الحوادث التي وقعت في أوائل العهد الإسلامي، فمثلاً حملة أهل عمان البحرية على فارس وحتى سواحل السند وكجرات بدون سابق إذن من الخليفة الثاني عمر إنما تدل على المعرفة القديمة والتحمس الجديد لإثبات استقلالهم عن الفرس الذين كانوا متفوقين عليهم من قبل، كذلك نرى كيف أنّ عمر الذي كان حذراً خائفاً من "حمل الدود على العود" اضطر إلى السماح بمهاجمة (Adulis) لإشعار الحبشيين بانتهاء سيطرتهم السابقة على المياه المجاورة ثم توسعت الفتوح الإسلامية حتى شملت مصر من جهة والسند من جهة أخرى فكانت النتيجة أن أصبح طريقا الخليج الفارسي والبحر الأحمر تحت سلطة واحدة وتلك غاية طالما تآقت الحكومات المختلفة إلى تحقيقها، فلم توفق إلى إزالة الحدود بين العراق وسوريا كما قد رأينا من قبل وتبع هذا التطور الجديد أن ارتفع التنافس والتسابق بين المنطقتين ورجع نشاط كل منهما إلى ما كانت تقتضيه طبيعة العمران والاستهلاك المحلي، وبما أنّ خط الخليج الفارسي كان أكثر استقامة وأقرب مسافة وأوثق اتصالاً وأنّ التجار لم يلجأوا إلى البحر الأحمر إلا للضرورة، لذلك استمر هو الأول الطريق المفضل لتجارة الهند كما كان منذ عهد الساسانيين ومما زاد في نشاط هذه الناحية زيادة ملموسة انتقال عاصمة الخلافة ومركز الحضارة إلى بغداد ولعل قول مستشار المنصور الذي يبسط فيه مزايا الموقع الجغرافي لتلك المدينة يقوم أوضح دليل على أهمية العلاقات التجارية التي نحن بصدددها، قال دهقان بغداد للمنصور: "... تحمل إليك طرائف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة..."¹.

يصدق هذا القول ما أورده الرحّالون والجغرافيون أمثال سليمان التاجر (237هـ) وابن خرداذبه (232هـ) والمسعودي (232هـ) والمقدسي (375هـ) بشأن ازدهار

¹ البلدان لياقوت (ط أوربا) 681/1.

التجارة والعمران في الأبلّة وسيراف والبصرة، لقد كانت المراكب تقلع من هذه الموانئ إلى مسقط ومن هناك رأساً إلى كولم ملي (Quilon) بجنوب الهند حيث كانت تفترق الطرق، فأما إلى ساحل الدكن (جنوب الهند) الشرقي، وأما إلى سرنديب (جزيرة سيلان) وكله (Kedah بملايو) على الطريق إلى الصين، هذا فضلاً عن حركة التجارة المتصلة بالموانئ القائمة على الساحل الغربي للهند فوق كولم ومن أشهرها الديبل على مصب نهر السند وكنبايت وبروص (Broach الحالية) بكجرات وتانه وصيمور (Chimur) وسوباره (Churparaka=Sopara) بإقليم يومبائي ولتقدر مدى توثيق العلاقات بين المصدرين الهنود وزبائنهم بقول سليمان من ملوك الككم (Konkon) أنهم "يعمرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة وتزعم أهل مملكة بلهرا (Raetrakutas=Vallabhrai).

إنما تطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبتهم للعرب وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه وكذلك أهل مملكته¹ لم لا والرخاء الاقتصادي في البلاد كان يتوقف على تصريف المنتجات في أسواق العرب.

ومما يلاحظ في هذا الصدد أنّ انتشار الإسلام إلى الجانب الشرقي للخليج الفارسي ساعد كثيراً على تكوين شعب واحد من الفرس والعرب سكان السواحل في تلك المنطقة وقد كانوا اختلطوا وامتزجوا إلى حد كبير في العصر السابق، ولذلك نراهم في العصر الإسلامي يشتركون في أعمال الملاحة والتجارة اشتراكهم في استعمال اللغة العربية كتابة وخطابة مما يجعل من العسير التمييز بين العنصرين، إلا أنّ نظرة واحدة على أسماء النواخذة الوارد ذكرهم في كتاب عجائب الهند لبزرگ بن شهریار² تكفي للتدليل على وجود العنصر الفارسي بل وعلى غلبته أيضاً.

¹ سلسلة التواريخ، ص 27

² Leide.1883-86.

أما مقدار التجارة عن طريق البحر الأحمر فكان وفقاً لحاجة مصر لا غير والسبب نفسه يرجح أنه زاد كلما ارتفع شأن مصر على إثر انحلال الدولة العباسية لا شك أن عمر كان قد جدّد فتح القناة القديمة بين النيل والقلمز إلا أنه لم يكن يستهدف من ورائه غير نقل الميرة إلى الجار ميناء المدينة.

وأخيراً يجب التنبيه على أن ظهور الإسلام وإن أدى إلى قيام دولة واحدة تشرف على طريقي الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلا أنه في الوقت نفسه سبب القطيعة بين الدولة الجديدة وبيزنطة، تلك القطيعة التي استمرت طوال القرون المتعاقبة بحيث لم تكن تسمح لتجار إحدى الدولتين بالاطمئنان إلى إنشاء صلات مستديمة مع الدولة الأخرى فكانت النتيجة أن انحصرت مهمة نقل البضائع بين دار الإسلام وبلاد المسيحية في أيدي اليهود الذين يتحدث عنهم ابن خرداذبه بقوله:

"يتكلمون بالعربية والفارسية والرومانية والأفريقية والأندلسية والصقلية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً، يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباغ وجلود الخنزير والفراء والسمور والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما (Pelusium) ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلمز... ثم يركبون البحر الشرقي من القلمز إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلمز ثم يحملونه إلى الفرما، ثم يركبون في البحر الغربي فرما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك، وإن شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل إلى الجلبية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد، ثم يركبون في دجلة إلى الأبله ومن الأبله إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل ببعضه ببعض".¹

¹ المسالك والممالك، ص 153-154

ثم يحدثنا ابن خرداذبه عن التجار الروس الذين كانوا يقومون بالعمل نفسه:

"هم جنس من الصقالبة فإنهم يحملون جلود الخنز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلية إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم وإن صاروا في تنيس نهر الصقالبة مروا بخليج مدينة الخزر فيعشرهم صاحبها ثم يصيرون إلى بحر جرجان... وربما حملوا تجارتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد ويترجم عنهم الخدم الصقالبة ويدعون أنهم نصارى فيؤدون الجزية، فأما مسلكهم في البر فإن الخارج منهم يخرج من الأندلس أو من فرنجة فيعبر إلى السوس الأقصى فيصير إلى طنجة ثم إلى أفريقيا ثم إلى مصر ثم إلى الرملة ثم إلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز ثم إلى فارس ثم إلى كرمان ثم إلى السند ثم إلى الهند ثم إلى الصين.¹

أما البضائع والمنتجات التي عرفت الهند بها بين العرب فقد أشار إليها بالإجمال أيوب بن القرية (من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث) حينما سأله الحاج عن الهند فأجاب بقوله: "بحرها درّ وجبلها ياقوت وشجرها عطر"² وقد عرض لها بالتفصيل أبو زيد السيرا في حيث قال:

"بحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجواهر ومعادن الذهب، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبوا والقرنفل والصندل وسائر الأفواه الطيبة الذكية وطيوره الففافي (يعني البيغاوت والطواويس) وخرشات أرضه الزباد وظباء المسك وما يحصيه أحد لكثرة خيره".³

هذا وقد جمع أحد من الشعراء الموالي اسمه أبو الضلع كذا في معجم المرزباني 513 وفي الفهرست 174، أبو الضلع) المسندي كل ما امتازت الهند به من وفرة الإنتاج

¹ المصدر نفسه، ص 153-155

² الأخبار الطوال للدينوري، ص 326

³ سلسلة التواريخ، ص 137-138

واشتهرت به من جودة الصناعات في أبيات رائعة في معرض المدح والافتخار، قال:

لقد أنكر أصحابي، وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهند وسهم الهند في المقتل
لعمري أنها أرض إذا القطر بها ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطل
فنها المسك والكافور والعنبر والمندل
وأصناف من الطيب ليستعمل من يتفل
وأنواع الأفالويه وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنها العود والصندل
وأنّ التوتيا فيها كمثل الجبل الأطول
ومنها البير والنمر ومنها الفيل والدغفل
ومنها الكرك والبيغاء والطاؤوس والجوزل
ومنها شجر الرانج والساسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
وأرماح إذا ما هزت اهتز بها المحفل
فهل ينكر هذا الفضل
لإلا الرجل الأخطل؟¹

¹ الآثار للقزويني، ص 85 وانظر: الحيوان، 7/50

الألفاظ الهندية المعربة

إنّ العلاقات التجارية بين الهند والعرب راسخة في القدم تتمثل في الأسماء الهندية المعربة أكثر منها في إشارات أو روايات في بطون المجاميع الأدبية والتاريخية أو المؤلفات الجغرافية، وقد استحضرت في ذهني عدداً من المفردات المتعلقة بالتجارة وما إليها أتوسمها لعلها قد بقي فيها بعد طول اغترابها ما يمكننا من ردّها إلى أصلها الهندي العتيق، وأقدم فيما يلي بعض النتائج التي وصلت إليها بشأن أصل طائفة من الألفاظ المعربة، والتي ربما اعتبر بعضها عربياً محضاً.

ويهمّني أن أنوّه في هذا المقام بظاهرة ربما يكفل إبرازها القضاء سلفاً على أيّ استغراب يلحق القارئ فيما بعد، وهي أنّ العرب الأوّل الذين نراهم عبر التاريخ يغامرون بحياتهم في لجج البحر الهندي إنما دأبوا على ذلك ليجلبوا من الهند وما وراء الهند لا البضائع فحسب بل أسماءها المحلية أيضاً كما سمعوها من أفواه الذين اختلطوا بهم وعاملوهم، وسيبدو ذلك طبيعياً إذا نحن قدرنا أنّ معظم تلك البضائع هي التي لم يعرفها العرب في أوطانهم وغير أوطانهم من قبل، بل إنما عرفوها لأول مرة في الهند ثم عرفها العالم الغربي عن طريق العرب فيما بعد، وعلى هذا فالتأكد من كون الهند الموطن الأوّل لبضاعة من البضائع إذا اقترن بثبوت استيراد العرب لتلك البضاعة منها "الهند" ينهض دليلاً قوياً، بل قاطعاً، في كثير من الأحوال، على أنّ الاسم هندي الأصل كالْبضاعة ذاتها، فن الأمثلة المتفق عليها من هذا القبيل الموز والكافور والقرنفل والصندل والساج والمسك والليمون والنارجيل وأسماء عدد من العقاقير كالأطريفل وجميع أصناف التوابل تقريباً كالفلقل، وسنسري أننا لو سرنا على هذه القاعدة لكان في وسعنا أن نلقي بعض الضوء على أصول عدد من الكلمات التي لا يزال يكتنفها شيء من الغموض.

ولا يخفى أنّ لبحتنا هذا جانباً آخر على درجة كبيرة من الأهمية وهو أنّ معظم

تلك الكلمات التي يقال عنها أنها عربية دخيلة في اللغات الأوروبية، ولا سيما الأسبانية والفرنسية والإنجليزية، هي في الأصل معربة عن الهندية واللغات المحلية لمناطق أخرى شرقي الهند، وذلك لأنّ تلك الكلمات إنما شقت طريقها إلى أوروبا عن طريق التجارة على أيدي العرب، ولكن العرب لم يكونوا منتجين في أيّ من حقلي الزراعة والصناعة لا لشيء إلا لأنّ الطبيعة حرمتهم من الثروة النباتية والمعدنية، إذن فكأنّ الأقدار حشمت عليهم أن يقوموا بدور الوسيط في جلب البضائع الهندية والصينية وتوصيلها إلى أوروبا إلى أن قدّر لأوروبا الاتصال مباشرة بالشرق الأقصى في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وهو لعمرى دور لعبه العرب لا بجرأة وكفاءة فحسب بل بأمانة تركت أطيب الأثر وأعظمه في نفوس السكان غير المسلمين لمختلف مناطق الهند الساحلية، فهذه الظروف تقرر علينا، كلما وجدنا في اللغات الأوروبية كلمة تتعلق بالملاحة،¹ أو التجارة على أيدي العرب في المحيط الهندي، أن نواصل البحث عن أصلها الهندي بعد أن نهتدي إلى شكلها المعرب في العربية، ولعل في مقارنة الطرفين الأوربي والهندي ما يكشف لنا بعض ما غمض على المتأخرين من العرب أنفسهم في بعض الأحيان.

فمثلاً كلمة (Almanac) لم يشك أحد في أنها انتقلت إلى أوروبا عن العرب لكن حار الباحثون في الاهتداء إلى أصلها فقالوا: إنه "المناخ" (محيط المحيط - ن وخ) أو أنّ العرب الأندلسيين استعاروا كلمة bAbIXIA3WYb² من المصريين وبدأوا

¹ لقد صرح المسعودي، فيما يتعلق بالملاحة، أنّ العرب حرصوا على الأخذ بالألفاظ المحلية في مختلف المناطق التي تردوا عليها، انظر إلى قوله: "إنما نعبّر بلغة أهل كل بحر وما يستعملونه في خطابهم فيما يتعارفونه بينهم" المروج، 1/332 أيضاً: 343 "إنما نخبر عن عبارة كل بحر وما يستعملونه في خطابهم". ويلاحظ أيضاً في هذا الصدد أنّ العرب لم يأخذوا الكلمات الهندية من اللغة السنسكريتية الفصيحة، ولا هم اعتنوا بأشكالها الصحيحة في الكتابة، بل إنما أخذوها من أفواه التجار وسكان المناطق الساحلية التي كانوا يترددون عليها، ولا يخفى أنّ تلك المناطق كانت ولا تزال تسودها لهجات متعددة بل لغات مستقلة.

² Hob.- Job. "Almanack".

ينطقونها "المناخ" ... (2) الحقيقة أنّ أصلها "رهمانج" عند ابن ماجد¹ وهو تحريف البحارين لكلمة "الراهنانج" التي جاء عنها في التاج 2/51: "فارسية استعملها العرب وأصلها "راه نامه" ومعناه (كتاب الطريق) ... وهو الكتاب الذي يسلك به الربابنة) ... في سفر البحر ويهتدون به في معرفة المراسي وغيرها) كالشعب ونحو ذلك".

صناعة السيوف وما إليها: الآنك: لقد أصاب أدى شير القول بأنها قريبة من "Ranga" بالسنسكريتية (الفارسية: آهك)، والرصاص الأبيض معروف إلى الآن في الهند بذلك الاسم، وهو جزء من كلمة "الأسرنج" - لعل أصلها أن يكون "h`sang"² (لا "سرخ+آنك" كما أورده أدى شير).

أما معدن الرصاص فيقول عنه مسعر بن مهلهل (القرن الرابع الهجري): "وأنها كله أول بلاد الهند مما يلي الصين، وأنها منتهى مسير المراكب، ولا يتهيأ لها أن تجاوزها وإلا غرقت، وبها قلعة يضرب بها السيوف القلعية، وهي الهندية العتيقة لا تكون في سائر الدنيا إلا في هذه القلعة.. وليس في جميع الدنيا معدن الرصاص القلعي إلا في هذه القلعة"³.

فالنسبة في السيوف القلعية "والرصاص القلعي" (الفرنسية: Alkalap) إلى هذه

¹ Ferrand: Instructions Natives, Tome 1، ص 60 "رهمانج" - 88، رهمانجات - 76 "رهمانجا". واللبس مثل الذي نشاهده في أول هذه الكلمة كثير شائع فيما يتعلق بالكلمات الأعجمية التي في أولها حروف تقارب الألف واللام، فكلمة "انجر" (Anchor) مثلاً أصلها بالفارسية، لنكر، (القاموس - نجر)، أضاف العرب عليها الألف واللام، ال لنكر، ثم التبس عليهم الأمر فظنوا أنّ اللام ليست من الحروف الأصلية لنكر، وقالوا: "انجر" وكذلك الرصاص من "أرزيز" (انظر أدبي شير)، والماس من "Adamas" (Periplus)، ص 224 وانظر بزرگ، ص 128 "الأدماس" بتمامه كلمة غير عربية والألف واللام من بنية الكلمة، كذا في شفاء الغليل واللسان (مأس) عن ابن الأثير - وسيأتي الآنك من "Ranga". يلاحظ أيضاً أنهم كثيراً ما يحدفون الكاف والميم من الأول في التعريب، انظر: مثلاً الرند = كرنده، و"أنباتي" نسبة إلى كنبات و"أنجاني" نسبة إلى "منيج" وأترج / ترنج تعريب "ما تلنغا" - وكذلك الواو يسقط من الأول مثل "النج" من "Valgu" وأرز من "Virizi".

² Watt، ص 707

³ القزويني، ص 69 وياقوت "القلعة" و"الصين".

القلعة بـكله¹ وقد شهد الإدريسي أيضاً بأنها المعدن الوحيد للرصاص الأبيض بالنسبة إلى العالم أجمع في زمانه، فإنه يقول:

"وبهذه الجزيرة كله معدن الرصاص القلعي، وهو بها كثير صافي الجوهر، والتجار يفسونه بعد خروجه عنها، ومنها يتجر (يجهز) به إلى جميع الأرض"².

ثم يظهر أنّ مثل هذا المعدن نجم في الأندلس أيضاً فيما بعد، فبدأ التجار يتجولون عن الهند إليها، حتى إذا مضى زمن خلط الناس بين المعدنين كما في قول ياقوت:

"القلعة فيما زعم مسعر بن المهلهل بلد في أول بلاد الهند من جهة الصين، وإليه ينسب الرصاص القلعي والسيوف القلعية، وإقليم القلعة من كورة قلبرة بالأندلس، وأنا أظن الرصاص القلعي منسوباً إليها أو إلى قلعة بالأندلس فإنه من هناك يجلب"³.

إنّ شهادة مسعر بن المهلهل والإدريسي ليست موضع الشك، وكل ما أفادنا ياقوت هو أنّ الرصاص الأبيض كان في أيامه يجلب من الأندلس بعد أن كان يجلب من القلعة بـكله من ذي قبل، ولعل في الأخذ باسم "القصدير" الذي يرادف الآنك إلا أنه معرب عن اليونانية- أيضاً دلالة على التحول المشار إليه من الشرق إلى الغرب.

ثم أنه يرجح عندي أنّ المراد ليس "القلعة بـكله" بل كلمة "قلعة" هي تعريب "كله" لا غير، والمعهد المسمّى "كله" باللغة المحلية إنما كان واقعاً على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملايو، وقد ذهب الباحثون إلى أنّ "كله" توازي "Kedah" أو "Kra" الحالية.⁴

ويلاحظ أنّ أهم ما اشتهرت به سيوف الهند جودة الصقل، وهو عمل لا يتأتى إلا بالآنك الذي استأثرت القلعة بإنتاجه، أما الحديد اللازم لصناعتها فقد أورد

¹ المغرب للجوالقي، تحقيق أحمد محمد شاكر، ص 276

² دار الكتب المصرية، جغرافيا رقم 150، ص 130

³ المشترك والمفترق، ص 357

⁴ انظر دائرة المعارف الإسلامية "Kalan" و "Kal'i"

الإدريسي بشأنه ما يلي:

"إن بلاد سفالة (سفالة الزنج أي شرق أفريقيا) يوجد في جبالها معادن الحديد الجيد الكثيرة، وأهل الراج (الزنج؟) وغيرهم من ساكني الجزائر المطيفة لهم يدخلون إليهم ويخرجونه من عندهم إلى سائر بلاد السند وجزائره فيبيعونه بالثمن الجيد، لأن بلاد السند أكثر تصرفهم وتجاراتهم بالحديد، ومع ذلك وإن كان الحديد موجوداً في بلاد الهند ومعادنه بها ففي بلاد سفالة هو أكثر وأطيب وأرطب، لكن الهندين يحسنون صنعته وتركيب أخلاط الأدوية التي يسبكون بها الحديد اللين فيعود هندياً منسوباً إلى الهند، وبها ديار الضرب للسيوف وصناعاتهم يجيدونها فضلاً عن غيرهم من الأمم، وكذلك الحديد السبتي (كذا وفي نسخة أخرى: السندي) والسرندي والبينماني كلها تتفاضل بحسب هواء المكان وجودة الصنعة وإحكام السبك والضرب وحسن الصقل والجلاء، ولا يوجد شيء من الحديد أمضى من الحديد الهندي، وهذا شيء مشهور لا يقدر أحد على إنكار فضيلته".¹

هذا وقد كانت اليلمان (البينمان) مركزاً آخر هاماً لصناعة السيوف تنسب إليه السيوف اليلمانية، وكانت تقع على ملتقى حدود السند والهند كما يتضح مما ورد في شأنها في فتوح البلدان للبلاذري ص 440 و442، أما القول بأنه "ينبه أن يكون البينمان من أرض اليمن" (انظر: البلدان لياقوت والقاموس "ب ل م") فلا يقوم على سند.

الرماح: تلك هي قصة السيوف التي لم تزل تحمل نسبتها إلى الهند كشعار لجودة الصنعة وحسن الصقل، ولنتقل الآن إلى الحديث عن الرماح التي طويت نسبتها إلى الهند على مرّ الزمان، إلا أنه يمكن إذا أمعنا النظر أن نستشفها من وراء كلمات لا تزال تحمل سمات الغرابة والغربة مع أنها كثيراً ما عدّت عربية لا لشيء إلا لعدم الاهتداء إلى أصلها.

¹ ص 108-109، قارن ابن الوردي، القاهرة، 1328، ص 51

يتكون الرمح من جزئين: الأول هو النصل أو السنان، والثاني هو القناة، وغني عن البيان أنّ صناعة السنان متجانسة مع صناعة السيوف بل هما صناعة واحدة، وعلى هذا يصبح من الطبيعي أن يغلب الظن بأنّ العرب ربما استعملوا الأسنة المصنوعة في الهند إلا أنه لا يعدمنا من الدليل الإيجابي ما يرتفع بهذا الظن إلى درجة اليقين، فإننا نراهم يستعينون ببعض الكلمات الهندية للتعبيرات الدقيقة المتعلقة بهذه الصناعة، انظر إلى كلمة "الخرص" تبدو كأنها دخيلة على مادة "خ ر ص" العربية، فالخرص تعني الجزء الأعلى الذي فيه الحد من السنان، وهي بهذا المعنى توازي كلمة "Kirch" بمليالم (Malayalam) إحدى اللغات الدكنية- والأردوية أيضاً، ولعل أصلها في لغة جاوة وملايو "Kris, Kirs Kres"¹ - وربما أطلقت الكلمة على القضيبي والرمح نفسه كما قال حميد وابن ثور: "عض الثقاف الخرص الخطي"²، ولا يخفى أنّ هذه النسبة إلى الخط هي أقوى ما يؤيد الأصل الهندي للرمح المنسوبة إليها لأنّ الخط لم تكن إلا مرفأً للسفن الواردة من الهند كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد.

أما الجزء الثاني، وهو بلا شك أهم الجزئين فقد كان العرب شديدي الاهتمام بالقنا والاتقاء لها حتى أنّ الشعر العربي يزخر بأوصافها ونوعتها إلا أنّ كثرة استعمال العرب للأسماء المختلفة للقناة وما ينبعها وجريها على ألسنتهم مجرى الكلمات العربية في الاشتقاق وما إلى ذلك جعلاً أصل تلك الأسماء نسباً منسياً، هذا مع أنه قد ثبت بصورة قاطعة لا يتطرق إليها أيّ شك أنّ منبت القنا الذي كان العرب يعتمدون عليها لسدّ حاجتهم- وما أكثر تلك الحاجة- لم يكن غير الهند كما سنبين ذلك آنفاً بعد أن نسوق بعض المقدمات وتعرض لبعض الملابس التي لا بد منها نظراً إلى غموض الموضوع.

أولاً: القنا= قصب السكر، لا يخفى أنّ إطلاق القنا على هذا المعنى إنما هو على سبيل التبعية والحجاز، وإن كان ذلك مطابقاً للمألوف في اللغة السنسكريتية وبعض اللغات

¹ Hob. Job.- "Crease, Cris".

² اللسان، 287/8

الهندية الأخرى، وعلى كل حال فالمرجع عند العلماء هو أنّ موطن قصب السكر الأصلي لا يتجاوز ما بين بنغالة والهند الصينية، والدليل على ذلك أنّ جميع منتجات قصب السكر اشتهرت في العالم بأسمائها الهندية وهاكها فيما يلي:

1. Candy = الفارسية والعربية "قند" = سنس "Khanda" ومليالم "Kandi".¹
2. العربية "فافيد" = الفارسية "بانيد" = سنس "Phanita" - قارن "Penidium"، Med. Lat، وقد ذكر ابن حوقل والبشاري الفانيد من أهم الصادرات من مدن السند: فنجبور ومولتان وطوران.
3. Sugar = العربية "سكر" = الفارسية "شكر" = البراكرية "Sakkara" / سنس "Sarkara".
ومن الطريق في هذا الصدد أنّ الهنود، وإن كانوا أول من قام بإنتاج السكر، سرعان ما بدأوا يستوردونه من الصين ومن مصر، وذلك أنّ الصينيين والعرب، الذين نقلوا زراعة قصب السكر من الهند إلى الصين وإلى مصر، ثم إلى صقلية والأندلس، لم يلبثوا أن سبقوا الهنود في ابتكار وسائل جديدة للتكرير، ففاق الصينيون في صنع سكر ناصع البياض بشكل قطع صغيرة كما أنّ المصريين اختصوا بصنعه بشكل قطع كبيرة، ولم تزل "الهند تستورد ذينك الصنفين من السكر من الصين ومن مصر إلى مطلع القرن الماضي حتى أنهما يعرفان إلى الآن في أسواق الهند باسم "صيني" و"مصري" على الترتيب.²

¹ Hob. - Job. - "Candy".

² Sugar"Hobson-Jobson" ومما يشهد ببراعة المصريين في هذا المضمار القطعة التالية منقولة عن ماركو بولو: (Ramusio II, 44)

"And before this city" (a place near Fu-chau) "came under the garet Can these people knew not how to make fine sugar: they only used to boil and skim the juice, which when cold, left a black paste. But after they came under the Great Can some men of Babylonia" (i. e., of Cairo) "who happened to be at the court proceeded to this city and taught the people to refine the sugar with the ashes of certain trees" - 1298 A. D.

ومجلة "اللسان العربي" تلاحظ ما يلي:

كان السكر يصنع في شقي العروبة بأفريقيا: المغرب ومصر وقد حدثنا المقرئ أن كان بسمهود سبعة عشر حجراً لعصر القصب كما كان بعلوى عدة أحجار (الخطوط، 203/1) وكذلك في قابس وجولوا (البكري في المسالك، جزء أفريقية والمغرب، ص 17 و32)

ثانياً: القنا بمعنى الرمح، يلاحظ في هذا الصدد أنّ هناك شيئاً يشبه السكر كثيراً ما يتكون داخل القنا (Bamboo Sugar) يسمّى عند العرب والفرس "الطباشير" وكان استعماله كدواء شائعاً جداً في العصور الوسطى، ومن المتفق عليه أنّ كلمة الطباشير إنما هي منقولة عن سنس "Trakkshira" أي أنها هندية الأصل.¹

ثم أن الخيزران يصفه العرب أنفسهم بأنه شجر هندي وهو عروق القناة (انظر: الصحاح والتاج "خزر") أفلا يكون القنا إذن شجراً هندياً؟ والخيزران الهندي² هو الذي يتّصل به

وقد أكد ماس لاطري Latrie أنّ المغرب كان يصدر السكر في القرن الثالث عشر الميلادي إلى الفلاند والبندقية (علائق وتجارة أفريقيا الشمالية، ص 376) وقد نبّه الحسن بن محمد الوزان المعروف - Leon l'Africain على وجود السكر بسوس قبل السعديين ولكن الشرفاء السعديين هم الذين جلبوا أساليب تصفية هذا السكر وتبييضه في معاصر ساهم الأسرى المسيحيون في تأسيسها بأكاير وخاصة، سكساوة وشيشاوة (مستندات دو كاستر، 303/1)

ويوجد نص رسالة موجهة من مولاي محمد بن عبد الغالب - المصلوخ - عن إذن والده إلى ملك فرنسا مؤرخة من قصر الدار البيضاء (فاس الجديد) في رجب 968هـ (مارس 1561م) حول استعداد المغرب للسماح للملك شارل التاسع باحتكار سكر المغرب بشرط دفع ثمنه بالسعر المغربي مع زيادة نسبة في المئة وكذلك إصدار النحاس المغربي لفرنسا طبقاً لرغبة ملكها بشرط دفع ثمنه سلاحاً وعتاداً (السلسلة الأولى - السعديون، 746/3)

ولما عجز الأوروبيون المجلوبون لعصر قصب السكر في معمل أكاد بمراكش وتصفيته وإخراجه من القوة إلى الفعل عن إتمام عملياتهم جلب محمد بن عبد الرحمن الصانع المهرة من مصر القاهرة، الانحاف لابن زيدان، (556/3)

وأسس مولاي الحسن عام 1878م مصنعاً للسكر بمراكش وكلفه ذاك نفقات باهظة، ولكن هذا المصنع أحيل بعد سنوات إلى مديونة للجلود (كامبو ص 59)

وقد كان البلاطان الفرنسي والإنجليزي يتناقسان في القرون الأخيرة على اقتناء السكر المغربي المكرر لصفاته وجودته. (المعجم التاريخي للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله، ص 38)

¹ Hob.- Job. - "Tabasheer".

² لقد عرف العرب أنّ بلاد الروم كانت تمتاز بمنابت الخيزران كما يقول النابغة الجعدي: "بلادهم بلاد الخيزران" (انظر اللسان خزر) إلا أنه من المحقق أنهم كانوا يجلبونه من الهند ويتخلونه بالهندي منه في شدة اللين. كذا في محيط المحيط - خزر، وقد أورد القزويني في الآثار (ص 38) عن كلة: "بها منابت الخيزران منها يحمل إلى سائر البلاد".

وقد كان أهل Magan أي عمان يستوردون الأخشاب من نفس هذه المنطقة وذلك أربعة آلاف سنة قبل المسيح، انظر: Wilson: The Persian Gulf. P. 27

في شدة اللين ومنه قولهم: الخيزري والخوزري والخيزلي = مشية فيها تفكك.

وربما اقترن اسم القنا بالقسط ما عدا الخيزران عند الربانة والجغرافيين العرب كما سنرى، ومن المسلم به أنّ القسط أو الكسط هندي بحت (سنس "Kustha") وإنما نسبوه في بعض الأحيان إلى ظفار باليمن لأنه كان يجلب إليه من الهند (القاموس "ظفر").

ولنبحث الآن عن المواضع التي كان العرب يترددون عليها لجلب القنا منها، نجد أنها لا تتجاوز ساحل السند والساحل الغربي والجنوبي لمنطقة الدكن بالهند:¹ فهذا قول ابن خرداذبه (ص 62): "ومن السند يجيء القسط والقنا والخيزران" ويقول أيضاً: "ومن مهران إلى أوتكين وهي أول أرض الهند مسيرة أربعة أيام، وفي هذه الأرض يثبت القنا في جبالها والزراع في أوديتها وأهلها عتاة مرده لصوص" - كذلك يقول ابن الفقيه (ص 251): "خصّ الله بلاد السند والهند ب... القنى والخيزران...". وهذه شهادة مسعر بن مهلهل يقول: "وخرجت إلى سواحل البحر الهندي متياسرا فسرت إلى بلد يعرف بمدورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير وذلك أنّ القنا إذا جف وهبّت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت في الحرارة الحركة فانقدحت منه نار فربما أحرقت منه مسافة خمسين فرسخاً أو أكثر من ذلك، فالطباشير الذي يحمل إلى سائر الدنيا من ذلك القنا. فأما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مئة مثقال أو أكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا إذا هزت وهو عزيز جداً...". ثم يقول عن مدينة كولم أيضاً: "والخيزران والقنا بها كثير جداً" (انظر: ياقوت "الصين"). كذلك يقول الإدريسي: "ومدينة تانه بالقرب من بومبائي (جليلة... وبجبالها وأرضها ينبت القنا والطباشير يتخذ فيها من أصول القنا ومنها يحمل

¹ ذكر Pliny اسم موضع Chateni يقع على سواحل الخليج هو الخط ولا شك. (الدكتور جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام، 309/2).

إلى سائر البلاد من المشارق والمغارب" (ص 297).

وبعد أن تفقدنا منابت القنا وجب علينا أن نفتني آثار نواخذة العرب لنرى أين تفرغ سفنهم حمولتها وهاك ما يقوله ابن سيده (المخصص، 6/34) عن "الرماح الخطية" أشهر الرماح عند العرب: انخط مرفأ السفن بالبحرين¹ ينسب إليها الرماح وليست انخط بمنبت لها ولكنها مرفأ السفن التي تحمل القنا من الهند كما قالوا مسك دارين. وليس هناك مسك ولكنها مرفأ السفن التي تحمل المسك من الهند).

نرى كيف أنّ القناة المجلوبة من منابتها بالهند والتي ركب عليها خرص أو سنان مصنوع في مصانع السيوف حول معادن الرصاص القلعي بالهند، كيف أنّ هذه القناة هي التي تصبح "رمحاً خطياً" بمجرد دخولها حدود جزيرة العرب؟

السمهري: والحديث عن "الخطي" يذكرنا على الفور بـ"السمهري" و"الرديني"، لو رجع أحد إلى اللغويين وأصحاب المعاجم لوجدتهم يقولون إنّ السمهري نسبة إلى سمهر والرديني نسبة إلى ردينة وهما زوجان كانا يقومان ببيع الرماح بالخط، ولكن المتتبع للشعر العربي والمتأمل في أقوال اللغويين وأصحاب المعاجم أنفسهم لا يلبث أن يتبين أنّ السمهري يغاير الرديني تماماً من حيث الصفات المنسوبة إلى كل منهما، فالسمهري يمتاز بصفتين هما: 1- الاعتدال، 2- الصلابة، أما الرديني فيتميز بضد الصلابة وهي اللدونة لأنه هو الذي يهتز دون السمهري، وعلى هذا فيا له من تحديد الاختصاص بحيث يمارس الزوج والزوجة بيع رماح من نوعين مختلفين- ولعل المفروض أنهما يتخذان محليهما جنباً إلى جنب في سوق الخط- بدون أن يطغى الواحد منهما على الآخر، ويا لها من مراعاة المناسبات والصلاحيات بحيث يكون بيع الرماح الصلبة من حصة الزوج وبيع الرماح اللدنة من نصيب الزوجة، ومما يزيد أقوالهم ارتباطاً كما يزيدنا ارتباطاً أنّ أحداً منهم على

¹ Daden/Dirin = البحرين أو جزيرة العرب بالقرب منها - (Heeran II, 230).

الأقل وهو- الزبير بن بكار- ذهب إلى أنّ سمهر كانت قرية بالحبشة. (انظر: التاج حيث جاء أنّ الصاغاني أنكر هذا القول) كما أنّ بعضهم قال إنّ سمهر اسم امرأة كانت تقوم الرماح!!!

إنّ المهم في هذا كله هو أنّ الزوجين، على حدّ تعبير اللغويين، كانا يبيعان الرماح بالخط. والخط، كما رأينا آنفاً، لم تكن إلا مرفأً للسفن الواردة من الهند، إذن فنّ المؤكد أنّ السمهريات والردينيات كانت رماحاً هندية، هذا بغض النظر عن مَنْ قام بأعمال بيعها أو توزيعها في الخط، أفيسستغرب بعد هذا أن يكون التجار العرب قد أخذوا أسمى الصنفين من الرماح- الصلب واللدن- من أفواه التجار الهنود؟ أنّ مثل هذا القياس يوافق مقتضى طبيعة المعاملات التجارية كما أنه يصادف حرص العرب على تسمية الأشياء والبضائع التجارية بأسمائها المحلية، فربما يكون سمهر اسماً هندياً جلبه العرب مع مسماه (أي الرماح الممتازة بالاعتدال والصلابة) إلى الخط وطبعاً خفي أمره على الناس لكونه غير عربي، فلذلك لم يفقهوا غير أنه انتشر بين العرب عن طريق ذلك المرفأ بالبحرين.¹

ولعل القارئ الأريب يتبين في قول ياقوت الآتي تأييداً للجميع ما قدّمنا آنفاً، يقول ياقوت: "سمهر قرأت بخط أبي الفضل بن العباس بن علي الصولي المعروف بابن برد الخيار ... قال حدثني سليمان المدائني قال حدثني الزبير بن بكار قال الرماح السمهرية نسبت إلى قرية يقال لها سمهر بالحبشة ... قلت: انا وحدثني بعض مَنْ يوثق به أنّ هذه القرية في جزر من النيل (الآثار للقزويني، ص 30 "جوف النيل") يأتي من أرض الهند على رأس الماء كثير من القنا فيجمعه أهل هذه القرية ويستوقدون زواله ويبيعون جيده وهو معروف بأرض الحبشة مشهور- وقول مَنْ قال: إنّ سمهر

¹ لم استطع الجزم بالأصل الهندي إلا أنه لفت نظري الكلمتان التاليتان المعبرتان من الاعتدال والصلابة.
SAMA, oven, level, straight – Williams: Sanskrit-English Dictionary, p. 1066. and KHARA, hard, harsh, rough ... dense – Ibid., p. 74

اسم امرأة كانت تقوم بعمل الرماح فإنه كلف من القول وتخمين".¹

الرديني: لكن انتفاء شخصية سمهر يستلزم أيضا عدم بقاء ردينة كأرملة تخير في خطابها من يخلف في بيع الرماح الصلبة، إلا أن تلك مسألة لا تستدعي كبير عناء بعد أن حطمنا الأغلال التي كانت تقيد فكرنا، كفانا أن ننظر إلى كلمة "Rattan" بالإنجليزية هي اسم لنوع معين من الخيزران غاية في المتانة والجودة وتمتاز قناته أكثر من أي شيء آخر بالمرونة واللدونة (انظر: "Rattan"-Job, Hob) ومما لا يشك فيه أن هذه الكلمة بالإنجليزية منقولة عن "Rotan" بلغة ملايو والهند الشرقية، أفهل يستبعد أن تكون (ردينة) الحلقة الوسطى بين "Rotan" من جهة و"Rattan" من جهة أخرى ليس إلا؟

القنا: لقد آن لنا أن ندون بعض الملاحظات عن أصل كلمة "القنا". إننا رأينا أن العرب، مع كثرة وصفهم للرماح، لم يذكروا أيّ منبت للقنا في ديارهم، بل بالعكس أجمعت الأدلة كلها على أنهم كانوا يعتمدون على منابت القنا بالهند، ولا يفوتنا في هذا المقام أن نذكر ما أورده الجاحظ (البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، 3/16) من أن الشعوب طعنوا في العرب بقولهم: "إنما كانت رماحكم من مران وأسنتكم من قرون البقر...". لعل مغزى هذا الطعن لا يعدو أن العرب لم يجدوا في ديارهم ما يمكنهم من صنع الرماح بجزئها القناة والسنان- وأخيراً يجب علينا أن لا نغفل اعتبار الأحوال الطبيعية اللازمة لنمو القنا وهي تختص في سفوح جبال تهطل عليها السماء مداراً ثلاثة أو أربعة أشهر متتالية في السنة، أفوجد مثل هذه الأحوال في جزيرة العرب أو شرقها وغربها إلا في السند والدكن أي الساحل الغربي والجنوبي للهند، ويخيل إلى أن قول الزبير بن بكار السالف الذكر (بأن سمهر كانت قرية بالحبشة) يخفي

¹ هذا ونجد مثلاً آخر لهذه الأسطورة بالذات فيما يتعلق بكلمة "السندرة" (أنظر ص 68 الآتية) وقد أدرك القتيبي أن القول "السندرة امرأة كانت تباع القمح وتوفي الكليل" مجازفة لجأ إليها الذين وقفوا حياري أمام كلمة أعجمية ألفوا استعمالها وعرفوا مدلولها لكن لم يدروا ما أصلها.

وراءه حقيقة ثابتة وهي أنّ العرب في وقت من الأوقات اتخذوا من الحبشة بدلاً من الهند، مرجعهم المفضل، ولا ننسى كيف أنّ الياقوت خلط بين كله "القلعة" وبين ومعدن القصدير بالأندلس لأسباب متشابهة¹. إذن لعل كلمة "قنا" نفسها معربة من الهندية "ganna" البراكرتية "gandoo" السنسكريتية "gandaka"².

الوشيج: إذا كان "الخطي" هندياً فهل من الغريب أن يكون "الوشيج" الذي لا ينبت الخطي إلا هو- هندياً أيضاً؟ أنّ أصل هذه الكلمة هو (Vansha) والجيم في الآخر علامة العجمة لا غير. وقد عهدنا العرب دائماً يظهرهم ملكة قوية لملاحظة الطبيعة بالدقة والإتقان وأنّ كلمة الوشيج وما اشتق العرب منها إلا دليل على التأثير بالطبيعة واستخلاص المعاني العامة من مظاهرها فإنّ كل من اتفق له أن يتمتع بنظرة إلى منبت القنا ليقدر تمام التقدير أنّ أهم ما يروع المرء من أشجاره هو التفاف سيفانها وتعاقد أغصانها، ومنه قولهم الوشيج بمعنى القرابة، والوشيج بمعنى الاشتباك، وإذا كان أحد في شك من هذا فليُنظر إلى كلمة "البيش"³. لا ريب في أنها هندية معربة أصلها (Visha/Bisa) استخلص العرب من شجرته معنى الخضرة والنضارة فقالوا "بيش الله وجهه" ولاحظوا أيضاً أنّ شجرة البيش شديدة الثبات والتأصل فقالوا: "أباش الشجرة". القسي: أما فيما يتعلق بالقسي، فقد كفانا الجاحظ مؤنة البحث عن أصلها بقوله: "وكل قوس بندق فإنما جيء بقناتها من بروص ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس، وقال الرقاشي:

أُنت قوساً نعت ذي انتقاء جاء بها جالب بروصاء
بعد اعتيाम منه وانتصاء كافية الطول على انتهاء

¹ انظر ص 34 السابقة.

² Nainar, S. Muhammad Husayn: Arab Geographers' Knowledge of Southern India, Madras 1942. p. 193, note 29, vide Platts: Hindustani Dictionary.

³ "البيش وهو نبت لا يوجد إلا بالهند" كذا في الآثار للقزويني، ص 85

مجلوزه الأكعب في استواء سالمة من آبن السيساء¹
وانظر أيضاً إلى قول آخر للرقاشي في صفة القناة التي تبرئ منها القسي:

من شقق خضر بروصيات صفير اللحاء وخلوقيات
جدلن حتى أضن كالحيات وشائناً غير مؤبنات
انفهن متمطرات عمرو بن عصفور² على استنبات³
لا يخفى أن بروص، كما وردت الكلمة مضبوطة في القطعة الثانية والتي جعلها الشاعر
"بروصاء" - "بروضاء" بالضاد المعجمة تحريف من الكاتب ليس إلا- في القطعة الأولى
لضرورة الشعر، كانت ميناء هاماً على ساحل كجرات فوق بمبائى حاول العرب عدة
مرات، قبل فتحهم المسند وأبان حكمهم لها، الاستيلاء عليها (راجع: فتوح البلدان
للبلاذري وهي لا تزال مدينة معروفة باسمها القديم "Bharoch").

والشرج بمعنى العود يشق منه قوسان (انظر: قول الشماج: "شراىج النبع براها القواس"
هي "chari" بالجيم علامة العجمة بآخرها، ومنه يقال لخطى نيري البرد شريجان.

وصفوة القول أنّ قصب الهند على العموم هي التي كان يضرب بها المثل بما يقول الشاعر:
قصب الهند والقنا أخذانك والمقادير في الورى أعوانك⁴
القطن ومنسوجاته: لا شك أنّ الهند هي الموطن الأصلي لشجرة القطن إلا أنّ
الشجرة الهندية الأصلية كانت طويلة العمر كما يبدو من أقوال القدماء، أما الشجرة

¹ البيان والتبيين، 94-93/3

² لو كان سمير مثقفاً للرماع أو يتاعاً لها لكان من الواجب أن نظفر من شاعر من الشعراء القدماء بإشارة
صريحة إلى ذلك مثل ما نجد أمامنا بخصوص عمرو بن عصفور. ولكنا بخلاف ذلك نراهم، حسبما
أعرف، دائماً يذكرون "السمهرية" و"الردينية" و"رماع ردينة" (الشماخ، ديوانه، ص 98) من غير أن
يزيدوا شيئاً ثم يبيىء اللغويون فيفسرون هذه النسبة كما بدا لهم بدون أي سند على نحو ما فصلنا الكلام عنه.

³ المصدر نفسه، 71/3

⁴ النوري، 2/54، وجاء في كتابات الجرجاني، ص 63 أنّ الشاعر هندي.

التي تزرع سنوياً فالمظنون أنها نتجت على أيدي العرب في العراق وسوريا والبلاد المجاورة. على كل حال افترنت هذه الشجرة بالعرب إلى حد أنها هي والسكر والدين ربما اعتبرت المقومات الثلاثة لحضارتهم في نظر الأوربيين (Watt. P. 569) هذا وقد اشتهرت الهند منذ قديم الزمان بالجودة ودقة منسوجاتها التي كان الثوب منها يدخل في حلقة خاتم، كما شهد بذلك سليمان التاجر (سلسلة التواريخ، ص 30)، ويذكر ابن خرداذبه (ص 70) أنّ الثياب القطنية المخملة كان تجيء من الهند، كما أن "الشال" و"الشيت" و"الفوطة" من الأسماء الهندية المعربة.

وبالإضافة إلى منسوجات القطن امتازت الهند أيضاً بصناعة الثياب من الحشيش (ابن خرداذبه، ص 70).

الكلاب السلوقية: يذكر عند العرب ذكر الكلاب "السلوقية" وهي على حد قولهم منسوبة إلى سلوق قرية باليمن إلا أنهم لا يستقرون على رأي بل يظهرون كأنهم يحولون حول (Sileucia) سلقية التي يصفونها بمدينة الروم (معجم البكري)، ومدينة اللان ومدينة بالشام (البلدان لياقوت واللسان)، لكن الجدير بالاهتمام تصريح القزويني بأن "الكلاب يسفدها الذئب،¹ فتأتي بالكلاب السلوقية" (الآثار، ص 29)، وذلك يذكرنا بمشاهدة الإسكندر بأرض الهند وبصحبة الملك (Saubhuti) لكلاب لا ترخى قبضتها على الأسد حتى ولو قطعت أرجلها، قيل أنها من نتاج الكلاب من النور،² ثم تذكر أيضاً أنّ أهل بابل كانوا يستوردون الكلاب من الميناء الهندي المعروف (Barygaza) = بروص³ كما يعرف أنّ الموكب التاريخي لبطليموس Philadelphus كان حافلاً بالكلاب الضواري الهندية إلى جانب النساء الهنديات والتوابل الهندية، وبعد هذا كله نعثر على

¹ من طرائق النساخ أنّ "الذئب" تحولت إلى "الثعالب" حيث جاء في صبح الأعشى (2/2) نقلاً عن المقر الشهابي ابن فضل الله أنّ السلوقية "مولدة بين الثعالب والكلاب".

² Cam. Hist. of India, 1/407

³ Heeren, 2/207.

قول ابن رسته الآتي في معرض الكلام عن ملوك الهند:

"وبعده ملك يقال له نجابه وهو شريف فيهم وبلهرا الملك يتزوج فيهم، وهم السلوقيون ولا يتزوجون إلا فيهم لشرفهم وهذه الكلاب السلوقية يقال إنها وقعت من بلادهم ولهم الصندل الأحمر في بلادهم وغياضهم ... إلخ.¹

¹ الأعلام النفيسة، ص 135.

شرح كلمة (خُلِّقَ) الواردة في القرآن الكريم في ضوء كلام العرب والأحاديث النبوية

- د. أورك زيب الأعظمي¹

وردت هذه الكلمة مرتين في القرآن الكريم؛ مرة في سورة الشعراء بمناسبة ردِّ قوم عاد على هود الذي نصَّحهم ومنعهم عن التكذيب. ينقل القرآن، فيما يلي، نصيحة هود وردَّ عاد على هذه النصيحة:

"إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾". (سورة الشعراء)

ومرة أخرى جاءت هذه الكلمة في سورة القلم التي عزَّى فيها الله سبحانه رسوله الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما اتهمه قومه بكونه مجنوناً وضالاً عن الطريق السوي:

"نَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيَبْصُرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمْ الْمَقْتُولُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾". (سورة القلم)

وقبل أن أتحدث عن المعنى المراد في كلا الموضعين أرى من المناسب أن أتبع استخداماً في كلام العرب وأحاديث النبي العربي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فيبدو من تبع استخدام هذه الكلمة في كلام العرب والأحاديث النبوية أنها جاءت لمعانٍ تالية:

1. ما مارسه الناس من العادة: وهذا المعنى ينقسم إلى دالتين: (1) السجية العالية، (2) السجية عالية كانت أو سافلة. فلمعنى الثاني شواهد كثيرة حتى

¹ مدير تحرير "مجلة الهند" وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيو دلهي

نجد كلَّ صفحة من دواوين الشعر العربي الكلاسيكي مليئة به. تدلّ على هذا المعنى صفة الكلمة التي تتبعها مثل "طاهر" و"كريم" و"عَفَّ" و"غَدَفَل" (واسع) و"جزل" و"فاحش" و"أفقم" (أعوج) و"مُزَّق" (ردئ) و"مُدْغَدَغ" (مغمور في الحسب) وغيرها من الصفات أو إضافتها إلى صاحبها الكريم أو الفاجر مثل "خُلِقَ المُسيءُ المفسد".

وأما كونها عادة حسنة فيشير إليها مجيئها صفة لأيّ عادة أو بدون صفة في مكان السجاياء العالية المفتخر بها مثل "شيمة خلق" وغيره من الشواهد التي سنذكرها فيما يلي.

فلنعنى الأول قول الأعشى الكبير التالي:

والصبرُ منه قديمًا شِمةٌ خُلِقُ وزنْدُه في الوفاء الثاقبُ الواري¹
وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي:

كلّ ما ذلك مني خُلِقُ وبكلّ أنا في الروع جدير²
وقال ابن قيس الرقيات:

إني لأخلي لها الفراش إذا قَصَّعَ في حضنِ عرسه الفرقُ
من غيرِ بغضٍ لها لديّ ولـ كن ذاك مني بـجِيةٍ خُلِقُ³
وقال برج بن مسهر الطائي:

كهابةٍ شارِفٍ كانتَ لشيخٍ له خُلِقُ يحاذره الغريم⁴

¹ ديوانه، 425/2

² شعره، ص 117

³ ديوانه، ص 80

⁴ شرح ديوان الحماسة، 770/2

وأما شواهد المعنى الثاني فيقول الأعشى الكبير في مدح حبيبه:

عبرهُ الخلقُ بلاخية تشوبه بالخلق الطاهر¹

وقال الشاعر الهذلي البريق:

أروع التي لا تخاف الطلا ق، والمرء ذا الخلق الأفقم²

فأتركها تبتغي قيماً وأقضي بصاحبها مغرمي³

وقال زهير بن أبي سلمى:

حزماً وبراً للاله وشيمة تعفو، على خلق المسيء المفسد⁴

وقال زهير أيضاً:

بل اذكرن خير قيسٍ كلها حسباً وخيرها نائلاً وخيرها خلقاً⁵

وقال يمدح هرمًا:

إن تلق يوماً على علاته هرمًا تلق السماحة منه والندی خلقاً⁶

وقال عمرو بن معديكرب:

تمتعتُ ذاك وكنت امرءاً أصد عن الخلق الفاحش⁷

¹ ديوانه، ص 344

² الأفقم: الأعوج

³ ديوان الهذليين، 57/3

⁴ ديوانه، ص 47

⁵ ديوانه، ص 76

⁶ ديوانه، ص 77

⁷ ديوان الأصمعيات، ص 178

وقال ذو الإصبع العدواني:

لي ابن عمّ على ما كان من خُلُقٍ مختلفان أقليه ويقليني¹
وقال عمرو بن معديكرب أيضاً:

تمتعتُ ذاك وكنتُ امرئاً أصدُّ عن الخُلُقِ الفاحش²
وقال أوس بن حجر:

هي ابنةُ أعراقٍ كرامٍ نمينها إلى خُلُقٍ عَفٍّ برازته قَدَّ³
وقال روبة بن العجاج:

ولا أحبُّ الخُلُقَ الممدّقا
والغرَّ مغرور وإنَّ تلهوقاً⁴

وله ما يلي:

ما كنتُ من تكرم الأعراض
والخُلُقِ العَفِّ عن الأفضاض⁵

وله أيضاً:

والعبدُ عبدُ الخُلُقِ المدغدغ
كالفقع إنَّ يهمزُّ بوطء يُثْلَغُ⁶

¹ ديوان المفضليات، ص 163

² شعره، ص 135

³ ديوانه، ص 26

⁴ ديوانه 172/1 والممدّق هو الرديء من الأخلاق.

⁵ ديوانه، 376/1

⁶ ديوانه، 60/2

وله أيضاً:

تَعَمَّداً بِالْخُلُقِ الْغَدْفُلِ¹

وله:

بَاعَدَ عَنْكَ الْعَيْبَ وَالتَّدْنِيسَا
ضَرَحَ الشَّمْسَ الْخُلُقَ الضَّبْبِيسَا²

وقال أبو صخر الهذلي:

فَأَيْسَرُ مَا أَبْدَى بَلِيلِي كَوَجْدَهَا سَوَى أَنْبَى أَبْدَى لَهَا خُلُقًا جَزَلًا³

وقال مسكين الدارمي:

حَسْبُكَ مِنْ تَحْصِينِهَا ضَمُّهَا مِنْكَ إِلَى خُلُقِي كَرِيمٍ وَدِينٍ⁴

وقال الفرزدق:

أَلَا تَذْكُرُونَ الرِّحْمَ أَوْ تُقْرِضُونِي لَكُمْ خُلُقًا مِنْ وَاسِعِ الْحَمِّ مَا جَدٍ⁵

وقال جرير:

أَلَا تَذْكُرُونَ الرِّحْمَ أَوْ تُقْرِضُونِي لَكُمْ خُلُقًا مِنْ وَاسِعِ الْخُلُقِ وَاجِدٍ
لَكُمْ مِثْلُ كَفِّي خَالِدٍ حَيْثُ يَشْتَرِي بِكُلِّ طَرِيفٍ كُلِّ حَمْدٍ وَتَالِدٍ⁶

¹ ديوانه، 342/2 والغدفل هو الواسع

² ديوانه، 234/3 والضبيس هو العسر المخالف.

³ شعراء أمويون، ص 101

⁴ ديوانه، ص 67

⁵ ديوانه، ص 123

⁶ ديوانه، ص 139

وقال طفيل الغنوي:

إنّ النساء كأشجارٍ نبتنَ معاً منها المرار، وبعضُ المرّ مأكول
إنّ النساء متى ينهنّ عن خُلُقٍ فإنه واجبٌ لا بدّ مفعول¹

وقال عروة بن أذينة:

لقد علمتُ وما الإسراف من خُلُقِي أنّ الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعنيني تطلبه ولو قعدتُ أتااني لا يُعنيني²

وقال قيس بن عاصم المنقري:

إني امرؤ لا يعتري خُلُقِي دنسٌ يفنّده ولا أفن³

وقال شاعر حماسي:

ومن يقترف خُلُقًا سوى خُلُقِ نفسه يدعه وترجعهُ إليّ الرواجع⁴

وقال رجل من آل حرب:

باتت تلوم وتلحاني على خُلُقٍ عودته عادةٌ والجودُ تعويد⁵

وقال يزيد بن الجهم الهلالي:

لقد أمرتُ بالبخل أمّ محمد فقلتُ لها: حُتّي على البخل أحمد
فإني امرؤ عودتُ نفسي عادةً: خُلُق وكلّ امرئ جارٍ على ما تعودا⁶

¹ ديوانه، ص 82

² شرح ديوان الحماسة، 779/2

³ المصدر نفسه، 938/2

⁴ المصدر نفسه، 994/2

⁵ المصدر نفسه، 1006/2

⁶ المصدر نفسه، 1012/2

وقال شاعر حماسي:

إني وإن لم ينل مالي مدى خلقي فيأض ما ملكت كفاي من مال¹
وكان معاوية بن أبي سفيان ينشد كثيراً ما يلي:

قد عشت في الناس أطواراً على خلقي شتي، وقاسيت فيها اللين والفظعا
كلأ بلوت فلا النعماء تبطني ولا تخشعت من مكروهة جزعا
لا يملأ الهول صدري قبل موقعه ولا أضيق به ذرعاً إذا وقعا²
وجاء في الأحاديث: "قالوا: يا رسول الله، ما خير ما أعطي العبد؟ قال: "خلق حسن"³. وإن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياة"⁴. ومن أفضل الأعمال: --- "وحسن خلق"⁵. وقالت عائشة: "ما كان خلق أبغض إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب"⁶. وقالت عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً بالأسواق، ولا يُجزئ بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويصفح"⁷.

2. ما أطرده الناس قديماً من التقاليد والسير والطرق: والمعنى الثاني لهذه الكلمة هي تلك التقاليد والسير والطرق التي سلكها الناس عبر العصور وهي أصبحت إما بمكان العلامة لكرامة الناس أو رذالة لهم كما قال سالم بن وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله إن التخلق يأتي دونه الخلق⁸

¹ المصدر نفسه، 1013/2

² الحماسة البصرية، 49/1

³ سنن ابن ماجه: 3436

⁴ سنن ابن ماجه: 4182

⁵ مسند أحمد مخرجا: 17814

⁶ المصدر نفسه: 25183

⁷ المصدر نفسه: 25990

⁸ شرح ديوان الحماسة، 480/1

وقال زهير بن أبي سلمى:

وعَوَّدَ قَوْمَهُ هَرَمٌ عَلَيْهِ وَمِنْ عَادَاتِهِ الْخُلُقُ الْكَرِيمُ
كَمَا قَدْ كَانَ عَوْدَهُمْ أَبَوْهُ إِذَا أَزْمَتَهُمْ يَوْمًا أَزُومُ¹

وقال أبو صدقة الديبيري:

والمَرْءُ يُلْحِقُهُ بَفْتِيَانِ النَّدَى خُلُقُ الْكَرِيمِ وَلَيْسَ بِالْوَضَاءِ²
وقال أبو زيد الطائي:

إِنَّ الْكَرَامَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ خُلُقٍ رَهْطُ امْرِئٍ خَارَهُ لِلدِّينِ مَخْتَارُ³
وقال أبو الأسود الدؤلي:

أَبْلَغُ أَبَا الْجَارُودِ عَنِي يَرْوِحُ بِهَا الْغَادِي لِرَبْعِكَ أَوْ يَغْدُو
فِيخْبِرُنَا مَا بَالُ صِرْمِكَ بَعْدَمَا رَضِيتَ وَمَا غَيَّرْتَ مِنْ خُلُقٍ بَعْدُ
أَنَّ نَلْتَ خَيْرًا سَرَّني أَنْ تَنَالَهُ تَنَكَّرْتَ حَتَّى قَلْتُ ذُو لَبْدَةٍ وَرَدُ⁴
وقال كعب بن زهير:

أَلَا أَبْلَغَا عَنِي بُجَيْرًا رِسَالَةً عَلَى أَيِّ شَيْءٍ-وَيْبٍ غَيْرِكَ- ذَلِكَ
عَلَى خُلُقٍ لَمْ تُلَفِ أَمَّا وَلَا أَبَا عَلَيْهِ وَلَمْ تُدْرِكْ عَلَيْهِ أَخَا لَكَ
سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَاسٍ رَوِيَّةٍ فَأَنْهَكَ الْمَأْمُونُ مِنْهَا وَعَلَّاكَ⁵

¹ ديوانه، ص 120

² لسان العرب: وضاً

³ المصدر نفسه: خار

⁴ ديوانه، 425/2

⁵ الأغاني، 374/12

⁶ المصدر نفسه، 91/17

وقال آخر:

رأيتُ معالمَ الخيراتِ سدّتْ دونها الطرقُ
فلا حسبُ ولا أدبُ ولا دينُ ولا خُلقُ¹

وقال الخطيئة:

ألا أبلغ بني عوف بن كعب
ألم أك جاركم ويكون بيني
فلا وأبيك ما ظلمتُ قريعُ
وهل قومٌ على خُلقٍ سواءٍ
وبينكم المودة والإخاء
ولا يرموا لذاك ولا أساءوا²

وقال جميل بن معمر العذري:

لحا الله من لا ينفع الودَّ عنده
ومن هو إن تحدّث له العينُ نظرةً
ومن هو ذو لونين ليس بدائم
ومَن حبله إن مدَّ غيرُ متين
يُقَضَّبُ لها أسبابُ كلِّ قرين
على خُلقٍ خوّانٍ كلِّ أمين³

وقال آخر:

هبتُ تلوم وتلحاني على خُلقٍ
قلت: رأيتُكِ متلافاً لما ملكتُ
قلت: اتركيني أبع مالي بمكرمة
عِدَّتْه عادةً، والخير تعويدُ
منك اليمينُ، فهلا فيك تصريد
قالَتْ لنا أنفسٌ محمودة: عودوا⁴
إنا إذا ما أتينا فعلَ مكرمة

¹ البيان والتبيين، 388/1

² الحماسة البصرية، 77/1

³ شرح ديوان الحماسة، 119/1

⁴ الحماسة البصرية، 129/1

وقال آخر:

إذا القرشيّ لم يُشبهه قريشاً بفعلهم الذي بذّ الفعالا
فجرميّ له خُلقٌ جميلٌ لدى الأَقوام أحسنُ منه حالا¹

وقال آخر:

ذكرتُ امرئاً فرّ عن مَرَحٍ فرارَ الحمارِ من القصور
فأنكر ذاك جليسٌ لكم زنيماً أخو خُلُقٍ أعور
لحاني بحبِّ إمام الهدى وفاروق أمتنا الأكبر²

وقال بعض الفزاريين:

كذاك أدبْتُ حتى صار من خُلُقِي أني وجدتُ ملاكَ الشيمة الأدبا³
وقال أمية بن أبي الصلت:

خليلٌ لا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عن الخلقِ الجميلِ ولا مساء⁴
وقال خلف بن خليفة:

إلى معدنِ العزِّ المؤيّدِ والندى هناك هناك الفضلُ والخلقُ الجزلُ⁵
وأما كون الخلق طريقَ الصالحين فيقول عمرو بن الأهتم:

ذريني فإنّ الشيخَ يا أمَّ هيثم لصالح أخلاق الرجال سروق
ذريني وحُطِّي في هواي فإنني على الحسبِ الزاكي الرفيع شفيق
ذريني فإنني ذو فعالٍ تُهَمِّني نوابُ يغشى رزؤُها وحقوق

¹ الأغاني، 166/14

² المصدر نفسه، 274-273/7

³ شرح ديوان الحماسة، 707/2

⁴ المصدر نفسه، 1040/2

⁵ المصدر نفسه، 1032/2

وكلُّ كريمٍ يتقي الدَّمَ بالقرى ولحق بين الصالحين طريق¹
وقال الثمري بعدما ذكر القرى:

بذلك أوصاني أبي وبمثله كذلك أوصاه قديماً أوائله²
وقال جابر بن حيان:

أهينُ لهم مالي وأعلمُ أنني سأورثه الأحياءَ سيرةً من قبلي³
وقال المتوكل الليثي:

لسنا وإن أحسبنا كُرمُت يوماً على الأحساب تتكل
نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعلُ مثلَ ما فعلوا⁴
وقالت الخنساء:

تحسبه غضباناً من عرّه ذلك منه خُلُقٌ ما يحول⁵
وقال ابن ميادة:

حراميون لا يقرون ضيفاً ولا يدرون ما خُلُقُ الكرام⁶
فالطريق والسيرة والخلق كلمات متشابهة المعنى. ويروي عكرمة عن ابن عباس،
أنَّ جميلة بنت سلول، أتت النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: وَالله ما أعتبُ على ثابتٍ
في دينٍ، ولا خُلُقٍ، ولكنِّي أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضاً ---".⁷

¹ المصدر نفسه، 973/2-974

² المصدر نفسه، 998/2

³ المصدر نفسه، 1003/2

⁴ المصدر نفسه، 1034/2

⁵ المصدر نفسه، 1046/2

⁶ ديوانه، ص 223

⁷ سنن ابن ماجه: 2056

وأوردها القرآن الكريم لكلا المعنيين: لكونها مجرد عادة وكونها طريقة مطردة للناس. ففي سورة القلم أوردها للمعنى الأول بينما أوردها في سورة الشعراء للمعنى الثاني.

موقع استخدامها في القرآن الكريم وبلاغته: وقبل أن أنهي هذا الحديث يناسبني أن أشير إلى موقع استخدامها في القرآن الكريم وبلاغته.

ففي سورة الشعراء التي تبعت سورة الفرقان تم فيها إثبات رسالة النبي الكريم ونزول القرآن من الله جلّ جلاله فلا فرق بينهما في الموضوع سوى الاستدلال والأسلوب، وما أجمال في سورة الفرقان من قصص الأنبياء والرسل قد فصلت في هذه السورة، وكذا ردّ فيها على اتهام قريش النبيّ الكريم بأنه مجنون وكاهن. ويشير تكرار "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾" إلى أنّ من طلب من الرسل آيات قد كذبوهم ولقوا عذاب الله القاهر الديان ولذا فليعتبر الناس ولا يسألوا هذا الرسول الكريم ما سأل أشباههم من السلف. والأنبياء والرسل الذين ذكرت قصصهم في هذه السورة بعد المدخل هم موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام فالفقرة التي وردت فيها هذه الكلمة تأتي في قصة لوط التي تبتدئ من الآية 123 وتنتهي على الآية 140 وهي كما يلي:

"كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٨﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تُعْبَثُونَ ﴿٣٩﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿٤٠﴾ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿٤١﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا مِّنْ أَجْرٍ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤٢﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٤﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾".

فبعدما أيقنهم أنه ناصح أمين لهم وذلك أنه لا يطلب منهم أي أجر انتقدهم وذكر ما هم يرتكبون كما ذكر ما أعطاهم الله من النعم من البنين والحدائق فلم يسمعوا لنصحه بل كذبوه زاعمين أنما يمارسه الرسول معهم من طريقة النصح والتهديد ليست إلا طريقة بالية غير مؤثرة للنصح والتهديد اتخذها أمثاله من الرسل فلم يأتهم العذاب في الماضي فكيف يأتهم اليوم، ولكنهم أحاط بهم العذاب وأصبحوا عبرة للمتأخرين من أشياعهم.

فكلام "إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٦٩﴾" يدل على أن طريقة نصح وتهديد هود ليست سوى أنها تشبه طريقة من تقدمه من الناصحين والمهتدين من الأنبياء والرسل وأنها لا تطوي بين جنبها شيئاً مما يدعيه هذا الرسول فكأنها نوع من الاختلاق فرأى علقمة "اختلاق الأولين" أو قول ابن عباس "أساطير الأولين" يشير إلى هذا ويؤيده القرآن فقد جاء في سورة النمل:

"لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾". (سورة النمل)

وكذا قراءة أبي عمرو بن العلاء "خُلُقُ الأولين" ليست سوى تفسير. وأما رأي قتادة "خِلقة الأولين" فيشير إلى معنى لا يؤيده نظم القرآن ولو يدل عليه معنى الكلمة. وأما من قال إنه "دين الأولين وعاداتهم" فله نظير في القرآن كما جاء في سورة البقرة:

"قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧١﴾".

وجاء في سورة المائدة:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٢﴾". (سورة المائدة)

وجاء في سورة لقمان:

"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ" (سورة لقمان)

ولكن لا يؤيده نظم القرآن وسياق الآيات. وأما مَنْ قال إنه "دين الأولين" فلا يصح فإنَّ الخلق مختلف عن الدين كما قال مسكين الدارمي:

حسبك من تحصينها ضمها منك إلى خلقٍ كريمٍ ودين¹
وقال الشاعر:

تولّت	بهجة	الدنيا	فكلّ	جديدها	خلق
وخان	الناس	كلّهم	فما	أدري	أثق
رأيتُ	معالم	الخيرات	سدّت	دونها	الطرق
فلا	حسب	ولا	أدب	ولا	دين
				ولا	خلق ²

وقال أبو زيد الطائي:

إنّ الكرام على ما كان من خلقٍ رهطُ امرئٍ خارهِ للدين مختار³
وكما جاء في الحديث: "أنّ جميلة بنت سلول، أتت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: وَالله ما أعتبُ على ثابتٍ في دينٍ، ولا خلقٍ، ولكنّي أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضاً ---".⁴
أوهو على الأقل جزء منه كما قال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنّ لكلّ دينٍ خلقاً، وإنّ خلقَ الإسلام الحياء".⁵

¹ ديوانه، ص 67

² البيان والتبيين، 388/1

³ لسان العرب: خار

⁴ سنن ابن ماجه: 2056

⁵ المصدر نفسه: 4182

وأما سورة القلم التي ذكرت فيها هذه الكلمة فهي توأم سورة الملك وهي تشتمل على إنذار قريش بالعذاب والقيامة ولا فرق بينهما سوى الأسلوب والاستدلال.

انتهت السورة السابقة على لسان النبي الأُمِّي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ما يلي:

"قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَمَّتًا بِهِ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٣٠﴾". (سورة الملك)

وهذه السورة شرح لذلك ففي بداية السورة ذكرت دعوة الرسول وكتابه وخلقه العالي وقورنت هذه كلها من رؤساء وكبراء قريش ثم ذكر أنّ من أعطاهم هذه كلها يقدر على أن يسلبهموها ثم انتهت السورة على ترديد زعمهم أنما أعطوا في هذه الدنيا من النعم سيعطون أمثالها في الآخرة، والسؤال عن عدل الرب تعالى، والعزاء للرسول الكريم.

ولا شك أنّ القرآن قد استدل في غير موضع منه بالخلق العالي من نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (كغيره من الرسل^١) على أنما يقول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو يدعو إليه صحيح حق يدلّ عليه خلقه السامي لأنه لم يكذب في حياته ولا اختار سبيلاً باطلاً ولا قال شيئاً يشوبه مسّ من الجن. ونذكر فيما يلي مثلاً من سورة النجم التي تبتدئ بما يلي من الآيات:

^١ كما قال الله تعالى: "وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٢٠﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾" (سورة الأعراف) وقال أيضاً: "أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾" (سورة المؤمنون) وقال أيضاً: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَذْلُكُم عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِقْتُمْ كُلٌّ مِرْقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٢٥﴾ أَفَتَزَيَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جَنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٢٦﴾" (سورة سبأ) وجاء في نفس السورة: "قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَّحِينَ وَفَرَدَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٧﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٢٨﴾".

"وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ۖ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۚ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ" (سورة النجم)
فقول "صَاحِبُكُمْ" يشير إلى شخصية الرسول الذي عاش بين ظهرانيهم فلم يشهدوا
بالضلال ولا بالغواية ولا بالكذب. وكذا جاء في سورة التكويد حيث قال تعالى:
"وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ۚ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۚ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۚ"
(سورة التكويد)

ولقد شهد بسيرته هذه أعداؤه فقال النضر بن الحارث:

"قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة".¹
وقد صدق أبو سفيان بصداقته.²

¹ تاريخ دول العرب والإسلام، 216/1

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. الحماسة لأبي عبادَةَ الوليد بن البَحْري، تحقيق: د. محمد إبراهيم حور وأحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2007م
3. ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعة: أبي سعيد الحسن السكّري، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، ط2، 1998م
4. ديوان الأعشى الكبير بشرح محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، إدارة البحوث والدراسات الثقافية، الدوحة، قطر، 2010م
5. ديوان الخطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قتيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993م
6. ديوان الخنساء، اعتنى به وشرحه: حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، 2004م
7. ديوان الرماح ابن ميادة، جمع وتحقيق: د. حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1982م
8. ديوان العجاج، تحقيق: د. عبد الحفيظ السطلي، مكتبة أطلس، دمشق، 1971م
9. ديوان الفرزدق، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1987م
10. ديوان الهذليين، الجمهورية العربية المتحدة، الثقافة والإرشاد القومي، طبعة دار الكتب، 1996م
11. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1980م
12. ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986م
13. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
14. ديوان ذي الإصبع العدواني، جمع وتحقيق: عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نائف الدُّيبي، مطبعة الجمهور، الموصل، 1973م

15. ديوان زهير بن أبي سلمى، شرح وتقديم: الأستاذ علي حسن فاعور، دار التب العلمية، بيروت، ط: 1، 1988م
16. ديوان طفيل الغنوي، تحقيق: حسان فلاح أوغلي، دار صادر، بيروت، ط 1، 1997م
17. ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، د.ت.
18. ديوان مسكين الدارمي، جمع وتحقيق: عبد الله الجبوري و خليل إبراهيم العقبة، مطبعة دار البصرى، بغداد، ط: 1، 1970م
19. شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تعليق: غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2003م
20. شرح ديوان الحماسة للعلامة التبريزي، دار القلم، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى
21. شعر عمرو بن معديكرب الزبيدي، جمع وتنسيق: مطاع الطرايشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط 2، 1985م
22. شعراء أمويون، د. نوري حمودي القيسي، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1985م
23. لسان العرب لابن منظور الإفريقي، دار صادر، بيروت، د.ت.

مدرسة العلوم بعلي كره (تاريخها وأثرها في المجتمع)

- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: محمد شفاء الرحمن²

﴿5﴾ والأخيرة

الباب السابع

السيد سيدنس أول رئيس المدرسين لمدرسة العلوم

كان المصلح السير سيد أحمد خان يحب التطور التعليمي حباً بالغاً وذلك لجميع أهل وطنه، وخصوصاً للمسلمين لأنّ هذه هي الطريقة الوحيدة للقضاء على التخلف، والنجاح في المضمار الاجتماعي والاقتصادي. وما أهمية التعليم عنده؟ فندركها جيداً بقوله هذا: "إنّ أهم شيء بعد الدين هو التعليم"، وتطبيقاً لهذه الفكرة خطط السير سيد أحمد خان لإنشاء مؤسسة باسم "مدرسة العلوم"، وعقد اجتماعها الافتتاحي في 24 من شهر مايو سنة 1875م (كما مضى في الباب الثالث). وقبل هذا تم نشر الإعلان لتعيين الأساتذة في Aligarh Institute Gazette العدد 71 من شهر مايو سنة 1875م، وطبقاً لهذا الأساتذة الذين تم تعيينهم أولاً هم:

1. ايج جي آئي سيدنس.

2. لاله بيچ ناث.

3. المولوي محمد أكبر.

¹ بروفييسور متقاعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي، الهند

4. المولوي أبو الحسن.

5. المولوي السيد جعفر علي.

6. المولوي نجف علي خان

7. المولوي عبد الرزاق.¹

ومهم جداً أنّ هؤلاء الأساتذة الأوائل كان من بينهم المسلمون والهندوس والأوروبيون، ومنهم السيد سيدنس تم تعيينه كرئيس المدرسين، واسمه الكامل: HENRY GEORGE IMPEY SIDDONS، ومن المعروف جيداً أنّ هدف السير سيد من إنشاء هذه المدرسة توفير تسهيلات التعليم القديم والجديد، والتأهيل لتكامل متطلبات العصر الجديد، وتبدو لمعته في هذا التعيين الأول واضحة.

وقد تخرج السيد سيدنس في جامعة أكسفورد، واشتهر عمومًا بلقب "صاحب بهادر" وعيّن رئيساً للمدرسين في مدرسة العلوم بناء على توصية من ديغتون (Deighton) عميد كلية آغره، براتب قدره 400 روبية شهرياً.² وتولّى منصبه في 28 من شهر يونيو سنة 1875م. وقام بمسؤوليته أحسن قيام بتوجيه لجنة الإدارة، وبمساعدة أعضاء هيئة التدريس، وكان يسعى لتطوير المدرسة بكل الطرق. وكانت نتيجة حسن تنظيمه أنه عيّن أول عميد للكلية عندما تشكّلت مدرسة العلوم في الكلية بعد تأسيسها بسنتين تقريباً في يناير سنة 1877م.³ ومن هذا المنطلق كان السيد سيدنس قد تميز تميزاً خاصاً بأنه كان أول رئيس للمدرسين في مدرسة العلوم، وأول عميد للكلية الحمديّة للعلوم الشرقيّة (M. A. O. College).

¹ تقرير تطوير التعليم في مدرسة العلوم للمسلمين، المصدر نفسه، ص 2؛ S. K. Bhatnagar, History of the M. A. O. College, Aligarh, 1969, PP. 27, 46, 48.

² إيس - كے - باتناغر، المصدر نفسه، ص 48-49، 56-57.

³ Morrison' History of M. A. O. College, Aligarh (edited by Safi Ahmad Kakorwi), Aligarh, 1988, p. 18.

وكان السيد سيدنس صاحب الطبيعة البسيطة والهادئة، ويبدو أن قول ايس - ك باتناغر (Author: History of M. A. O. College) ليس بصحيح حيث قال: إن التأثيرات العقلية البيروقراطية للمملكة المتحدة كانت قد غلبت عليه، وأنه كان لا يحب العلاقة مع الهنود كثيراً.¹ والكتاب الذي نقل منه هذا القول أعرب فيه عن الانطباع العام عن مدرسي اللغة الإنجليزية "أنهم كانوا ينزلون عن الطلاب في ذاك الوقت بعد أوقات الدراسة".² والسيد سيدنس كانت له علاقة طيبة مع الطلاب، ويهتم بقضاياهم اهتماماً بالغاً، وكان يستعد لحل مشاكلهم دائماً، ويذهب كل يوم إلى صفوفهم ويدرسهم لتطورهم التعليمي (كما يتضح بالتفاصيل الآتية). فكيف يكون هذا الانطباع عنه صحيحاً بأنه كان لا يحب العلاقة مع الهنود. والواقع أنه كان يهتم بالشؤون التعليمية للكلية اهتماماً كبيراً، وكان موقف التعاطف مع الطلاب جزءاً خاصاً منه. وقد بدأ سلسلة الجوائز لتطور البيئة التعليمية في الكلية، وتعزيز الانضباط بين الطلاب في سنة 1879م. وحصل على الجائزة الأولى من هذه السلسلة للأخلاق الحسنة الطالب محمد عبد المجيد من سكان نجيب آباد.³ وكذلك أعطى الطالبين جائزة على حسابه الخاص للأخلاق الكريمة، والانضباط في الحضور في سنة 1881م. وعلاوة على عميد الكلية فإن السير سيد نفسه وأعضاء اللجنة الإدارية كانوا يشجعون الطلاب الصالحين والجادين والمجتهدين بتوزيع الجوائز المختلفة بينهم. وبدأت الكلية عقد الحفل السنوي لتوزيع الجوائز بموافقة اللجنة الإدارية من سنة 1878م، ثم بدأ في وقت لاحق عرض التقرير السنوي للكلية في هذه المناسبة أيضاً.⁴ وبالإضافة إلى ذلك فإن السير سيد أعلن في شهر فبراير سنة 1881م عن

¹ ايس - ك باتناغر، ص 56.

² سيد طفيل أحمد المنغلوري، المستقبل المشرق للمسلمين، مطبعة علمية، دلهي، 1954، ص 216.

³ التقرير السنوي لإجراءات السكن في مدرسة العلوم، سنة 1879م، ص 7.

⁴ ايس - ك باتناغر، ص 72.

جائزتين بمبلغ قدره 25 روبية لأفضل مقال باللغة الإنجليزية بعنوان: "حياة الكلية"، وحصل على الجائزة الأولى الطالب روشن لال من السنة الثانية من البكالوريوس (B.A. Second Year) بمبلغ قدره 25 روبية، بينما حصل على الجائزة الثانية الطالب أحمد حسين خان من السنة الأولى من البكالوريوس (B.A. First Year) بمبلغ قدره 15 روبية.¹ ولعل قليلاً من الناس يعرفون أنّ السير سيد أحمد خان نشر الإعلان في سنة 1883م عن ميدالية ذهبية على حسابه الخاص للذين يحصلون على الدرجة الأولى (First Division) من طلاب البكالوريوس لا سيما من الهندوس.² فانبعث النشاط بهذا الاهتمام والحماس من الإدارة وعميد الكلية في البيئة التعليمية للكلية، ويتضح اهتمام العميد السيد سيدنس بشؤون الطلاب التعليمية من أنه كان يذهب إلى صفوف الكلية، ويعلم الطلاب اللغة الإنجليزية، ويشرح لهم قواعدها وتعاييرها كل يوم لمدة ساعة على الأقل، وهكذا يتناوب في فصول مختلفة.³ ومن حسن المصادفة أنّ الأساتذة الموهوبين والمحنّكين الذين تم تعيينهم في الكلية في عهده كانوا متميزين وممتازين في تخصصاتهم، وكان يدرس رجال الفن في الكلية آنذاك من مثل العلامة شبلي النعماني وجان جاكروارتي، وجدير بالذكر علاوة على ذلك أنّ الكلية المحمدية والعلوم الشرقية (M. A. O. College) التي بدأت في سنة 1877م بعدد قليل من أعضاء هيئة التدريس، بلغ عددهم إلى ثمانية عشر في سنة 1880م.⁴ وكانت هذه الزيادة بلا شك مظهراً هاماً من مظاهر التطور اليومي للكلية، ومن الواضح أنّ قضية التمويل ترتبط ارتباطاً مباشراً بهذه الإضافة، ولكن توضيحات أهل الحل والعقد ثبتت حلولاً لهذه المشاكل في مثل

¹ جريدة معهد علي كره، 16 / 13، 12 من شهر فبراير سنة 1881م، ص 173، وباتاغري، ص 73.

² جريدة معهد علي كره، 62 / 170، 5 من شهر أغسطس سنة 1882م، ص 855.

³ جريدة معهد علي كره، 15 / 14، 17 من شهر أغسطس سنة 1880م، ص: 194؛ و19 / 11، 5 من شهر فبراير سنة 1884م، ص 132.

⁴ باتاغري، ص 61.

هذه المناسبات دائماً. وفي سنة 1881م كانت هناك حاجة ماسة إلى أستاذ الفلسفة لصفوف البكالوريوس، ولكن الظروف المادية للكلية لا تسمح بنفقات إضافية، وانهقد اجتماع مجلس الإدارة للنظر في هذه القضية، واختلف فيه بعض الأعضاء في تعيين أستاذ الفلسفة بسبب مشاكل الظروف المادية، وقام السير سيد وأعلن أمام الجميع أنه سيؤدي 200 روبية للمساعدة في راتب مدرس الفلسفة كل شهر إلى أن تصبح الكلية نفسها قادرة على دفعه.¹

وقد تطورت الكلية في مجالات أخرى أيضاً بتضحيات زعمائها المثالية، وخدماتهم المخلصة، وجهود العميد سيدنس، وقد بدأت عملية التسجيل (Entrance) مع افتتاح الكلية في سنة 1878م، وأيضاً قد تمت معادلتها بجامعة كولكاتا. وبدأت صفوف البكالوريوس في سنة 1880م بجهود مسؤولي الكلية وبموافقة الحكومة عليها، وتمت معادلتها بجامعة كولكاتا للبكالوريوس أيضاً في شهر مارس سنة 1881م. وبدأت المحاضرات في الحقوق والقوانين في يناير من 1883م، وفي نفس السنة تمت معادلتها بجامعة كولكاتا لهذه الصفوف (Classes of LLB).² وبالإضافة إلى ذلك حقق الطلاب نجاحاً باهراً في الاختبارات المختلفة، ويدل هذا على الاهتمام البالغ للعميد والأساتذة بالشؤون التعليمية. وشارك في اختبار التسجيل ثلاثة عشر طالباً في سنة 1881م، ونجح منهم أربعة بالدرجة الأولى، والباقي بالدرجة الثانية، وفي هذا الصدد هنا مدير التعليم لولاية أوترا براديش مسؤولي الكلية. ولا شك أن النتائج الأولية لطلاب البكالوريوس لم تكن مرضية تطمئن بها القلوب، ولكنها تحسنت تدريجياً. وفي سنة 1881م شارك في اختبار البكالوريوس أربعة طلاب، ولكن لم ينجح منهم إلا واحد، وعلى العكس كانت النتائج في سنة 1883م 80%، وفي

¹ المصدر نفسه.

² جريدة معهد علي كره، 29/16، 9 من شهر أبريل سنة 1881م، ص 402، وتاريخ موريسون للكلية المحمدية والعلوم الشرقية (M. A. O. College)، ص 20، وباتناغر، ص 59.

الحقيقة أنّ هذه النتائج كانت أفضل بكثير مقارنة بالعام الأول.¹ وأما عدد الطلاب الإجمالي فكان معدّهم يتحسن سنة بعد أخرى، وكان متوسط عدد الطلاب في عام 1877-78م مئة وثمانية وخمسين طالباً بينما زاد عددهم إلى مئتين واثنين وسبعين طالباً في آخر عهد السيد سيدنس.² وفي هذا الزمن تحققت أهم الأمور للكلية والطلاب حيث إنّ جامعة كولكاتا اعترفت بالكلية المحمدية والعلوم الشرقية (M. A. O. College) بصفتها مركزاً لاختبارات التسجيل والقبول في الجامعة منذ سنة 1884م.³ وكان الطلاب يذهبون من قبل إلى كلية آغره لهذا الغرض، وكانوا يتمثلون المشاق، ولم يتخلص الطلاب بهذا القرار من مختلف أنواع المشاق والصعوبات فحسب، بل زادت الكلية أهمية ومكانة.

ومن المعروف أنّ السير سيد أحمد خان كان يهتم بتربية الطلاب مع تعليمهم اهتماماً خاصاً، وكان يعتبرهما ضرورياً لحياتهم الناجحة، ولهذا تم توفير تسهيلات الراحة في الحياة السكنية. ووضعت المبادئ وآداب السلوك لتحقيق الانضباط فيما بينهم، وكانوا يقضون حياتهم طبقاً لهذه الأصول والآداب ليلاً ونهاراً، والأصول والقواعد التي وضعت لطلاب السكن في ذلك الوقت هي كما يلي:

1. المحافظة على الصلوات الخمس.
2. نظام تناول الطعام في المطعم معاً.
3. يمنع الذهاب إلى غرف الآخرين من الساعة السابعة مساءً إلى الساعة السابعة صباحاً.
4. عدم الخروج من حرم الكلية دون إذن خطي من مشرف السكن (ولكن يوم الجمعة كان قد استثنى إلى الساعة الثالثة من هذه القواعد).

¹ باتاغري، ص 59.

² المصدر نفسه، ص 60.

³ المصدر نفسه.

5. وعلاوة على ذلك كان نظام تسجيل حضور الطلاب يومياً ثلاث مرات على الأقل في الأوقات المختلفة.¹

يكره السير سيد انتهاك هذه الأصول والآداب، كما كان يريد من جميع مسؤولي الكلية، وأعضاء هيئة التدريس من العميد، والأساتذة ومشرفي السكن أن يجتهدوا في تربية الطلاب وتدريبهم، وتعزيز الانضباط فيهم، وقام السيد سيدنس بالاجتهاد الكامل في هذا بوصفه عميداً، ولم يعمل بأي نوع من التعاطف والتساهل في النظام والانضباط فيهم، وبذل السيد سيدنس جهوداً كبيرة لبدء النظام والانضباط بين الطلاب، وتوعيدهم على التمسك بالأصول والقواعد. وبهذا الغرض أصدر بعض التعليمات والتوجيهات في شهر يونيو من سنة 1879م مثلاً:

1. لا يذهب أي طالب إلى السكن في أوقات دوام الكلية.
2. لا يدخل الطالب الخارجي في أي سكن، أو الشخص الذي ليس له صلة به بدون الإذن الخطي من مشرف السكن.²

وكذلك كان يهتم بتعليم العلوم الإسلامية اهتماماً خاصاً، وكان عدم انضباط الحضور في طابورها موجباً لعقوبة شديدة. وفي هذا الصدد وجه السير سيد أحمد خان عميد الكلية خصوصاً إلى أن يتم فصل الطلاب الذين لا يحضرون في طابور العلوم الإسلامية، أو لا يشاركون في اختبارها دون أي مراعاة، واعتبر السيد سيدنس عميد الكلية القيام بمثل هذه التعليمات واجبة عليه، واهتم بالانضباط والنظام في الطلاب اهتماماً كاملاً.³ وجدير بالذكر أن الأصول والقواعد المتعلقة بالنظام وضعت في هذه الفترة نفسها، وطبعت في شكل كتيب، وكان هذا الكتيب يباع بربوية

¹ المصدر نفسه، ص 62.

² المصدر نفسه، ص 82-83.

³ المصدر نفسه، ص 83.

واحدة. وهذا الكتيب يحتوي على التفاصيل عن مبادئ التعليم والتربية ورسوم الالتحاق والسكن والمكافآت المختلفة.¹ وبالإضافة إلى ذلك فإن تشكيل اللجان المختلفة لتشييد الكلية وتوسيعها أيضاً من تذكّار ذلك الزمن.

وأما ظروف الكلية المادية فتحسنت أيضاً يوماً بعد يوم بيد أنه من الصعب تخمين مدى جهود السيد سيدنس في هذا الصدد. وزادت الإيرادات إلى أن وصلت خمسة وأربعين ألف روبية في عام 1883-84م، وتقدر الزيادات تدريجياً في إيرادات الكلية جيداً من كتاب السيد ماريسون (الذي تولّى منصب العمادة في الكلية فيما بعد) "تاريخ الكلية المحمدية والعلوم الشرقية" (History of M. A. O. College)، الذي قدّم فيه خلاصة تقدير المالية لمدة حوالي عشر سنوات مفصلة لكل سنة.²

وقامت الكلية المحمدية والعلوم الشرقية بالنشاطات في مضمار الرياضة والألعاب من أول دور تأسيسها، وتم افتتاح مباراة الكريكت برعاية السير سيد في شهر فبراير من سنة 1878م، وعيّن أستاذ الرياضيات رام شانكار ميشرا قائداً لفريق الكلية، وأكمل أعضاء الفريق مصارف طوارئ لهذا اللعب بالتعاون فيما بينهم لمدة ثلاث سنوات تقريباً، وتأسّس نادي الكريكت منظماً في سنة 1881م، وربّبت له المبادئ والأصول، وتم فرض رسوم شهرية على جميع أعضاء هذا النادي، وكان يؤدي السيد سيدنس نفسه ستين روبية كرسوم للنادي.³ وكان أول قائد لنادي فريق الكريكت الذي تم تعيينه هو محمد رفيق، وانهقدت أول مباراة لفريق الكلية مع المدرسة الثانوية الحكومية في مدينة مراد آباد.⁴ ومن أهم النشاطات الأخرى غير التعليمية في ذلك

¹ انظر: لتخصيص الأصول والمبادئ للكلية التي تمت الموافقة عليها في اجتماع لجنة الصندوق المالي: "المسودة لمبادئ الإقامة والتعليم والتربية لطلاب مدرسة العلوم"، وجريدة معهد علي كره، 8/ 44، 31 من شهر أكتوبر سنة 1873م، ص 692.

² باتاغرا، ص 68-69، والسيد ماريسون، تاريخ الكلية المحمدية والعلوم الشرقية، ص 69.

³ السيد ماريسون، تاريخ الكلية المحمدية والعلوم الشرقية، ص 19-20.

⁴ باتاغرا، ص 72.

الزمن الاهتمام بالغرفة المشتركة في السكن التي بناها الطلاب على نفقتهم الخاصة في شهر أكتوبر من سنة 1880م، وفي ذلك الزمن تم تشكيل النادي النقابي الذي أعلن عنه عميد الكلية رسمياً في 25 سبتمبر من سنة 1881م.¹

وكانت من أبرز الجوانب في دور العميد السيد سيدنس زيارة العديد من الشخصيات البارزة للكلية، ومن أبرزهم سيد أحمد الخلوصي سفير تركيا، وريتشارد تيميل محافظ مومباي، وسارجان سترتشي محافظ مساعد لأوترا براديش، ونائبه السيد الفريد ليل. ورحبت الكلية بسعادة سفير تركيا، وأقامت حفل ترحيب لتكريمه، وأعرب فيه سعادة السفير عن اهتمامه البالغ بتعليم العلوم الإسلامية، وسأل الطلاب عنها عدة أسئلة، فسرّ كثيراً بأجوبتهم، وخصوصاً تأثر بما أجاب إحسان الله من سكان الجريا كوتي (الأعظمي) تأثراً بالغاً، وأشاد بتعليم العلوم الإسلامية على المستوى العالي وأثنى عليه.² وزار ريتشارد تيميل محافظ مومباي الكلية في شهر يناير من سنة 1878م، وشرف الكلية سارجان سترتشي محافظ مساعد لأوترا براديش، ونائبه السيد الفريد ليل بزيارتهما لها في شهر ديسمبر من سنة 1880م، وفي شهر فبراير من سنة 1883م على التوالي.³ ومن ميزات عصر السيد سيدنس أن العلاقة بين عميد الكلية وإدارتها كانت جيدة بوجه عام، واستمرت أنشطة الكلية في بيئة هادئة، وظلت في طريق التطور والازدهار، وإن كان قد اختلف السيد سيدنس مع لجنة الإدارة فيما يتعلق بالزيادة في الراتب ولكن ذلك لم يحدث أي فرق في أداء نشاطاته بوصفه عميداً، وظل في القيام بمسؤولياته حتى استقال من منصبه بسبب صحته المتدهورة في 5 من شهر مايو سنة 1883م، ولكنه أظهر رغبته أن لا يعزل من منصبه حتى شهر فبراير سنة 1884م ليتمكن من العثور على بديله باطمئنان.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 73.

² المصدر نفسه، ص 71.

³ المصدر نفسه، ص 72.

⁴ المصدر نفسه، ص 57.

فاحترمت إدارة الكلية رغبته هذه وإن وافقت على استقالته رسمياً في شهر أغسطس من سنة 1883م. وأيضاً صار هذا الخبر ساخناً وقت استقالته حيث إن سببها الأصلي كان اختلافه مع السكرتير الفخري للكلية الشيخ سميع الله خان.¹ وكتب السيد سيدنس رسالة باسم السير سيد (بتاريخ 14 من شهر سبتمبر سنة 1883م) أنكر فيها ذلك بشكل قاطع، واعترف واضحاً أنه مطمئن تماماً بسلوك إدارة الكلية تجاهه، وليس لديه أي نوع من الشكوى.² ووصف السير سيد نفسه هذا الخبر بأنه لا أصل له في الاجتماع المشترك بين لجنة صندوق الكلية ولجنة إدارتها لاحقاً، وصرح أن السيد سيدنس استقال بسبب تدهور صحته،³ وأنه أوضح في الحفل التوديعي له نفس السبب لمغادرته الكلية مخاطباً له،⁴ وذكر السيد سيدنس نفسه سبب انفصاله من الكلية تدهور صحته في خطاب الرد بكلماته الآتية: "أيها السادة! إن تصوراتكم صحيحة لم أكن لأترك هذا المنصب الذي أحببته جداً بيد أن صحي تدهورت."⁵

وأفضل خدمات الكلية المحمدية والعلوم الشرقية (M. A. O. College) التي قام بها السيد سيدنس بوصفه معلماً وعميداً لها يوجد الاعتراف بها بوضوح في تقرير التطور السنوي للكلية، وفي تصريحات أساتذتها ولجنة إدارتها. وقال السير سيد أحمد خان في تقريره السنوي عن عميد الكلية بمناسبة الاجتماع الثاني السنوي لتوزيع الجوائز (المنعقد في 1 من شهر أبريل سنة 1881م): "كل هذه التطورات التي ذكرتها آنفاً ليست إلا نتيجة الجهود والاهتمامات التي قام بها عميد الكلية، ورئيس المدرسين والأساتذة والمدرسون الآخرون. ولا يزال يجتهد عميدنا السيد سيدنس في تطوير الكلية، وتعليم

¹ ولاية حسين، عدة أوراق من المذكرة الشخصية، (ترتيب: سيد محمد تونكي)، مجلة علي كره، العدد الخاص بجامعة علي كره (جزء: "الشخصيات والدراسات") سنة 1953-1955م، ص 13.

² باتناغر، ص 58.

³ المصدر نفسه.

⁴ جريدة معهد علي كره، 5 من شهر فبراير سنة 1884م، ص 132-134.

⁵ المصدر نفسه، ص 136.

الطلاب بجهود قلبية وناصرة تشكره اللجنة على ذلك دائماً، والآن أشكره بصفة سكرتير اللجنة نيابة عن جميع الأعضاء.¹ وعندما جرت مناقشة الاقتراح للزيادة في راتب السيد سيدنس في اجتماع لجنة صندوق الكلية (المنعقد في شهر أبريل من سنة 1883م) أثنى سكرتير الكلية الشيخ سميع الله خان على نشاطات العميد بهذه الكلمات:

"أعرف أنا وجميع أعضاء اللجنة جيداً أنّ السيد سيدنس يعمل في كليتنا أكثر مما يجب على عميد من حيث واجبات منصبه. وأنه يرغب في كليتنا، ويحبها بقلب صادق، ونشكره على حبه كليتنا من صميم القلب، ويجب علي أن أقول باختصار: إنّ السمعة الطيبة التي ذاع صيتها عن كليتنا فسببها الأكبر هو السيد سيدنس، وإن شارك فيها كل من الأساتذة والمعلمين والمدرسين".²

وفي نهاية هذه الجلسة أعرب رئيسها الشيخ محمد كريم نائب جابٍ عن عواطفه فيها، وهي: "كل ما قاله صديقي، العضو الذي جلس على يميني عن السيد سيدنس أوافقه تماماً على ذلك. وكان السيد سيدنس يجتهد بقلبه وحبه في تعليم الطلاب في أوقات دوام الكلية وخارجها أيضاً، ويحب الكلية محبة صادقة، وهو من أعزاء العمداء بلا شك، واقتراح الزيادة في راتبه الذي وافقت عليه اللجنة سررت بها كثيراً".³

ويقدر كيف حظي بقبول كبير بين الطلاب بأنه حين خطط للرجوع إلى وطنه لمدة قليلة في شهر مارس من سنة 1880م اهتم الطلاب بالاجتماع التوديعي في 29 من شهر فبراير سنة 1880م تكريماً له الذي ألقى فيه محمد حميد الله خان خطاباً عن جميع الطلاب، وأنشد الطالب الآخر حامد علي أنشودة فيه باللغة الإنجليزية حيث تأثر به العميد كثيراً.⁴ بالإضافة إلى ذلك فإنّ لبيان الطالب في الكلية نفسها (سيد نور الدين

¹ المصدر نفسه، 27 / 16، 2 من شهر أبريل سنة 1881م، ص 367.

² ملحق جريدة معهد علي كره، 69 / 18، 2 من شهر أكتوبر سنة 1883م، ص 4، وباتاغري، ص 56-57.

³ ملحق جريدة معهد علي كره، 2 من شهر أكتوبر سنة 1883م، ص 5.

⁴ باتاغري، ص 57.

أحمد العظيم آبادي) أهمية كبيرة فيما يتعلق بسلسلة الخدمات القيمة والمفيدة التي قدّمها السيد سيدنس للكلية، وكان من طلاب سنة (F. A.). وكتب مقالاً مفصلاً عن أحوال وأوضاع مدرسة العلوم في علي كره، تم نشره في Aligarh Institute Gazette، ولاحظوا انطباعاته عن السيد سيدنس بكلماته الآتية:

"وإذا رأيت أنّ عميد الكلية المحمدية يهتم بها اهتماماً خاصاً، ويدرس الطلاب بعطف كبير فليكن له المزيد من الأولوية على الكلية، وأنه لا يعمل بسبب الشعور بالواجب (الذي يوجد خصوصاً في معلّمي اللغة الإنجليزية) ولكن يبدو أنه يحب الكلية كما يحبها الأعضاء ومؤسسو المدرسة. وفي هذا العام منح العديد من الطلاب الجوائز للسلوك الجيد والانضباط في الحضور من نفقته الخاصة. وترى الأيام الجيدة للمدرسة لأنها وجدت عميداً مؤهلاً من البداية، وهو من سكان إنكلترا خاصة، وقبل كل شيء أنه من محبي المدرسة. ويدرس الطلاب من الفصول المتنوعة في بيته الخاص لمدة ساعة إضافية، ويصحح الأخطاء التي تصدر من الطلاب في تعبيرات اللغة الإنجليزية، وأعتقد أنّ هذه الطريقة لا يمكن أن تكون في أي مدرسة أو كلية حكومية".¹

وما أعظم اعترافاً بخدمة السيد سيدنس من أنّ أعضاء الإدارة والأساتذة والطلاب قرّروا بالاتفاق في الاجتماع (المنعقد في قاعة إستريجي تحت رئاسة الشيخ محمد كريم في تاريخ 9 من شهر ديسمبر سنة 1883م) أنّ يقيم تذكّاراً مستقلاً لارتباطه بالكلية، ومن أجل ذلك قاموا بإنشاء "النادي الاتحادي للسيد سيدنس بمدرسة العلوم" في ديسمبر 1883م. والاقتراحات التي عرضت لأجل ذلك في الاجتماع هي: "أن يقيم نادٍ يتعلق بمدرسة العلوم، وتذكّاراً لجهود السيد سيدنس وشفقته وأن يسمّى بـ"النادي الاتحادي للسيد سيدنس بمدرسة العلوم".² وبالإضافة إلى ذلك أنّ الشيخ محمد كريم أثنى في هذا الاجتماع على جهود السيد سيدنس التي قام بها لتطوير الكلية، وثمن

¹ جريدة معهد علي كره، 15/ 14، 17 من شهر فبراير سنة 1880م، ص 194.

² المصدر نفسه، 18/ 89، 11 من شهر ديسمبر سنة 1883م، ص 1408.

سلوكه الحنون تجاه الطلاب، وسلوكه الحسن مع أعضاء لجنة الإدارة، ومع مرؤوسيه الموظفين.¹ وفي النهاية تم عقد الاجتماع التوديعي له الذي شارك فيه عدد كبير من الطلاب والأساتذة وأعضاء الإدارة في 28 يناير 1884م.² وتم نشر تقرير هذا الاجتماع التوديعي في جريدة المعهد، ومن الممكن أن هذا التقرير الذي قد قام بإعداده هو السير سيد، وتوضح أيضاً من هذا التقرير قدرات السيد سيدنس التعليمية والإدارية، وتظهر قيمة خدماته ومكانتها للكلية، لاحظوا بداية هذا التقرير:

"كان يوم الاثنين الموافق 28 من شهر يناير سنة 1884م يوماً حزيناً ومؤملاً، لأنّ في هذا اليوم استقال العميد المتأهل وصاحب العلم السيد H. G. I. سيدنس من منصبه بسبب ...، وسافر إلى إنجلترا. وبجهداته الخالصة ونشاطاته الحميدة تطوّرت مدرسة العلوم بسرعة كبيرة، وفي الحقيقة فإنّ من سوء حظ الكلية أنّ مثل هذا العميد المؤهل وعديم النظر يترك الكلية في وقت تطورها. ومن الواضح أنه قام بأداء واجباته المنصوبة بحماس لمدة تسع سنوات، وأنه كان سبباً لسمعة المدرسة الطيبة، ودرّس اللغة الإنجليزية لطلاب جميع فصول الكلية لفترة طويلة".³

والجدير بالذكر أنه في هذا الاجتماع التوديعي ألقي خطاب لتكريم السيد سيدنس بأربع لغات (إنجليزية وعربية وفارسية وسنسكريتية) من جانب موظفي الكلية، وقام بإلقائه من أساتذته A. A. I. نسبت، الشيخ عباس حسين، الشيخ محمد إسحاق وبابو اسوتوش في هذه اللغات عل التوالي، وأيضاً ألقى العميد خطاباً رائعاً في الرد عليهم جميعاً.⁴ ومتون جميع هذه الخطابات مع ترجمتها باللغة الأردية غير أنّ الخطاب باللغة السنسكريتية محفوظة في سجلات جريدة معهد علي كره (Aligarh Institute Gazette).⁵ ويبدو من

¹ المصدر نفسه، ص 1407-1408.

² المصدر نفسه، 5 من شهر فبراير سنة 1884م، ص 132.

³ المصدر نفسه

⁴ المصدر نفسه، ص 132-133.

⁵ المصدر نفسه، ص 133-139.

المناسب أن أنقل جزءاً من هذه الخطابات هنا كي يظهر به شغفه بتطوير الكلية، واهتمامه الكبير بتعليم الطلاب وتربيتهم، وكيف حظي بقبول كبير بين موظفي الكلية، لاحظوا كلماته:

"تبحث عن الكلمات الواسعة التي يمكن بها أن نقدر على التعبير عن أسفنا العميق لأننا نحن في هذا الوقت على وشك ترك ولينا القديم مع خطاب توديعي الذي تكرم علينا دائماً. ونأمل أن تبقى هذه العلاقة المخلصة الجميلة بيننا دائماً، ولا تنقطع في أي وقت..... وفي الحقيقة حدث هذا الأمر الطارئ (المرض) الذي فرق بيننا والكلية وبين العالم الشفوق والأديب، والولي الكبير. والرغبة والنشاط الذي كان عنده في تعليم طلاب مدرسة العلوم، وما قدمه لهم في نموهم العلمي والعقلي، بل في تحسينهم البدني والأخلاقي أثر على قلوبنا وترك أثراً بالغاً لا يُنسى أبداً".¹

والخطاب الذي ألقاه السيد سيدنس في جواب خطاباتهم مهم جداً، وجعل الاجتماع التوديعي والخطاب الذي ألقى فيه باعثاً للخير، وشكر في خطابه زملاءه وأساتذة الكلية على تعاونهم القيم الذين سهّلوا له أداء مسؤولياته، لاحظوا جزءاً من ترجمة خطابه:

"أيها الحضور الكريم! سمعت هذا الخطاب بإنصات.....والذي ألقاه بروفييسور الأدب الإنجليزي نيابة عنكم، وأفتخر بهذا التكريم والشرف، وسررت كثيراً بأن لديكم رأياً بديعاً عني قد ما تحققت به تطلعاتكم دائماً..... أعترف، وكنت معترفاً، وسأعترف بأنني كنت محظوظاً فقد كان جميع الأساتذة مؤهلين، وأن جميعهم يستحقون التقدير والثناء لما تحقّق من التطور بقدر ما يمكن لي أن أستحقّه. أيها السادة! أشكركم جميعاً في هذه المناسبة على ما ساعدتموني في أمري، وجعلتم عملي أسهل بكثير مما كان يمكن لي".²

¹ المصدر نفسه، ص 134.

² المصدر نفسه، ص 136.

وفي ذلك المساء عزم على سفره إلى وطنه، وكان هناك جم غفير في محطة السكة الحديدية لتوديعه بما في ذلك الطلاب والأساتذة ورجال العمل وأعضاء إدارة الكلية.¹ ويبدو من المناسب أن أختتم هذا المقال بشعر من قصيدة طالب مشهور من طلاب الكلية خوشي محمد ناظر، قدّمها في الاجتماع المنعقد في 19 من شهر ديسمبر سنة 1891م لإظهار الفرح والسرور على إتمام سبع سنوات لتأسيس النادي الاتحادي للسيد سيدنس:

صفحہ دیوار پر مرقوم ہے زندہ جاوید ہو مٹر سڈنس²

ملحقات:

ملحق رقم: 1 قصائد التهنئة ومنظومات التاريخ التي تتعلق بافتتاح مدرسة العلوم

إن افتتاح مدرسة العلوم، كما ذكر من قبل، كان يوماً تاريخياً ومناسبة فرح وسرور كبير للملة الإسلامية الهندية، وأعرب الناس فيه عن سعادتهم وسرورهم بطرق شتى، وقدّموا هدية التهنئة والتبريك للمؤسس المحترم. وكتب الكتّاب رسائل ومقالات، وقدّم المهتمون بالأشعار وقرضها قصائد تهنئة، بينما قدّم بعضهم منظومات التاريخ. ومن هذه القصائد التي تم تقديمها في الاجتماع الافتتاحي لمدرسة العلوم، والتي وصلت إلى السير سيد لاحقاً، قام بنشر جميعها مع ملاحظته، ومع شكر أصحاب القصائد ومنظومات التاريخ باهتمام كبير في جريدة معهد علي كره (Aligarh Institute Gazette) واحدة تلو الأخرى. وتعرض بعض قصائد التهاني والتبريكات، ومنظومات التاريخ المنتخبة نقلاً من الجريدة، ونشر السير سيد قصيدة التهنئة للشيخ الطاف حسين حالي مع هذا العنوان والملاحظة:

"من أشعار التهاني التي قرضها وأرسلها الشيخ الطاف حسين حالي بمناسبة

¹ المصدر نفسه، ص 133، وباتناغر، ص 75.

² ملحق جريدة معهد علي كره، 2/27، 5 من شهر يناير سنة 1892م، 26، وباتناغر، ص 104.

افتتاح هذه المدرسة، ونذكر هذه الأشعار أدناه التي لا تعني التهئة والسلام
فحسب، بل يظهر منها إعجاز لغته أيضًا.

(1) أشعار التهئة لافتتاح المدرسة

قرضا الشيخ الطاف حسين حالي

مژده كه وقف جهاں گنج سعادت ہے آج فتنہ ایام سے سب کو فراغت ہے آج
آج کی ایک گھڑی سارے برس کا ہے مول ملک کی مخدومہ کا روز ولادت ہے آج
پودا لگاؤ گے جو ہووے گا وہ بارور مینہ کی طرح ہر طرف بارش برکت ہے آج
ہو ویں گے جو کام آج پھولیں گے سدا سینوں میں خود بخود جوش مسرت ہے آج
دولت جاوید کی پڑتی ہے بنیاد یہاں قوم کی بے طالعی ہند سے رخصت ہے آج
مدرسہ علم و دیں کرتے ہیں قائم ثقات مزرعہ قوم پر بارش برکت ہے آج
رہو مبارک سدا ساعت مسعود یہ برسوں میں ہوتی وصول یاروں کی محنت ہے آج
قوم کے بدخواہ سب مل کر پڑھیں فاتحہ کبھت وادبار کی ملک سے رحلت ہے آج¹
(ب) منظومات التاريخ من قبل: شاه علي أحمد شيخ الزاوية الشاه أبو المعالي
الأنبیتوي:

وعلق علیہا السیرسید رحمہ اللہ کما یلی:

مدرسة العلوم

"إنه من دواعي السرور والانبساط عندما نرى أنَّ المسلمين تزيد مسرتهم وفرحتهم

¹ جريدة معهد علي كره، 10/ 22، 28 من شهر مايو سنة 1875م، ص 339.

يوماً بعد يوم بافتتاح مدرسة العلوم، وأن السيد الشاه علي أحمد شيخ الزاوية كتب منظومتي تاريخ التهنئة، وأرسلهما إلينا في مناسبة افتتاح مدرسة العلوم اللتين ننشرهما في الجرائد بغاية السرور، ونشكره من صميم القلب، ونحسب التهنئة من مثل السيد شيخ الزاوية فألاً لمدرسة العلوم، فأسأل الله عز وجل أن يجعل هذه المدرسة مثل ما هنا به في مقاله، آمين".

منظومة التاريخ لافتتاح المدرسة

اہل اسلام نے کیا خوب کیا ہے یہ عزم مدرسہ کیجیے طیار ہوتا اس کا اجر¹
بات یہ شہرہ آفاق ہے بانی اس کے ہیں بلند حوصلہ تعمیر بھی ہے عالی قدر
حائے دین ہے یہ مدرسہ اے صلّ علی کیوں نہ یہ مدرسہ ہو مدرسوں میں باعث فخر
سر بدخواہ کا ہو دور کہ چشم بد دور رونق دین ہو یہ مدرسہ یا رب تا حشر
1875م

قصیدۂ آخری

واہ کیا صلّ علی بازیب ہے یہ مدرسہ ایسا عالیشان کہ کلکتہ سے تا سندھ ہے
سر سے بسم اللہ کے مجھ کو ہاتف نے کہا مرحبا صلّ علی فخر المدارس ہند ہے²
1292ھ

(ج) منظومات التاريخ من جانب: منشي صفدر حسين، المشرف علی محکمۃ
الأحوال في غورخفور:

¹ ملحق جريدة معهد علي كره، 27/2، 5 من شهر يناير سنة 1892م، 26، وباتناغر، ص 104.

² جريدة معهد علي كره، 10/28، 9 من شهر يوليو سنة 1875م، ص 327.

ونشرها السيرسيد مع ملاحظته هذه:

"وصلتنا منظومات التاريخ في تهنئة افتتاح مدرسة العلوم من غورخفور، ومنظومات التاريخ هذه رائعة وبديعة وشيقة جداً، وتوجد فيها جودة المواضيع وبداعتها، وعلو تصورات المصنف مع وجود لطافتها للغاية في بعض الأحوال أيضاً، وهذه المنظومات من تصنيفات السيد المنشي صفدر حسين المشرف على محكمة الأحوال، في غورخفور، وفي الحقيقة أنه قدّم فيها الثناء بصور رائعة، فنشرها في الجرائد كما هي، ونشكر الله تعالى على أن المسلمين تزيد مسرتهم وفرحتهم يوماً بعد يوم بافتتاح مدرسة العلوم، وجعلوا يقدرونها، وهذه هي منظومات التاريخ كما يلي:"

مدرسة الإسلام على گره جاری شد بالله الأعلى
مصرع سالش گفتم ناظر چشمه فیض إلهی بادا
أيضاً

صد ماہ رحمت اندرین است این مدرسه نیست خانقاه است
گفتند بمن کہ سال اجراء سرچشمه رحمت إله است
أيضاً

بہر مسلمانان ہند مدرسه شد با تمکین
جاری وگفتم سالِ او چشمه آب حیات است این

قصيدة المنشي صفدر حسين غورخفوري

ہے مدرسہ علی گڑھ میں ایک ہوا مقرر جس کو کیا ہے جاری اسلامیوں نے مل کر
ہر علم و ہر زباں کی تعلیم ہوگی اس میں سب مدرسوں میں اچھی سب کالجوں سے بہتر
انگریزی عام ہوگی تعلیم میں مگر ہاں مذہب کی خاص ہوگی تعلیم اے برادر

تعلیم مذہب ہی ہے جان مدرسہ کی ورنہ اثر نہ ہوتا اس کا کسی کے دل پر
تعلیم دنیوی ہے بہر معاش دنیا تعلیم مذہب ہے بہر نجات محشر
گر یہ نہ تو بیچ اور وہ نہ ہو تو یہ کیا بے اس کے ہے وہ بدتر بے اس کے ہے یہ ابتر
ہے جسم مدرسہ کا انگریزی اور اس میں تعلیم مذہبی ہے بس جان کے برابر
عیسائی اور مسلمان ہیں مثل جسم و جاں ثابت کریں گے ہم ہاں اس بات کو مقرر
تھا شرع موسوی میں افراط حد سے زائد تھی شرع عیسوی میں تفریط حد سے بڑھ کر
شرع محمدی نے کی اعتدال اس میں افراط کو گھٹا کر، تفریط کو بڑھا کر
قالب ہیں وہ مذاہب شرع محمدی جاں اس کو ذرا سمجھنا اے واعظو سمجھ کر
پتلون و کوٹ ان کا ملبوس ظاہری ہے پر شرع احمدی کا جبہ ہے جاں کے اندر
توریت کا ہے عالم انجیل کا ہے ماہر شرع محمدی کا خاکہ ہے یہ مقرر
سرکار کی بھلائی اسلامیوں کی خاطر کیا کیا نہیں کیا ہے اس ڈھب سے مل ملا کر
اسلام کی ترقی اسلامیوں کی شوکت اس شخص کی بدولت ہم سب کو ہے میسر
تھا دشمنوں کا رولا اس پر بھی اس نے لیکن دکھلایا حب قومی یہ مدرسہ بنا کر
تاریخ بھی لکھی ہے وہ ہم نے جس سے حضرت ہر بات کو ہماری پڑتالے ملا کر
ظاہر میں عیسوی ہے باطن میں ہے وہ بھری اے سامعین سینے اللہ دل لگا کر

تھی فکر مجھ کو اک دن تاریخ مدرسہ کی بولا یہ ملہم غیب - اٹھارہ سے پچھتر¹

(د) أشعار التهئة العربية المرسلة من الشيخ محمد هاشم، حيدرآباد:

ونشرها السير سيد في جريدة معهد علي كره مع هذه الملاحظة التالية:

"فرح المؤمنون الطاهرون الناصحون للأمة المحمدية على صاحبها الصلاة والتسليم بسماع الخبر عن مدرسة العلوم بأنها على وشك الافتتاح، فأرسل الشيخ محمد هاشم من الأسرة العزيزة عدة أشعار عربية من حيدرآباد طالباً بأن تعلق على باب المدرسة يوم افتتاحها، وهذه الأشعار هي كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين

ونسعى	رفع علم	بعد عفو	كما يسعى	حيب في	حيب
ونطمع	لمع شمس	بعد شمس	ولو كسفت	شموس	بالغروب
أزاح	الله عنا	ظلم جهل	وأرغم	خائباً	وجه الرقيب
عطانا	الله إراثاً	فضل علم	فلا يرث	التجيب	سوى التجيب
ويحرم	كل فضل	أهل حقد	لئيم	الطلع	من ذول النصيب
وليس	يفيد أهل	الحقد حقد	سوى شوم	وحرمان	النصيب
وقد	جبلت جراً	جوناً لطيفاً	عن الأضغان	والحسد	الكسب
وذلك	قد ورثنا	من كرام	ضناً	ضئناً	بعيد أو قريب
وأنفسنا	كرام	زاكيات	وأسننا	كصمصام	قشيب
وعزة	مسلمين	بداد هند	أعيد	بجاه	أحمد عن نضوب

¹ جريدة معهد علي كره، 32/10، 6 من شهر أغسطس سنة 1875م، ص 491.

جواد الدوله الجواد خيراً كسكب الجواد هزاً للجدوب
ويسراً يمينه عمراً طويلاً ويسرنا به دفع الخطوب¹
ملحق رقم: 2 قائمة بأعضاء اللجنة الإدارية والتعليمية الأوائل لمدرسة العلوم في علي كره

تم تشكيل لجنتين أساسيتين (لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند، ولجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين) قبل إنشاء مدرسة العلوم لتوجيه الناس وتوعيتهم، في عام 1870م، و1872م بالترتيب، مع الموافقة على أن يكون المكتب الرئيسي لهما في مدينة بنارس. واللجنة الثانية قد لعبت دوراً هاماً في جمع الدعم المالي من الناس لتأسيس المدرسة. وهذه اللجنة شكّلت ثلاث لجان فرعية للإشراف على شؤون المدرسة التعليمية والإدارية:

1. لجنة إدارة المدرسة.
 2. لجنة مدبري تعليم السنة المختلفة والعلوم العصرية.
 3. لجنة التعليم الديني.
- وأرى من المناسب أن أبين لكم بعض التفاصيل عن قواعد وأنظمة تلك اللجان قبل ذكر القائمة بأعضائها.

وضعت قواعد وأنظمة اللجان المذكورة أعلاه مع تحديد نطاق عملها، وتم تحديد إطار عملها في اجتماع لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين (المنعقد في 5 من شهر أغسطس سنة 1873م) خصوصاً، وتم تحديد الكثير من تفاصيلها في وقت لاحق التي أعلن عنها في أعداد جريدة معهد علي كره (Aligarh Institute Gazette) المختلفة (وبالخصوص لعددي 30 من شهر أبريل، و7 من شهر مايو سنة

¹ تهذيب الأخلاق، 6/6، 15 من شهر ربيع الأول سنة 1292هـ، ص 58.

1875م). ومن أهم قواعدها وأنظمتها تذكر فيما يلي:

* لجنة خزانة البضاعة: "لجنة خزانة البضاعة لجنة لجمع الأموال لهذه المدرسة، وستنشأ لجان أخرى لتنظيم التعليم وتنسيقه، ولكن لجنة خزانة البضاعة تشرف على كل من جمع الأموال وحفظها، وشراء الأراضي ودفع مصاريف إيراداتها للمدرسة، وصرف الأموال فيما أعطيت له وتشديد المباني ومتابعة كل أمر.

(وكان الدور الرئيسي للجنة خزانة البضاعة في تشكيل اللجان التي أنشئت لتنظيم مدرسة العلوم، وتنفيذ أنظمة تعليمها وتربيتها، ووضع قواعدها وأنظمتها، واختيار الأعضاء الأوائل، كما يتضح من تقارير جلساتها، وتدرج قواعد ومبادئ اللجان المذكورة أعلاه من هذه التقارير فيما يلي):

1. لجنة إدارة المدرسة: ويكون تعيين مبدئي لهذه اللجنة من جانب لجنة خزانة البضاعة، وتسمى بـ "لجنة إدارة المدرسة"، ثم بعد التعيين الابتدائي يكون لدى أعضاء اللجنة خيار أن يعينوا عضواً للجنة ممن يشاؤون بغالبية الآراء، وتعلق بهذه اللجنة المهام التالية:

(أ) إعداد ميزانية الإيرادات والمصروفات، وإرسالها إلى لجنة خزانة البضاعة للموافقة عليها، وتقديم حساب مصروفات الشهر الماضي أمام اللجنة في بداية كل شهر للموافقة عليها.

(ب) توزيع المبلغ الموصول من لجنة خزانة البضاعة لتغطية النفقات بواسطة الأمين، وإحالة إيصالاتها إلى لجنة خزانة البضاعة، والحصول على موافقة اللجنة للمصروفات الطارئة، ودفع المبالغ الموصولة من رسوم الطلاب، أو من الوسائل الأخرى المتعلقة بالمدرسة إلى لجنة خزانة البضاعة.

(ج) طرح الاقتراح لاستلام الرسوم والتكاليف الأخرى من الطلاب في كل فصل

(مرة واحدة أو شهرياً).

(د) إرسال الاقتراحات لتعيين الموظفين والمستخدمين، أو تقريرهم عن إعفاء أحد منهم إلى لجنة خزانة البضاعة، واقتراح المبادئ والأصول لإجازاتهم.

(هـ) اقتراح المبادئ والأصول لإقامة الطلاب في السكن، والاهتمام براحتهم.

(و) الموافقة على قبول الطلاب في المدرسة (هناك خيار القبول لرئيس المدرسين حتى الحصول على الموافقة)، وفصل الطلاب الأشرار والمسيئين على تقرير رئيس المدرسين.

(ز) هناك خيار لدى لجنة إدارة المدرسة لتعيين الموظفين في السكن أو إعفائهم.

(ح) تحديد أيام الدراسة والإجازة في المدرسة، وتعيين أوقات دوامها، والإشراف على التعليم طبقاً لنظام التعليم المحدد.

(ط) شراء الأشياء الضرورية والبضائع اللازمة، والاهتمام بحفظها، والعناية بالنظافة والطهارة في السكن.

(ي) الإشراف على الأمور العامة للسكن.

* لجان التعليم:

لجنة خزانة البضاعة ليس لها أي دخل في تعليم المدرسة، بل تنشأ اللجان المختلفة له حسب التفاصيل التالية:

الأولى: لجنة التعليم للعلوم العصرية واللغات المختلفة التي ستدرس في مدرسة العلوم، وتسمى بـ "لجنة مدبري تعليم السنة المختلفة والعلوم العصرية".

2. لجنة مدبري تعليم السنة المختلفة والعلوم العصرية:

أ - ويكون تعيين مبدئي لهذه اللجنة من جانب لجنة خزانة البضاعة، ثم يعين أعضاء اللجنة بأنفسهم عضواً جديداً على مكان عضو آخر إذا كان شاغراً.

ب - يمكن أن يكون عضواً في هذه اللجنة من المسلمين والنصارى واليهود والبانديت.

ج - يكون تعليم العلوم والسنة المختلفة تحت إشراف هذه اللجنة، والاهتمام بتعليم العلوم العصرية تحت إشرافها كذلك.

د - تتولى هذه اللجنة المسؤولية عن الأمور التالية:

1 - تعيين كتب المقررات الدراسية لكل صف.

2 - اقتراح قواعد وأنظمة الاختبار.

3 - تعيين الممتحنين للاختبارات نصف السنة والسنوية.

4 - كتابة رأي بشأن كل تقرير من تقارير الاختبار التي قدمها أمين اللجنة.

5 - تحديد مراتب الطلاب الناجحين، وتعيين المكافآت لهم، وإعطائهم الشهادات بتوقيع الأمين والرئيس أو نائبه.

3. لجنة التعليم الديني:

ويكون لها فرعان:

(1) لجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة.

(2) لجنة مدبري تعليم مذهب الشيعة الاثنا عشرية.

ولا يمكن لأحد أن يكون عضواً لهذه اللجان إلا من أتباع المذهب الذين لأجلهم تشكلت هذه اللجنة.

[ووافقت لجنة خزانة البضاعة في جلستها (المنعقدة في 11 من شهر يناير سنة

1875م) على المبادئ والأصول الآتية التي تتعلق بلجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة]:

(أ) هناك خيار لدى أعضاء اللجنة الحاليين من حين لآخر أن يختاروا عضواً ممن يشاؤون في لجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة.

(ب) يحق للجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة تعيين سلسلة التعليم الإسلامي تماماً، كما لهذه اللجنة سيادة في تعيين مدرسين للتعليم الإسلامي.

(ج) تكون إجراءات لجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة بغالبية آراء الأعضاء¹.

(أ) أعضاء لجنة إدارة مدرسة العلوم:

وتدرج تفاصيلهم في تقرير جلسة لجنة خزانة البضاعة (المنعقدة في 15 من شهر مايو سنة 1875م) على النحو التالي:

تم تعيين السادة كأعضاء لجنة إدارة المدرسة باتفاق جميع الأعضاء حسب التفاصيل الآتية:

م	الاسم	المنصب
1	الشيخ محمد كريم بهادر نائب جاب	الرئيس
2	سيد أحمد خان بهادر C. S. I. قاضي المحكمة الجزئية، بنارس	نائب الرئيس

¹ تقرير اجتماع أعضاء لجنة الصندوق المالي لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين، المنعقد في 5 من شهر أغسطس سنة 1873م، تهذيب الأخلاق، 9/5، 15 من شهر رجب سنة 1291هـ، ص 118-119، وجريدة معهد علي كره، 18/10، 30 من شهر أبريل سنة 1875م، ص 269-270، 19، 7 من شهر مايو سنة 1875م، ص 287-288، ملحق جريدة معهد علي كره، 28 من شهر مايو سنة 1875م، ص 2.

3	الشيخ محمد سميع الله خان بهادر القاضي المساعد، علي كره	الأمين
4	محمد عبد الشكور خان رئيس بيكم فور	عضواً
5	محمد عنایت الله خان رئيس بيكم فور	عضواً
6	محمد لطف علي خان رئيس جتاري	عضواً
7	محمد مسعود علي خان رئيس دان فور	عضواً
8	راجہ السيد باقر علي خان رئيس بنداول	عضواً
9	السيد محمد محمود سكوير بارسترايت لا	عضواً
10	الشيخ محمد اسماعيل رئيس أترولي	عضواً
11	المنشي محمد ذكاء الله البروفيسور في كلية ميور	عضواً
12	السيد محمد فضل حق رئيس أترولي	عضواً
13	الشيخ خواجه محمد يوسف رئيس علي كره	عضواً
14	القاضي محمد لطافت حسين	عضواً
15	محمد نور خان رئيس علي كره	عضواً
16	الحكيم السيد محمد جواد	عضواً
17	المنشي الشاه محمد مسعود خان	عضواً

(ب) أعضاء لجنة مديري تعليم السنة المختلفة والعلوم العصرية:

م	الاسم	المنصب
1	سعادة سروليوم ميور بهادر K. C. S. I. وزير المالية وعضو المجلس	الرئيس الفخري
2	كے ديتن بهادر عميد كلية آغرة الحكومية	الرئيس
3	سيد أحمد خان بهادر C. S. I. القاضي بالمحكمة	نائب الرئيس

	الجزئية، بنارس	
الأمين	4 الشيخ محمد سميع الله خان بهادر القاضي المساعد، علي كره	
الأعضاء بالمنصب	5 H. G. I. سيدنس رئيس المدرسين لمدرسة العلوم	
	6 الشيخ محمد أكبر مدرس اللغة العربية من أهل السنة والجماعة رقم: 1	
	7 الشيخ جعفر علي مدرس اللغة العربية من الشيعة الإمامية رقم: 1	
الأعضاء	8 D. L. C. S. W. H. اسمت	
	9 جان اليت بهادر M. A.، البروفيسور في كلية مايور سنترال إله باد	
	10 نير رخشان نواب ضياء الدين أحمد خان بهادر	
	11 الشيخ محمد عنایت رسول جريا كوت	
	12 المنشي محمد ذكاء الله البروفيسور في كلية ميور (إله باد)	
	13 سيد محمد محمود سكوير باريسترايت لا	
	14 الشيخ محمد عبيد الله العبيدي المراقب	
	15 الشيخ محمد حسين البروفيسور في قسم اللغة العربية بكلية لاهور الحكومية	
	16 الشيخ خواجه محمد يوسف رئيس علي كره	
	17 الشيخ السيد مهدي علي مسؤول في نظام الحكومة حيدر آباد ¹	

¹ تقرير اجتماع أعضاء لجنة الصندوق المالي، المنعقد في 15 من شهر مايو سنة 1875م، وجريدة معهد علي كره، 21/10، 21 من شهر مايو سنة 1875م، ص 321.

(ج) أعضاء لجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة:

م	الاسم
1	محمد عنايت الله خان رئيس بيكم فور
2	محمد عبد الشكور خان رئيس بيكم فور
3	محمد مسعود علي خان رئيس دان فور
4	الشيخ محمد إسماعيل رئيس علي كره
5	السيد فضل حق رئيس مديرية علي كره
6	محمد إسماعيل خان رئيس دتاؤلي
7	الشيخ محمد سميع الله خان بهادر القاضي المساعد، علي كره
8	النواب محمد محمود علي خان رئيس جتاري
9	الحاج محمد فيض أحمد خان رئيس دتاؤلي
10	محمد إرشاد علي خان
11	الشيخ محمد لطف الله
12	الشيخ عبد القيوم القاضي المساعد، آغره
13	الشيخ محمد علي، جاب، بلاري، مرادآباد.

"هم سبعة سادات [الذين كتبت أسماؤهم أولاً] يعتبرون من الأعضاء المستقلين من جميع أعضاء لجنة مدبري تعليم مذهب أهل السنة والجماعة، والذين [قائمة بالأسماء من المذكورين أعلاه غير السبعة الأوائل] لم يكونوا موجودين في هذا الوقت، ويرفضون المشاركة فيكون هؤلاء الأعضاء السبعة خيار في تعيين العضو الذي يريدونه".¹

(د) أعضاء لجنة مدبري تعليم مذهب الشيعة الاثنا عشرية.

¹ تقرير اجتماع لجنة الصندوق المالي، المنعقد في 11 من شهر يناير سنة 1875م، وجريدة معهد علي كره، 4/10، 22 من شهر مايو 1875م، ص 57.

م	الاسم	المنصب
1	المنشي جراغ علي	العضو والأمين
2	السيد خليفة السيد محمد حسن خان بهادر	الأعضاء
3	المنشي سبحان حيدر	
4	راجہ السيد باقر علي خان	
5	مير السيد تراب علي	
6	مرزا عابد علي بيغ	
7	السيد علي حسن	
8	النواب السيد ولايت علي خان	
9	الحاج النواب نواز علي خان	
10	الشيخ السيد حسن رضا ¹	

ملحق رقم: 3 فهرس المؤلفات عن السير سيد، ومدرسة العلوم (M. A. O. College)، وأصدقاء السير سيد، وأساتذة الكلية.

(حسب ترتيب سنة الطباعة)

الكتب:

1. سر سيد و ايم - اے - او کالج اور ديني ومشرقى علوم (السير سيد والكلية المحمدية والعلوم الإسلامية والعلوم الشرقية)، إسلامک بک فاؤنڈیشن، نیو دہلي، 2001م.
2. مطالعات سر سيد (دراسات السير سيد) (حول القضايا التعليمية والاجتماعية والمسائل الفقهية) إداره علوم إسلاميه، علي گڑھ مسلم يونيورسٹی، (إدارة

¹ كتيب تقرير اجتماع أعضاء لجنة الصندوق المالي، المنعقد في 25 من شهر فبراير سنة 1875م.

العلوم الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، 2008م.

المقالات:

م	عناوين	مكان النشر	تفاصيل النشر
1	تهيوڊرو ماريسن (تيورود ماريسون)	مجلة "فكر ونظر" (علي كره) (عمود: المبرزون في جامعة علي كره/ الطبقة الأولى)	22 / 1 - 3، يناير - سبتمبر 1985م، ص: 271 - 282
2	مستر سڊنس (السيد سيدنس)	مجلة "فكر ونظر" (علي كره) (عمود: المبرزون في جامعة علي كره/ الطبقة الثانية)	23 / 1 - 4، يناير - ديسمبر 1986م، ص: 251 - 256
3	نواب محمد إسماعيل خان	مجلة "فكر ونظر" (علي كره) (عمود: المبرزون في جامعة علي كره/ الطبقة الثانية)	23 / 1 - 4، يناير - ديسمبر 1986م، ص: 703 - 718
4	مولانا احسن مارهروي (الشيخ أحسن المارهروي)	مجلة "فكر ونظر" (علي كره) (عمود: المبرزون في جامعة علي كره/ الطبقة الثالثة، ج 1)	ج 24، يناير 1987 - يوليو 1988م، ص: 295 - 308
5	جوزف هارويز	مجلة "فكر ونظر" (علي كره) (عمود: المبرزون في جامعة علي كره/ الطبقة الثالثة، ج 2)	مارس 1991م، ص: 31 - 42

6	سر سيد كا تصور تعليم (التعليم عند السير سيد)	مجلة "فكر ونظر" (عدد خاص بالسير سيد)	ج 29، أكتوبر 1992م، ص: 79 - 94
7	سر سيد احمد خان اور قديم وجدید تعليم كا امتزاج (السير سيد أحمد خان وامتزاج التعليم القديم والجديد)	مجلة "تهذيب الأخلاق"	14 / 10، أكتوبر 1995م، ص: 33 - 43
8	سر سيد احمد خان اور علوم شرقیه (السير سيد أحمد خان والعلوم الشرقية)	محتوى "أفكار السیر سيد الإسلامية والتعليمية والسياسية- دراسة نقدية" (مقالات المؤتمر، ترتيب: البروفيسور شان محمد) السير سيد أكاديمية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، سنة 1995م، ص: 70-89	
9	عصري تعليم کے اداروں میں مذہبی تعليم- سر سيد كا نقطۂ نظر (التعليم الديني في مؤسسات العلوم العصرية- من وجهة نظر السير سيد)	مجلة "تهذيب الأخلاق"	15 / 10، أكتوبر 1996م، ص: 74 - 83
10	سر سيد اور ديني	مجلة "تهذيب الأخلاق"	16 / 10، أكتوبر

مدارس کی اصلاح (السیر سید وإصلاح المدارس الإسلامية)		1997م، ص: 19 - 27
M. A. O. College اور معاصر دینی مدارس (الكلية المحمدية والعلوم الشرقية، والمدارس الإسلامية المعاصرة)	11	17 / 3 - 4، مارس - أبريل 1998م، ص: 138 - 154
سر سید کے تصور تعلیم میں تربیت کا مقام (مكانة التربية في التعليم عند السیر سید)	12	17 / 10، أكتوبر 1998م، ص: 19 - 25
ایم - اے - او کالج میں درس قرآن عهد سر سید کے حوالہ سے (تعلیم القرآن الکریم في الكلية المحمدية والعلوم الشرقية في زمن السیر سید)	13	18 / 10، أكتوبر 1999م، ص: 50 - 57

14	مولانا أشرف علي تهانوی اور سرسید و ایم - اے - او کالج (الشیخ أشرف علي التهانوي وموقفه من السير سيد، والكلية المحمدية والعلوم الشرقية)	مجلة "تهذيب الأخلاق" 19 / 10، أكتوبر 2000م، ص: 77 - 89
15	ایم - اے - او کالج میں مولانا أشرف علي تهانوی کی یاد گار تقریر (خطاب تذكاري للشيخ أشرف علي التهانوي في الكلية المحمدية والعلوم الشرقية)	20 / 6، يونيو 2001م، ص: 22 - 28
16	مولانا فیض الحسن سہارنفوی اور سرسید (الشیخ فیض الحسن السہارنفوري وموقفه من السير سيد)	20 / 10، أكتوبر 2001م، ص: 45 - 54

17	سر سید کا تصور تعلیم و تربیت (تصور التعلیم والتربیة عند السیر سید)	محتوی: "سر سید اور علوم اسلامیہ" (مجلة علوم اسلامیہ کا خصوصی شمارہ) (السیر سید والعلوم الإسلامية، العدد الخاص لمجلة "العلوم الإسلامية) ترتيب: البروفیسور محمد یاسین مظهر الصدیقی)، إدارة العلوم الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، 2001م، ص: 154 - 173
18	سر سید کے فقہی افکار (أفكار السیر سید الفقهية)	مجلة "تهذيب الأخلاق" 20 / 10، أكتوبر 2002م، ص: 5 - 19
19	سر سید اور اجتہاد (السیر سید وموقفه من الاجتهاد)	مجلة "اردو دنیا"، نیو دہلی 4 / 11، نوفمبر 2002م، ص: 17 - 18
20	ایم - اے - او کالج میں ہوسٹل لائف کی اہمیت (أهمية حياة السكن كما يرى السیر سید في الكلية المحمدية والعلوم الشرقية) (M. A. O. College)	مجلة "تهذيب الأخلاق" 22 / 10، أكتوبر 2003م، ص: 23 - 29
21	سر سید اور اسلامی شریعت کا تحفظ	مجلة "الرشاد"، أعظم كره 46 / 271 - 272، نوفمبر - ديسمبر

21	2003م، ص: 14 -	(السير سيد وموقفه من المحافظة على الشريعة الإسلامية)	
22	23 / 10، أكتوبر 2004م، ص: 25 - 38	سر سيد اور اسلامي انجمنين (السير سيد والجمعيات الإسلامية)	مجلة "تهذيب الأخلاق"
23	24 / 10، أكتوبر 2005م، ص: 55 - 63	"كلمة الحق" سر سيد كي ايک قيمتي تحرير ("كلمة الحق" مقال قيم للسير سيد)	مجلة "تهذيب الأخلاق"
24	26 / 1 - 2، 2007م، ص: 63 - 80	سر سيد، مسلم ايجو كيشنل كانفرنس اور تعليم نسوان (السير سيد، وموقفه من المؤتمر التعليمي الإسلامي، وتعليم النساء)	مجلة "علوم إسلامية" (على كره) (مجلة "العلوم الإسلامية"، علي كره)
25	7 / 12، ديسمبر 2007م، ص: 28 - 31	سر سيد اور تعليم نسوان (السير سيد وموقفه من تعليم النساء)	مجلة "طوبى"، نيو دلهي
26	27 / 10، أكتوبر	سر سيد اور عورتون	مجلة "تهذيب الأخلاق"

2008م، ص: 19 - 31		کی فلاح و بہود کے مسائل (السرسید وموقفه من قضايا المرأة الخيرية والتطويرية)	
2009م، ص: 34 - 43	مجلة "تهذيب الأخلاق"	سرسید اور بچوں کی فلاح و بہود کے مسائل (السرسید وموقفه من قضايا الأطفال الخيرية والتطويرية)	27
ج 31 - 33، العدد 1 - 2، 2012م - 2014م، ص: 87 - 120	مجلة "العلوم الإسلامية" عدد خاص بالعلامة شبلي	علامه شبلي کے ايام علی گڑھ (ایام العلامة شبلي في علي کره)	28
194/ 5 - 6، نوفمبر - ديسمبر 2014م، ص: 140 - 128	مجلة "معارف" (العدد الخاص بالعلامة شبلي)	علامه شبلي کے ايام علی گڑھ کی اولین تصنیف - "مسلمانوں کی گذشتہ تعلیم" اول مؤلفات العلامة شبلي زمن قيامه بعلي کره "تعليم المسلمين الماضي"	29

30	ایم - اے - او کالج کے سب سے ممتاز استاد علامہ شبلی اور سب سے نامور طالب علم مولانا محمد علی جوهر (أبرز أستاذ في الكلية المحمدية والعلوم الشرقية M. A. O. College) العلامة شبلي، وأشهر طالب فيها الشيخ محمد علي جوهر)	مجلة "الدراسات العربية والفارسية"، جامعة إله آباد	1 / 1، يناير 2015م، ص: 163 - 184
31	علامہ شبلی اور تہذیب الاخلاق (العلامة شبلي ومجلة "تہذیب الأخلاق")	مجلة "تہذیب الأخلاق"	34 / 6، يونيو 2015م، ص: 38 - 43
32	ایم - اے - او کالج میں طلبہ کے لئے قرآن پاک کی تعلیم کہ اہتمام- عہد و سرسید میں (الاهتمام بتعليم	مجلة "تہذیب الأخلاق"	34 / 9، سبتمبر 2015م، ص: 65 - 68

		القرآن الكريم للطلاب في M. A. في O. College عصر السرسيد	
33	عصرى اور دينى تعليم كا امتزاج- سرسيد تحريك كا ايك اهم حصه (امتزاج التعليم العصرى والتعليم الإسلامي- من أهم أجزاء حركة السير سيد)	مجلة "تهذيب الأخلاق"	34 / 10، أكتوبر 2015م، ص: 43 - 49
34	علامه شبلى كا درس قرآن اور مولانا محمد علي جوهر (دروس القرآن الكريم للعلامة شبلى، والشيخ محمد علي جوهر)	مجلة "الدين"، علي كره	2015م - 2016م، ص: 71 - 73
35	مولوي محمد كريم- سرسيد كے ايک قريبى رفيق (الشيخ)	مجلة "تهذيب الأخلاق"	35 / 10، أكتوبر 2016م، ص: 76 - 86

		محمد كريم من أقرب أصدقاء السير سيد	
36	مدرسة العلوم علي گریم کا افتتاحی اجلاس اور سرسید احمد خان کی تقریر دل پذیر (الاجتماع الافتتاحی لمدرسة العلوم في علي كره وخطاب السير سيد أحمد خان الساحر)	مجلة "تهذيب الأخلاق" العدد الخاص بمناسبة الاحتفال بمئتي سنة لميلاد السير سيد	36 / 10، أكتوبر 2017م، ص: 49 - 61
37	مدرسة العلوم کے لئے مقام کے انتخاب کے بارے میں سرسید کی رائے طلبی اور نواب وقار الملک کا اظہار خیال (استشارة السير سيد في مسألة اختيار الموقع لتأسيس مدرسة العلوم واظهار النواب وقار	مجلة "فكر نو"، علي كره	37 / 1، أكتوبر 2017م، ص: 32 - 36

	الملك عن رأيه)	
38	مدرسة العلوم علي گرثم کا افتتاحی اجلاس اور اس کی اہمیت وعظمت (الاجتماع الافتتاحي لمدرسة العلوم في علي كره- أهميته وعظمته)	جريدة المؤتمر (علي كره) 16 / 10، أكتوبر 2017م، ص: 30 - 34
39	مدرسة العلوم کے قیام کے لئے علی گرثم کا انتخاب اور اس کے وجوہ- سر سید کی تحریروں کے حوالے سے (اختیار مدینة علي كره لتأسيس مدرسة العلوم، وأسبابه من خلال كتابات السير سيد)	مجلة "تهذيب الأخلاق" 36 / 12، ديسمبر 2017م، ص: 43 - 52

المصادر والمراجع

الكتب والرسائل:

1. أختار الواسع، سرسید کی تعلیمی تحریک (حركة السير سيد التعليمية)، آل انڈیا مسلم ایجوکیشنل کانفرنس کا اجمالی مطالعہ (دراسة موجزة للمؤتمر الإسلامي التعليمي لعموم الهند)، مكتبة جامعة، نیو دہی، 1995م.
2. أصغر عباس (جمع)، سرسید کی تعزیتی تحریریں (کتابات السیرسید التعزیویة)، ایجوکیشنل بک ہاؤس، علی کرہ، 1989م.
3. أصغر عباس (جمع)، سرسید کی سائنٹفک سوسائٹی (مؤسسة السیر سید العلمیة)، ایجوکیشنل بک ہاؤس، علی کرہ، 2014م.
4. أصغر عباس (جمع)، مسافران لندن (مسافرو لندن) (رحلة الشيخ سميع الله خان العضو الأهم لحركة السير سيد)، ایجوکیشنل بک ہاؤس، علی کرہ، 2012م.
5. افتخار عالم، سرسید اور فن تعمیر (السیر سید والهندسة المعمارية)، سرسید اکیڈمی، جامعة علی کرہ الإسلامية، 2001م.
6. أطفاف حسین الحالی، حیات جاوید، (ترجمة السیر سید) قومی کونسل برائے فروغ اردو زبان (المجلس الوطني لترويج اللغة الأردية)، نیو دہی، 1999م.
7. أنوار أحمد (جمع)، مرقع کانفرنس (مرقع المؤتمر)، علی کرہ، 1935م.
8. ثریا حسین، سرسید احمد خان اور ان کا عہد (السیر سید أحمد خان وعصره)، ایجوکیشنل بک ہاؤس، علی کرہ، 2015م.
9. خلیق أحمد النظامی، سرسید اور علی گڑھ تحریک (السیر سید وحرکة علی کرہ)، ایجوکیشنل بک ہاؤس، علی کرہ، 1982م.

10. راس مسعود (جمع): خطوط سرسید (رسائل السير سيد)، نظامي پريس (المطبعة النظامية)، بدايون، 1931م.
11. ساجد نعيم، محمدن اینگلو اورینٹل کالج فنڈ کمیٹی اور اس کے ممبران (لجنة صندوق كلية محمد الإنغلو الشرقي Mohammadan Anglo Oriental College) وأعضائها)، سیرسید اکیڈمی، جامعة علي كره الإسلامية، 2014م.
12. السیرسید أحمد خان، تنزل علوم دینیہ (انخطاط العلوم الإسلامية)، اردو بازار، اسٹیم پریس (مطبعة استیم)، امرتسر، 1910م.
13. السيد سليمان الندوي، حیات شبلي (ترجمة العلامة شبلي)، دار المصنفين، شبلي اکیڈمی، 2008م.
14. السيد سليمان الندوي (جمع)، مکاتیب شبلي (رسائل شبلي)، دار المصنفين، شبلي اکیڈمی، أعظم كره، 1971م.
15. السيد طفيل أحمد المنغلوري، مسلمانوں کا روشن مستقبل (المستقبل المشرق للمسلمين)، المطبعة العلمية، دلهي، 1954.
16. ظفر الإسلام الإصلاحي، سرسید و ایم - اے - او کالج اور دینی و مشرقی علوم (السرسید والکلیة المحمدية للتعليم الشرقي، والعلوم الإسلامية والشرقية، إسلامک بک فاؤنڈیشن، نیو دلهي، 2001م.
17. ظفر الإسلام الإصلاحي، مطالعات سرسید (دراسات السير سيد)، إدارة العلوم الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، 2008م.
18. محمد إسحاق جلیس الندوي، تاریخ ندوة العلماء (ج1)، دفتر نظامت ندوة العلماء، لکناؤ، 1983م.
19. محمد إسماعيل الباني بتي (جمع)، خطبات سرسید (خطبات السیرسید ج2)، مجلس ترقی أدب، لاهور، (بدون تاریخ).
20. محمد إسماعيل الباني بتي (جمع)، مقالات سرسید (مقالات السیرسید)،

- [ج7] مجلس ترقى أدب، لاهور، 1991م.
21. محمد إسماعيل الباني بتي (جمع)، مقالات سرسيد (مقالات السيرسيد)، [ج12] مجلس ترقى أدب، لاهور، 1963م.
22. محمد إسماعيل الباني بتي (جمع)، مكتوبات سرسيد (رسائل السيرسيد)، مجلس ترقى أدب، لاهور، 1959م.
23. محمد إلياس الأعظمي (جمع)، مكتوبات شبلي (رسائل شبلي)، أدبي دائره (الدائرة الأدبية)، أعظم كره، 2012م.
24. محمد إمام الدين الغجراتي (جمع)، مكمل مجموعته لكچرز واسپيچيز سرسيد احمد خان (المجموعة الكاملة لمحاضرات السير سيد أحمد خان وخطاباته) 1863-1888م، سرسيد اكيڈمي، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، 2010م.
25. محمد أمين الزيري، حيات محسن (حياة محسن)، جامعة علي كره الإسلامية، 1924م.
26. محمد حبيب الرحمن خان الشرواني، مقالات شرواني (مقالات الشرواني)، شرواني پرنٹنگ (مطبعة الشرواني)، علي كره، 1946م.
27. محمد سراج الدين (جمع)، لكچروں كا مجموعہ (مجموعة المحاضرات)، لاهور، 1890م.
28. محمد عبد الغفور، "شجرة شاداب" (شجرة شاداب)، مطبع مفيد عام (مطبعة المفيد العام)، أغره. (بدون التاريخ).
29. محمد عبد الغفور، مصباح الكلام في طريق الإسلام، نامي پريس (مطبعة نامي)، كانفور 1906م.
30. محمد عبد الغفور الصديقي، حائق البيان في معارف القرآن، حكيم إبراهيم پريس (مطبعة الحكيم إبراهيم)، غورخفور، 1909م.
31. محمد عبد الله، مشاهدات وتأثرات (المشاهدات والانطباعات)، علي كره، 1969م.

32. مشتاق حسین (جمع)، مکاتیب سرسید احمد خان (رسائل السیرسید أحمد خان)، فریندس بک ہاؤس، علی کرہ، 1960م.
33. مصطفیٰ حسین منظر الجلیسری، مرقع تاریخ علی گڑھ مسلم یونیورسٹی، (مرقع جامعة علي كره الإسلامية)، یونین بک ڈپو، مسلم یونیورسٹی مارکیٹ (سوق جامعة علي كره الإسلامية)، علی کرہ، 1983م.
34. نسیم أحمد القریشی (جمع)، علی گڑھ تحریک آغاز تا امروز (حركة علي كره، من البداية إلى امروز)، علی کرہ، 1960م.
35. وقار حیات، (تحت إشراف: محمد مقتدی خان الشیروانی)، مطبعة جامعة علي كره الإسلامية، علی کرہ، 1925م.

المقالات:

1. سرسید احمد خان، مذهب اور عام تعلیم (السیر سید أحمد خان، الدين والتعليم العام)، تہذیب الأخلاق، 2/1، 15 شوال 1287ھ.
2. سرسید احمد خان، "تعلیم مذهبی" (السیر سید أحمد خان، التعليم الديني)، تہذیب الأخلاق، 20/2، 1 من شهر ذي الحجة، 1288ھ.
3. سرسید احمد خان، مدرسة العلوم مسلمانان، (السیر سید أحمد خان، ومدرسة العلوم للمسلمين)، تہذیب الأخلاق، 13/3، 1 من شهر رجب، 1289ھ.
4. ظفر الإسلام الإصلاحي، سرسید اور جدید و قدیم تعلیم کا امتزاج (السیر سید وامتزاج التعليم الجديد والقديم)، تہذیب الأخلاق، 10/14، اکتوبر 1995م.
5. ظفر الإسلام الإصلاحي، عصری اور دینی تعلیم کا امتزاج- سرسید تحریک کا ایک اہم حصہ (امتزاج التعليم العصري والتعليم الإسلامي- من أهم أجزاء حركة السیر سید)، تہذیب الأخلاق، 10/34، اکتوبر 2015م.
6. نور الحسن راشد الکاندھلوی "الشیخ عبد الله الأمیهوی" سہ ماہی "فکر ونظر"، (مجلة "الفکر والنظر الفصلية") عمود: المبرزون في جامعة علي كره (الطبقة الثانية) جامعة علي كره الإسلامية، علی کرہ، 1986م.

7. ولایت حسین، ذاتی ڈائری کے چند اوراق (عدة أوراق من المذكرة الشخصية)، (ترتيب: سيد محمد تونكي)، مجلة علي كره، العدد الخاص بجامعة علي كره (جزء: "الشخصيات والدراسات") سنة 1953-1955م.
السجلات، والتقارير، والوثائق:

1. رپورٹ ترقی تعلیم مدرسة العلوم مسلمانان واقع علی گڑھ، تقرير تطوير التعليم في مدرسة العلوم للمسلمين، علي كره، الأسبوع الأخير من شهر سنة 1875م، مطبعة ميديكل هال پريس، (مطبعة ميديكل هال)، بنارس، 1876م.
2. رویداد اجلاس ممبران خزنة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين تقارير اجتماع أعضاء لجنة خزنة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين، المنعقد في 5 من شهر أغسطس سنة 1873م؛ و 6 من شهر مارس سنة 1874م؛ و 18 من شهر فبراير سنة 1875م؛ و 15 من شهر مايو، سنة 1875م.
3. علی گڑھ انسٹی ٹیوٹ گزٹ (Aligarh Institute Gazette) (جريدة معهد علي كره) المؤرخة: 19 يوليو سنة 1872م؛ و 29 نوفمبر سنة 1872م؛ و 31 أكتوبر سنة 1873م؛ و 6 مارس سنة 1874م؛ و 10 مارس سنة 1875م؛ و 7 مايو سنة 1875م؛ و 28 مايو سنة 1875؛ و 4 يونيو سنة 1875؛ و 11 يونيو سنة 1875م؛ و 2 يوليو سنة 1875؛ و 9 يوليو سنة 1875م؛ و 16 يوليو سنة 1875م؛ و 6 أغسطس سنة 1875م؛ و 17 فبراير سنة 1880؛ و 12 فبراير سنة 1881م؛ و 9 أبريل سنة 1881م؛ و 11 ديسمبر سنة 1883م؛ و 5 فبراير سنة 1884م؛ و 5 يناير سنة 1892م.
4. فوٹو کاپی کتبہ روم نمبر، سر سيد هال (جنوبی) (صورة اللوحة لغرفة رقم 21، قاعة السير سيد الجنوبية)، جامعة علي كره الإسلامية.
5. نقول سرٹيفڪٹس وسرکاری دستاویزات (صور الشهادات والوثائق الحكومية للشيخ محمد كريم التي وفرها السيد مدحت كريم (من سكان شيخ واره، محمدآباد غهنه، مٹو).

1. Morrison's History of M. A. O. College (edited by Safi Ahmad Kakorwi), Aligarh, 1968.
2. Muhammad Ali, My life – A Fragment, Lahore, 1946.
3. K. Bhatnagar, History of M. A. O. College, Aligarh, 1969.
4. Selected Documents from Aligarh Archives, Aligarh Muslim University Press, 1967.
5. Addresses and Speeches Relating to the M. A. O. College, 1875 – 1895 (compiled by Muhsinul Mulk), Institute Press, Aligarh, 1898.

الجامعة المليية الإسلامية

(حلقات متسلسلة لترجمة كتاب "قصة الجامعة" لعبد الغفار مدهولي)



- عبد الغفار المدهولي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

السنة الحادية عشرة

من أغسطس 1930م إلى يوليو 1931م

يقال عن الأحوال التي مرّت بها الجامعة في مدينة علي غراه، إن أعضاء الجامعة قد فتحوا الفصول الدراسية في المدرسة للتعليم الابتدائي والتعليم العالي معاً، ولم تكن هناك خطة واضحة لتحسين مستوى التعليم مرحلة بعد أخرى. إذ كان من الضروري أن يتم التركيز على التعليم الابتدائي أولاً، ثم يتم التقدم حسب المراحل، ولكن لا يمكننا التجاهل عن الحاجة التي كانت تتمثل في أنّ الجامعة كانت مضطرة إلى تلبية حاجة الشعب والوطن، وكان يصعب عليها العمل في هذا الاتجاه بعد وضع خطة. على كل حال، قام الدكتور ذاكر حسين ورفقاؤه لأول مرة، بوضع خطة خاصة لتطوير الجامعة. وفي عام 1929م، تم إعداد مشروع لبدء تدريب المعلمين في مرحلة التعليم الابتدائي وأن يتم إنشاء نظام خاص مستقل لمدرسة التعليم الابتدائي لتصبح مدرسة مثالية. ووجدت مدارس وكليات للدورات التدريبية في أجزاء مختلفة من البلاد في تلك الفترة، إلا أنّ الدكتور ذاكر حسين كان يتطلع إلى الاستفادة من الخبرات الجديدة، وكانت مدرسة (موغا) التدريبية التابعة للمنظمة التبشيرية

¹ كان مدرّساً في مدرسة الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي

الأمريكية في مديرية فيروزبور بولاية البنجاب تعمل بموجب الطرق الجديدة. وكانت المدرسة تركز بشكل خاص على "المنهج المشروع" و"منهج الحكاية". وكان يتم بحسبها القيام بالأعمال التجريبية لغرض الإفادة، وكذلك جعل الحرف اليدوية جزءاً لا يتجزأ من حياة الأطفال والمدرسة. وتواصل الدكتور ذاكر مع مدير مدرسة موغا السيد هاربر وبدأ يرسل المعلمين بالتناوب للحصول على الدورة التدريبية، وعندما رجعتُ من تلك المدرسة قال الدكتور:

لقد خطرت على بالي مهمة تناسب طبيعتك، وقد تحسّنها تدريجياً، فأنا أكثفك بتدريس الصفوف الأربعة الابتدائية- من الصف الأول الابتدائي حتى الصف الرابع- وعليك أن تبدأ مهامك في غرف جاهزة في المبنى الجديد الصغير الذي يتم بناؤه حالياً، وأخبرني عن كلّ ما تحتاج إليه من الأفراد والأشياء، وأنا سأقوم بترتيب ذلك كله.

وعندما تسمّلتُ مهام تدريس هذه الفصول الأربعة، كان هناك عدد قليل من الطلاب، وكان عددهم أكثر في الصف الرابع، ولم يطب لي أن أقدم قائمة طويلة من الأشياء قبل القيام بأيّ شيء. ولم تكن هناك مناضد كذلك، فابتدأ العمل باستخدام السجادات القديمة والبالية، وتم تنفيذ كل من "طريقة المشروع" و"طريقة الحكاية" في آن واحد. وبدأ العمل على طريقة الحكاية في الصف الأول، وطريقة المشروع في الصف الرابع. وتعجب أولياء الأمور أنّ الطلاب بدؤوا يعرفون الحروف عن طريق الكلمات قبل معرفة أسماء الحروف.

وقد تم إرسال السيد أحمد علي كذلك إلى مدرسة موغا لغرض زيادة عدد المعلمين الذين يقومون بمهام التدريس من خلال استخدام الطريقة الجديدة.

وتم شراء فدان من الأرض بجوار المدرسة، وكانت الزراعة من المهام المرغوب بها في المدرسة، وقد زادت أهميتها عندما تم اختيار هذه الأعمال وسيلة للقراءة والكتابة.

وقد انطلق مشروع الزراعة في الصف الرابع. ولا مجال هنا لذكر التفاصيل، وكلما زادت النباتات نمواً وخضرة بدأ يظهر دور التعليم والثقافة لدى الطلاب أيضاً، لأنه كان هناك اتصال وتوافق بينهما.

سنحت لي فرصة بعد الزراعة وكتب الطلاب مقالات حول هذه العناوين (1) بداية حديقتنا (2) توزيع القطع الأرضية (4) أنواع الأسمدة (5) غرس البذور (6) نمو النباتات (7) بيع الخضراوات.

تم وضع القائمة المشتملة على أدوات الزراعة، والتي شملت نوعية الأدوات، ما هي استخداماتها؟ ما قيمتها؟ من أين نحصل عليها؟ وغير ذلك، كما تم وضع الالفتات التي تحمل صورة الخضراوات، وعندما فحصت الأعمال السابقة عرفت أنه لم يتم القيام بأعمال كثيرة بعد، مثلاً وضع قائمة الخضراوات حسب المواسم وقائمة الأزهار وقائمة الفواكه وصور الأدوات وغير ذلك، أما صور الخضراوات فقد قام الطلاب برسمها في نفس الوقت.

كتب جميع الطلاب تقريراً مقالات، والمقالات التي كانت جيدة، نُشرت في مشروع الزراعة. وليس هناك إمكان لسرد تفاصيل الرياضيات ولكن تخيلوا بأن معلم الرياضيات السيد بركت علي حاول وضع أسئلة لمادة الرياضيات الخاصة بالطلاب بحيث شملت هذه الأسئلة أنواعاً من العمليات الحسابية مثل الضرب والقسمة والجمع بناء على صرف الروبيات في شراء الخضراوات.

تعتبر أعمال زراعة الخضراوات وشراؤها أموراً بسيطة إلا أن المدرسة التي بدأت فيها هذه الأعمال لأول مرة ولا سيما بأيدي الطلاب، تستحق كل التقدير والثناء، وقام المعلمون بشراء الخضراوات بحماس كبير، وكانت النتيجة جمع حوالي 30 روبية لأول مرة. وبدأت فكرة عن إنشاء عمل تذكاري من خلال استخدام هذه الروبيات. ولم يكن هناك كتب تتوافر فيها المعلومات عن الزراعة، لذا تقرر شراء الكتب ذات الصلة.

وسرعان ما وصلت الكتب فتأسست مكتبة للأطفال.

وتحقق أمر جديد، حيث تم تحديد أجر للطلاب الذين كانوا يقومون بأعمال الزراعة، فكان يتم توزيع كويون بين هؤلاء الطلاب بعد إكمال أعمالهم، وتقرر أن يستلم الطلاب نقوداً مقابل كويوناتهم من مكتب المدرسة يوم الخميس. وتم تسليم النقود مقابل هذه الكويونات إلى كافة الطلاب يوم الخميس الأول في المرة الأولى. وتم الإعلان يوم الخميس الثاني بأنه من لا يرغب من الطلاب في استلام النقود فيتم حفظ مبلغه بتسجيل المبلغ في دفتر، وسيتم إبلاغه عن المبلغ، وسيكتب الرصيد في كراسة صغيرة "دفتر الحساب"، ويُقدم له هذا الدفتر بدلاً عن هذه الكويونات. وأخذ بعض الطلاب مبالغهم النقدية، بينما أعرب البعض عن استعدادهم لجمع المبالغ، فتم تقديم "دفتر الحساب" على غرار البنك، للذين أعربوا عن استعدادهم لجمع النقود. وكان يتم تسجيل التفاصيل عن جمع النقود وسحبها.

وكتبت في دفتر الحساب، خمس ضوابط فقط، وقد ازداد عدد الطلاب الجاهزين لجمع النقود مع مرور الأسابيع. وفي بعض الأحيان، كان الطلاب يسحبون مبالغهم من خلال استخدام السند الخاص، فكان يُخصم ذلك المبلغ من حسابهم. وقد بدأت هذه المهمة في غرفة صغيرة، حيث كانت قطعتان أو ثلاث قطع من قماش الخيش مفروشة فيها. وكانت الكراسيات والأقلام والحبر على منضدة، وكان الطلاب يستلمون مبالغهم في الميعاد تحت إشراف المعلم، وعندما اطمأن الطلاب على أنه ليس هناك أي خطأ في التعامل المالي، وكذلك ليس هناك أي مانع من استلام المبالغ في الميعاد، فبدأوا يجمعون ما بقي من مصروفاتهم ومن المبالغ الواردة من أولياء أمورهم، وكانت هذه بداية بنك الطلاب.

وقد بدأ إحضار أدوات القرطاسية، مما مهد الطريق لإنشاء دكان للأطفال.

وانعقد الاجتماع السنوي للبنك في الأسبوع الأول من شهر مايو، وكان الحافظ فياض أحمد رئيس هذا الاجتماع، وتم توزيع الأرباح، وكان الربح يسيراً. ولا بأس

فيه لأنّ كل شيء كان يبدأ من مستوى بسيط جداً. وكان الربح آتين. وعندما عدّ الحساب فكان الربح خمساً وعشرين في المئة. ولم يصل مبلغ جمعه أحد، إلى أكثر من ست آتات أو أربع آتات.

وعندما بدأت أعمال الزراعة كان الدكتور ذاكر حسين في زيادة لحيدرآباد لجمع التبرعات للجامعة. وقد عاد في شهر نوفمبر، حيث كانت الخضراوات من الفجل والحلبة والسبانخ واللفت جاهزة للقطف. وكنا نريد أن نقدّم له هدية الخضراوات قبل أن يراها كي يتعجب ويسر بذلك. ولكن لم يكن الأمر خفياً، فقد أبلغه أحدهم عن هذه الأنشطة من قبل. على كل حال، عقدنا جلسة وكان الدكتور ذاكر سعيداً جداً بما منح للجامعة من الأموال من قبل حيدرآباد. وكان هذا أول اجتماع للأطفال، لم يشارك فيه أحد إلا طلاب من المرحلة الابتدائية والمعلّون. وكان لهذا الاجتماع شأن خاص.

قام الطلاب ببدء كل عمل من مستوى بسيط، ولم تكن القاعة جاهزة آنذاك. وعقد الاجتماع في الفناء في ظلال الجدران. كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، وجلست مجموعة صغيرة من الأطفال، مكونة من حوالي 50 طفلاً، في ملابس نظيفة ونظيفة، وكانت هناك طاولة صغيرة وعليها شرشف أبيض وباقة من الأزهار وساعة صغيرة ومراسم وبعض الأوراق ومثبت زجاجي للورق. وكان الوقت الساعة العاشرة إلا عشر دقائق. وكانت جماعة الأطفال صامئة والساعة تدق. وقال الدكتور ذاكر مشيراً إلى أحد الطلاب: والآن لماذا تأخير..؟

فردّ الأطفال: بقيت خمس دقائق. فانتبه الدكتور ذاكر متفهماً، ورفع حاجبيه، وبدأ ينظر يميناً وشمالاً.

وبدأ الحفل بتلاوة آي من القرآن الكريم الساعة العاشرة تماماً. وقرأ أحد الأطفال على الحضور أحوال المزرعة بإيجاز، ثم قدم هدية الخضراوات. ولم تكن الإجراءات طويلة. ووقف الدكتور ذاكر ليتحدث مع الأطفال. وأثنى عليهم أجمل الثناء. وكان

الطلاب والمعلّون يستمتعون بأنشطتهم. واتضح من هذا الثناء بأنه إذا رأى شخص أنشطتنا فإنه سيستمتع كذلك، وبالفعل كان برنامجنا على نحو كانت تنطلق فيه أنشطة متنوعة. مما كان يزيدنا ثقة، وفتحت أماننا آفاق جديدة للأعمال والأفعال الجديدة من تلقاء نفسها. فكنا نحاول الاستفادة من كل فرصة متاحة لنا.

وفي شهر مارس عام 1931م، عاد الحافظ فياض أحمد من السجن بسبب الحركة الوطنية للتحرير بعد أربعة أشهر. وقد علمنا أنه سيصل بالقطار، ووصل الناس إلى المحطة لاستقباله. وعندما نزل الحافظ فياض من القطار قَدّم إليه أحد الطلاب دعوة. وقد تم تزيين الحارات باللافتات. وأنشدت الأبيات في الاجتماع. وقدمت صورة المولانا محمد علي مع خطاب شكر. وكان بناء مبنى المدرسة للتعليم الابتدائي جارياً، والذي انعقد فيه هذا الاجتماع، بمساح حثيثة قام بها الحافظ فياض. واتمس الأطفال منه إعداد القاعة المقترحة في أقرب وقت ممكن. لكيلا نضطر إلى اختيار مكان الحفلات حسب الظل. وكان الحافظ فياض قد شاهد اجتماعات وجلسات كبيرة في الجامعة ولكن طريقة تنظيم حفل استقبال لأسير من قبل الأطفال أثرت في قلبه تأثيراً كبيراً، فقام ببناء قاعة كبيرة في غضون سنة، على غرار قاعة مدرسة كبيرة. ومنذ ذلك الوقت بدأت تعقد كافة الجلسات والاجتماعات في هذه القاعة.

وفي هذه السنة، عقدت اجتماعات المؤتمر التعليمي لعموم آسيا والمؤتمر المسلم لعموم الهند، في مدينة بنارس، فيما أرسلت المعروضات من الجامعة لأول مرة للمشاركة في المعرض التعليمي. وقام طلاب السيد عبد الحي بإعداد كل ما يحتاج إليه التدريس في طريقة الحكاية باسم "الصندوق التعليمي"، وتم إرساله إلى المعرض أيضاً. وقد منح القائمون على المعرض عدداً من الشهادات باسم الجامعة، وغادرت مجموعة من الأساتذة والطلاب للمشاركة في المؤتمرات بمدينة بنارس. حيث كان يعقد المؤتمر المسلم التعليمي لعموم الهند فسنحت لنا المشاركة فيه أيضاً.

وقام الطلاب بتقديم مسرحية بعنوان "عدل الأطفال" بمناسبة عيد الفطر. وقد أنفق

مبلغ كبير للاستعداد لهذه المسرحية، علماً بأن أداء المسرحية كان قد ارتقى إلى حد بحيث لم يتراجع الناس عن شراء التذاكر لمشاهدة المسرحية. وأدى كل من نبي أحمد ومحمد هارون ومير أصغر علي وعبد اللطيف دور شخصيات حسن خواجه... علي خواجه، وخادم حسن خواجه على التوالي. ومن الطلاب الذين أصدرُوا أمراً قضائياً في زي القضاء، هم مسعود حسن خان ومحمد نور خان وأفتاب أحمد وأبو الكلام. وشارك غيرهم من الطلاب. وكان العمل كله جيداً، ولكن عبد اللطيف الذي كان يؤدي دور الخادم، كان يقوم بمهامه بكل دقة، على نحو أثار انتباه المشاهدين، وكانوا ينتظرون جملة وأدائه في كل مرة. وحصل هو ومحمد هارون على الجوائز. وكان يتم إنشاد الأبيات الشعرية خلال الفترة التي يستغرقها تغيير الأشياء لمشهد وترتيبها للمشهد التالي. فأنشد الطالب أحمد سالم (الصف الرابع) هذه الأشعار بطريقة رائعة فصق له الحاضرون مرتين. وأعلن البروفيسور محمد مجيب عن الجوائز، ولماذا لا تمنح الجوائز إذ كان صوت أحمد رائعاً جداً، وكان له شغف في معرفة طرق جديدة للأداء. وكان يقدر على رفع وخفض نبرات الصوت حسب رغبته. والأشعار هي:

باد و باراں کی میں سہہ لونگا ساری سکتیاں

ہاں مشقت کو بھی خاطر میں نہ لاؤں گا کبھی

گر مری ان کوششوں اور محنتوں کے فیض سے

ایک چھوٹا سا چمن بھولے پھلے پروان چڑھے

ترجمة: سأتحمل شدائد العواصف والسيول كلها، ولا اكترث بما يعانيني من المكابد والمشاق، إذا نشأت حديقة صغيرة وترعرت بفضل مساعي ومجهوداتي هذه.

وكان الدكتور الأنصاري قد حضر بشكل خاص، لأجل مشاهدة هذه المسرحية. وقد نظم البرنامج بشكل جيد بسبب مشورة السيد محمد مجيب والدكتور سليم الزمان.

وقد تم عرض هذه المسرحية في اليوم التالي كذلك ليُشاهدوا أهالي منطقة قرول باغ. كتبت هذه المسرحية، ونشرتها مكتبة الجامعة باسم "عدل الأطفال".

وقد بدأت الاستعدادات للعام الجديد قبل نهاية السنة الجارية، وقد أرسل المجلس التعليمي المقرر الدراسي للجامعة بعد إعادة النظر فيه، لطباعته. وبعد التجارب الجديدة التي حظيت بها خلال سنة واحدة، وجدت فرصة لأقدم اقتراحات للعام القادم. وقد عكفتُ على الاستعدادات له، وقبل أن يتم ترتيب الاقتراحات، قال لي الدكتور ذاكز:

"ليس من الجيد مشاهدة الطلاب الذين يعملون بجهد، يجلسون على سجادات قديمة وبالية. فاشتروا لهم سجادات جديدة. واصنعوا المناضد حسب الغرف. وكان من نوايا الدكتور أن تشمل هذه الأشياء أيضاً ضمن البرامج الجديدة، فكتبت كل شيء بالتفصيل حسب العادة. حتى أنني أرفقت الجدول الجديد طيه أيضاً. وقدمت مقالاً حول طريقة المشروع في اجتماع المعلمين.

وقد أرسل السيد أحمد علي إلى موغا لزيادة عدد الذين يدرسون حسب الطريقة الجديدة.

والآن، اسمعوا أحوال المدرسة الثانوية والكلية، كان السيد سعيد أنصاري قد ذهب إلى مدرسة شاتي نكيتين ليتعرف على طريقة التعليم والتعلم فيها، وبعد عودته، أولى اهتماماً خاصاً بالنادي الأدبي، فقام بافتتاح متحف النادي على يد الحافظ وافتتاح المكتبة على يد السيد حامد. وقد أحدث نوعاً جديداً من المساجلة الشعرية، يعني تم وضع شروط جديدة لهذه المسابقة، تنص على قراءة أبيات شعرية لشاعر واحد فقط في مرة واحدة. وتم إلغاء الضوابط القديمة لهذا الغرض والذي كان بحسبها يعتبر الفريق غير القادر على إنشاد شعر يبدأ بحرف خاص خاسراً. وتم وضع معيار يخص إنشاد الأبيات الجيدة لأجل الفوز. من الواضح أن طريقة الفوز هذه مفيدة للطلاب لأن هذه المسابقة تهدف إلى حفظ الأشعار الجيدة. وقد نظم طلاب سكن السيد سعيد جلستين للمساجلة الشعرية، حيث تم تحديد أشعار الشاعر "حالي" لجلسة وأشعار الشاعر "إقبال" للجلسة الثانية.

من أغسطس 1931م إلى يوليو 1932م

بدأ الصف الخامس في هذه المدرسة للطلاب الذين نجحوا في الامتحان السنوي للصف الرابع الابتدائي.

وكان من العادة في الجامعة أنه رغم تواجد الرغبة والشغف بشكل عام، لم تكن هناك فكرة عن العمل الجماعي، لذا لم يكن الطلاب يرغبون في العمل الجماعي إلا قليلاً. وكانوا يشاركون في الأنشطة الخارجية بكثرة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تم فيها ربط الرغبات العامة بالعمل الجماعي كجزء منه، بحيث يكون هذا المنهج معاوناً في القراءة والكتابة، وهذا ما سهل على الطلاب إنجاز العمل إلا أن المعلمين كانوا بحاجة إلى تفكير جاد فيما يخص إيجاد الترابط القوي بين الأنشطة والقراءة والكتابة. وكانت أمامنا ثلاث مهام، الأولى: المشروع الجماعي، أي عمل سيقوم بإنجازه طلاب صف واحد بشكل مشترك، على سبيل المثال: مشروع صناعة الصابون، مشروع البريد، مشروع الزراعة وغير ذلك، والثانية: المهام التي سيقوم بإنجازها طلاب كافة الصفوف بشكل مشترك، مثل عقد حفلة عيلاد ميلاد النبي ﷺ، باسم "مشروع ميلاد النبي"، وبمناسبة تأسيس الجامعة، مشروع الجامعة باسم "مشروع الأسبوع الوطني" وغير ذلك. ويمكن أن نسمي مثل هذه المشاريع لمنحها ميزة خاصة بـ "مشروع مشترك". والثالثة: المهام التي نديرها كقسم بشكل مستقل، مثلاً "مشروع البنك"، "مشروع الدكان" وغير ذلك، وربما نسمي النوع الثالث من هذه الأعمال بـ "مشروع القسم".¹ قمت بتكليف السيد أحمد علي بمهام المشروع الجماعي، وبدأت أركز على التحضير للمشروع المشترك، ومن ضمنها أطلقت مشروع ميلاد النبي، ولا يسعني سرد التفاصيل هنا.

¹ "مشروع جماعي"، "مشروع مشترك"، "مشروع القسم"، لا توجد أقسام مستقلة لهذه المشاريع الثلاثة، وقد تم وضع هذه الأسماء عليها لأجل السهولة فقط، وإلا سيتم تسميتها بأسماء أصلية مثلاً مشروع الصابون، مشروع ميلاد النبي، ومشروع البنك، وهكذا.

وتم تنفيذ المشاريع بموجب الأمور المتعلقة بها، يعني أنّ الطلاب اشتركوا في كل عمل، ويمكننا أن نفهم ذلك في ضوء النموذج المذكور أدناه، وهذه مجرد نماذج لبعض الموضوعات.

1. الدراسات الإسلامية:

(أ) الخطب النبوية

(ب) بعض الأحاديث النبوية - تلاوة القرآن الكريم

2. اللغة الأردية:

(أ) مقالات حول السيرة النبوية مثلاً: عطف النبي الكريم على الأطفال،

كتب حول السيرة، المجدّون عند النبي ﷺ، تقرير عن الحفلات.

(ب) جزء من الشعر

3. المعلومات العامة:

(أ) الأحوال الجغرافية للدول العربية

(ب) الحياة الاجتماعية عند العرب

(ت) الطرق البرية والبحرية والخرائط وغيرها.

4. أعمال الرسم:

(أ) المناظر الطبيعية عند العرب

(ب) بطاقات الدعوة الملونة

5. الرياضيات:

(أ) نفقات ومصاريف الحج

(ب) أسئلة عن تاريخ الميلاد

(ت) نفقات عقد الحفلات

ونتيجة لذلك، عقد اجتماع كبير، وقُدمت فيه كافة المقالات التي كتبها الطلاب وكذلك خرائطهم، كما قرئت المقالات المختارة على الحضور كذلك.

وكانت أعمال الزراعة جارية حسب العادة، وفيما يخص المعلومات العامة، تم إعداد كتاب صغير عن الخضراوات.

وكان الطلاب سعداء جداً لأنّ مدير الجامعة الدكتور ذاكر حسين يدرّسهم اللغة الإنجليزية، وكذلك كان الدكتور ذاكر سعيداً لأنه وجد فرصة العمل مع الأطفال الصغار، وكان الدكتور بنفسه قد اختار له هذا العمل بكل رضا، وعندما علّم أولياء الأمور بأنّ مدير الجامعة يدرّس أطفالهم، بدؤوا يفتخرون بهذه الفرصة.

وفي هذه السنة، حدث شيء خاص، فعقدت حفلة الألعاب التعليمية. حيث نظمت هذه الألعاب في زاوية من القاعة على غرار ألعاب الرياضة البدنية. بين طلاب الصف الأول، وهي: (1) مسابقة في ربط القصص من خلال الألغاز وألعاب الذكاء بالأوراق المقوية في الإطارات الملتصقة على الجدران. (2) إخراج الكلمات المقررة من خزانة الألفاظ، ثم المسابقة مع الصف الآخر في كتابة الأرقام على غرار لعب سباق المراحل، ولعب كل صف أنواعاً من الألعاب، وفي الختام، تم توزيع الجوائز بين الطلاب الذين حصلوا على المركز الأول والثاني والثالث. وشملت الأنشطة كذلك الألعاب الكوميدية. وكانت بعض الإرشادات قد كُتبت على الأوراق المقوية مثلاً: "قف على رجلٍ واحدة"، "ابك بشدة"، "اضحك كثيراً"، "أمسك أذن فلان"، "انقلب على الأرض"، "سلم بطريقة سلام أهل لكأؤ" وغير ذلك. وكانت هذه القطع الورقية قد وضعت مقلوبة مثل بطاقات لعب الورق. فتم توجيه طلاب الصف الأول بأن يأخذوا أية ورقة، ومارسوا العمل المكتوب عليها. وعندما سلم أسد الرحمن سلام أهل لكأؤ، صفق الحاضرون بشدة. وقد طُبعت ألعاب الصف الأول والثاني باسم "التعليم بالألعاب" ... وعقب بضعة أشهر، عقدت الجلسة الثانية للأطفال.

كان سيّد عابد حسين قد كتب مسرحية باسم "الولد المشاغب" وتمّ عرضها، وكان موضوعها أنه إن لم يتوافر التوجيه الصحيح للأطفال فإنهم يقومون بأعمال المشاغبة. ولكن إذا تم توجيههم والتحدث معهم حسب طبائعهم أو ربما توفرت فرصة مماثلة لتلقائياً، فإنهم يستخدمون طاقاتهم بكل جدية في إنجاز الأعمال الجيدة. وتتعلق كافة الأحداث في هذه المسرحية بالمدرسة والسكن الطلابي، ويظهر أماننا الطلاب ذوو الطبائع والشخصيات المختلفة. وتشمل المسرحية عبارات مضحكة ومرحة ضحك عليها المشاهدون رغماً عنهم. ولم تكن هناك حاجة إلى تجهيز الأشياء للمسرح لأنّ المدرسة والسكن الطلابي والملاعب كلها كانت موجودة بالفعل. فلم يمكن ثمة حاجة إلى تدريب الأطفال على أداء واجباتهم لأنّ السيد عابد كتب هذه المسرحية نظراً إلى بعض الطلاب الذين تم اختيارهم، ولم تكن هناك حاجة لتقييم أدائهم، أو من يستحق الجائزة. ومع ذلك قد منح السيّد أحمد حسين الطالب محمد نور خان ميدالية ذهبية. ويلجأ الدكتور إلى الإفهام والتفهيم وهذا واضح من المسرحية.

وجاء اقتراح بعد نهاية الامتحان السنوي للصف الخامس والرابع، بأنه سوف يتم إعداد كتيب يحتوي على الإنجازات التي تحققت طوال السنة. وتم وضع الأسئلة المكررة لترتيب الأمور مثلاً أيّ كتاب قرأت؟، كم مقالاً كتبت؟، أيّ مقالاتك جيدة؟.. ولماذا؟، ما هي الأشعار التي تعلّمتها؟، أيّ مجلة من المكتبة تعجبك؟.. ولماذا؟، ما هي السليبات التي تجدها في مدرستك؟، ماذا وكيف ساعدت في جعل فصلك أو مدرستك جميلة؟، كيف كان أثر الجلسة؟ وأيّ رسم من رسوماتك أفضل؟ وكانت هناك أسئلة كثيرة من مجالات الدراسات الإسلامية، والرياضيات، والزراعة، والرسم، واللغة الأردية، والأقسام، والجلسات، وإدارة المدرسة وغير ذلك. لتساعد في تقييم وسير العمل. وقام الطلاب بإعداد غلاف الكتاب بشكل جيد.

وهل كان من الممكن ألا يتم تغيير المقرر الدراسي القديم في المدرسة التي تشهد مثل

هذه الأعمال والأنشطة. وقد تم تكليف مختلف الأفراد بإعداد المقرر الدراسي الجديد في بداية السنة. فقاموا بإعداد خططهم بعد إجراء البحوث الجادة التي استغرقت ستة أشهر ثم جرت المداولات حول هذه الخطط في اجتماعات الأساتذة لعدة أشهر. وفي النهاية، وافق المجلس التعليمي على هذا المقرر الدراسي، وقام مسجل الجامعة آنذاك الحافظ فياض أحمد بطبع هذا المقرر، والذي كان يحتوي على مئة صفحة ويختص بالصفوف الستة الابتدائية. وشمل هذا المقرر تفاصيل المواد المدروسة واقتراحات الأساتذة. وقد بذلت الجهود حيث لا يُكتب فيه إلا ما يُدرس من المواد حسب أعمار الطلاب. وتمت مراعاة بشكل خاص بأن تتطور القدرة التي يحظى بها كل طفل، تدريجياً كما تنمو النباتات الخضراء. وإذا قرأ المعلم هذا المقرر بكل عناية وطلب من الطلاب العمل عليه، فإنهم سيستمتعون به أيضاً. لأنّ طريقة العمل وطريقة القيام بالعمل كانت مكتوبة على نحو يثير الإعجاب. وقام الدكتور ذاكر حسين بإعداد المقرر الدراسي للغة الأردية والإنجليزية والرسم، وقام السيد بركت علي بإعداد المقرر الدراسي للرياضيات والمعلومات العامة، وقام سعد الأنصاري بإعداد المقرر الدراسي للدراسات الإسلامية بالتعاون مع المعلمين في الصفوف الابتدائية للمدرسة.

وقد كتب في بداية هذا المقرر الدراسي:

"يؤمن أعضاء الجامعة بشأن التعليم الابتدائي إيماناً بأنه لا يهدف إلى إضافة المعلومات لدى الأطفال فحسب بل الهدف الأساسي هو تثقيف حياته، وتسهيل نمو قدراته الطبيعية، وتشجيعه على أداء الواجبات والمسؤوليات تجاه الحياة الثقافية، ويمكن تحقيق ذلك من العمر الذي يتراوح ما بين 6-12 سنة. لعله يستطيع أن يتغلب على طاقاته ودوافع العمل والعواطف تدريجياً لأنه أساس النمو الخلقي والذهني، ولبشعر بمسؤولياته، وبالرغبة في أدائها، ولبزيد تعاطفه على نحو لا يكون غريباً في أحواله الطبيعية والاجتماعية، بل يمكنه أن يفهم ذلك وأن يتمتع به. وتودّ الجامعة أن يكون الأطفال

الذين يتعلمون ويتربّون بعزها، أن يكونوا أوصياء وأن يحفظوا بحسن السلوك والعمل، ويتحدثوا مع الناس حديثاً سلساً وواضحاً. وأن يتسم حديثهم بالوقار، وأن يلتزموا بالنظافة والنقاء. وليصدقوا دوماً، وعليهم أن يستمتعوا بجمال بيئتهم وهم يتنون إصلاحها إلى الأفضل، بحيث يترسخ أساس التعاطف والخلق الحسن في حياتهم الابتدائية حتى ينشؤوا كأفضل مواطنين هنود ومسلمين صادقين أي كشخصية كاملة.

وكما حدث في السنة الماضية، قدّمت مقالة في اجتماع الطلاب والأساتذة، وركزت بشكل خاص على العمل في المدرسة والسكن الطلابي باعتبارها ممتلكاتنا، ونحن الذين نديرها. نخسارتها خسارتنا، وفائدتها ستقوي حياتنا.

وقد جمعت كافة النماذج التي قدّمها الطلاب، فجاء اقتراح بأن يتم وضع هذه النماذج في غرفة مستقلة كمعرض، وعندما تأتي النماذج الجديدة فستستبدل القديمة بالجديدة. وبخصوص هذا الاقتراح كان أماننا أمران، أحدهما: أنها ستساعد الطلاب الجدد، وثانيهما: يفهم الضيوف من خلالها، أنشطة المدرسة بسهولة. وقد وضعت هذه النماذج كلها مثل الصندوق التعليمي، ومقالات الطلاب، ونماذج الكُتّابات، والبطاقات التي تظهر الحكايات والأشعار بالصور، ومشروع الزراعة، وتفصيل مشروع عيد ميلاد النبي، وبطاقات وخرائط مختلفة، وكتب صغيرة أعدها الأطفال وكذلك المجلات بجانب الجدران على طاولة مرتفعة بترتيب رائع. وتم وضع أعمال الرسم السابقة في الملفات كما تم إلصاق الأعمال الجديدة مع الجدار بواسطة الورق المقوى السميك.

وقد مضت سنتان على المدرسة الابتدائية التي كانت تعمل تحت الإدارة الجديدة. وكانت الحديقة قد تحولت إلى شكل مستقل أصلاً، وانطلقت أعمال البنك والدكان كذلك. وزادت المكتبة رونقاً وبهاء، وبدأ تكليف الصفوف بمهام جديدة، وزادت مشاهدات غرفة المعرض، وبدأت الحركة تظهر في السكن الطلابي بسبب تزايد عدد الطلاب، وقد شاهدت الآنسة كوب ليند (غلاسكو) شوقاً في وجوه الطلاب. ولم

يشعر الدكتور إيرش تيلي (برلين) بأيّ غربة في أنشطة المدرسة. وأحسّ المنشي بریم جند لمسةً أدبيةً في كتابات الطلاب. وتنبأ القاضي عبد الغفار بطلوع شمس ساطعة وراء هذا الشعاع الصغير على أفق الحياة.

وقال السيّد خواجه غلام السيدین: هذه تجربة قيمة للغاية، وفي رأيي، تُنفذ على الأصول الصحيحة.

وكان طلاب المدارس الثانوية والكلية يشاهدون أنشطة المدرسة الابتدائية بكل عناية، وقد بدأ البحث في التعليم أيضاً، وكانوا مستعدين لمساعدة الأطفال إذا دعت الحاجة لأية مساعدة. حيث قام طلاب السنة الثانية من المدرسة الثانوية بإعداد خريطة ذات الطرق بين الهند والعالم العربي تحت إشراف السيّد سعيد أنصاري. وشملت الخريطة عرض الطرق البحرية والبرية والجوية التي كانت قيد الدراسة، أيضاً، كما عرض فريق المدرسة خريطة الضريح المبارك في سفينة من الخيزران.

وعقدت جلسة بمناسبة يوم التأسيس، حسب العادة، قدّم شيخ الجامعة تقريراً شاملاً للسنة الكاملة، وعلّق عليه، وصرح في موضع:

"في ضوء التجارب التي شهدتها بضع سنوات ماضية، تعرفت الجامعة على أنه من أهم الأمور توفير التعليم المناسب للأطفال الصغار، لأنّ هذا هو الأساس الذي يبنى عليه المبنى الجديد للتعليم الوطني. وبسبب هذه الفكرة، تسعى الجامعة قبل كل شيء، لحل قضية تختص بتوفير التعليم الابتدائي.

وفي هذا الصدد، بدأ يشرح ما هي الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها طلاب المدرسة الابتدائية. وفي الختام، تغيرت اللهجة الجادة للخطابة وقال مبتسماً:

"بدأ طلاب المدرسة الابتدائية الذين يتواجدون معنا في هذا الوقت، يتخلصون من كافة العادات القديمة التي لا تعجبهم، وهم يتبنون أن يحاولوا تعلم الأمور عن طريق

التطبيق عليها وليس بالمشاهدة فحسب. لذا يتقدم أمامكم الآن شخص".

وبدأت التصفيفات عندما جلس شيخ الجامعة، وانخفض صدى التصفيفات ثم بدأ يرتفع، وكان السبب وراء ذلك بأن السيد رحيم الدين خان من الصف الخامس الابتدائي، يُقبل على الحضور مرتدياً اللباس القطني الأبيض من قبة رأسه إلى أخمص لقدميه. وزد على ذلك، أنه استخدم الجورب باللون الأبيض كذلك. فإنه قدّم تفاصيل الأعمال والأنشطة التي تم القيام بها خلال سنة واحدة، وذلك نيابة عن جميع طلاب المدرسة، وكان جميع طلاب الصف قاموا معاً بإعداد هذا التقرير.

واختتم التقرير بكلمة رحيم أحمد: "مبارك عليكم عيد ميلاد الجامعة. وقدّم عبد الحي كلمة الشكر. وانتهت الجلسة بإعلان الدكتور ذاكر بأنه تم استلام المبلغ الذي وعدت به حكومة ولاية حيدرآباد لبناء عمارة. وعاد الجميع مسرورين إلى بيوتهم.

وفي نفس السنة، تم شراء قطع الأراضي بهذا المبلغ على بعد ثمانية أميال، بجانب نهر جامونا الذي يخرج منه نهر آغره. وذلك لبناء المباني الجديدة للجامعة، وتقع قرية أوكهلا بجوار هذه المنطقة.

وفي نفس الليلة، عقدت جلسة المساجلة الشعرية في الجامعة، شارك فيها كل من ثاقب لكهنوي، حسرت موهاني، حفيظ جالندهري، أصغر غوندوي، سعيد بريلوي وساحر دهلوي إضافة إلى ماني جاشي، عشرت رحمان وأكبر حيدري، وألقوا أبياتهم الشعرية على الحضور.

وكان حفيظ جالندهري قد كتب أشعاراً في رثاء المولانا محمد علي، فيما خص بذكر صفات المولانا، وقرأ هذه المرثية بصوت عال، وبطريقة خاصة، حتى أصبحت هذه الطريقة شائعة ورائجة في الجامعة.

وكان قد تقرر مسبقاً بأن طلاب المدرسة الابتدائية سيقدمون مسرحية بمناسبة

العید، وطلاب المدرسة الثانوية بمناسبة يوم التأسيس. لذا قدّم الطلاب الكبار مسرحية باسم (الزراعة) في اليوم الثاني من التأسيس تحت إشراف البروفيسور محمد مجيب الذي كتب هذه المسرحية، وقام السيد بشير بحفظ الخطب الطويلة وحاكي خطاب (الشيخ كثير الكلام) أحسن محاكاة. وفي تلك الأيام، كان هناك اجتماع اللجنة العاملة لحزب المؤتمر الهندي في دلهي، فأحضر الدكتور ذاكر حسين معه كافة أعضاء اللجنة لمشاهدة هذه المسرحية.

وطلبت جمعية الاتحاد من الدكتور هاشم أمير علي واللواء جبريد والمولانا سبحاني أن يلقوا خطبهم، وتلبية لدعوة الجمعية، قدّم الشاعر جفر مرادآبادي أشعاره.

وكان أول رئيس للجمعية سيّد نور الله منذ بداية تأسيس الجامعة في مدينة علي غراه، وبعد ذلك، تولى كلّ من المولانا سعد الدين، شفيق الرحمن القدوائيّ، ظهير الدين، يوسف حسين، عبد الحليم أحراري، عبد الحميد زييري، محمود حسين خان، عبد الكريم بشاوري، أنور خان، محمد حسين حيدرآبادي ورئيس أحمد جعفري منصب نائب الرئيس.

وفي نفس السنة، تأسست جمعية الموظفين تحت رعاية محمد حفيظ الدين، ثمّ عين محمد سليم أول رئيس لهذه الجمعية، وارتقت هذه الجمعية لاحقاً، وبدأت جلساتها تعقد بشكل منتظم.

وفي هذه السنة، كانت أكاديمية اللغة الأردية قد قامت بتقديم المقالات بشكل خاص، وألقيت المحاضرة الأولى في 7 يناير عام 1937م، تحت رئاسة خواجه غلام السیدین. قدّم البروفيسور وهاج الدين مقالته حول "جوهر الأديان"، شارك فيها عدد من الأساتذة والطلبة من الجامعة وغيرها من الكليات الأخرى. وتناول قاضي عبد الغفار "شخصية جمال الدين الأفغاني" بقدر من التفصيل في المحاضرة الثانية، كما تحدث المولانا أسلم عن "أثر الإسلام على الحضارة المصرية القديمة" في المحاضرة الثالثة.

وكان محمد حفيظ الدين قد شارك في أعمال أكاديمية اللغة الأردية لمدّ يد التعاون مع

الدكتور سيد عابد حسين، وقد زاد حسن إدراته من روعة الجلسات.

ستعتبر جلسة المباحثات التي عقدت في 9 أبريل 1932م، في تاريخ أكاديمية اللغة الأردنية، جلسة تذكارية، حيث ألقى الدكتور ذاكر حسين خان خطاباً في الجلسة في صالح موضوع، وخواجة غلام السيدين خطاباً ضد الموضوع. وكان هذا الموضوع يتحور حول "إن التعليم المتوفر في الجامعات الهندية ناقص"، كما ألقى كلٌّ من الدكتور سعيد والدكتور عبد العليم والمولوي نور الرحمن وسيد تجمل حسين خطبهم في دعم الموضوع، بينما كان هناك خطيب واحد فقط ضد الموضوع وهو خواجة غلام السيدين، وكان سيد تجمل حسين يضحك الناس كثيراً على بعض الأمور والقضايا، فكان الناس سعداء جداً بهذه الجلسة.

ولم يكن أعضاء الجامعة يتحملون المهام التعليمية والإدارية فحسب، بل كان على عواتقهم بعض مسؤوليات جمع التبرعات كذلك. فكان الأساتذة يسافرون لجمع التبرعات في عطلة الصيف، إذ غادر وفد برعاية البروفيسور مجيب إلى سريلانكا والمالديف، وسافر السيد علي أحمد مع رفقائه إلى بورما، وزار السيد سعد أنصاري إلى بنغلور ومالابار. وانتخب حفيظ الدين مدينة حيدرآباد لتكون أعضاء لأكاديمية اللغة الأردنية.

حركة الترجمة في الهند ودورها في تعزيز العلاقات العربية-الهندية¹

- د. محمد فضل الله شريف²

لا يخفى على مَنْ يلمّ بالعلم والثقافة أنّ الترجمة أحد الفنون الإنسانية المهمة وهي بلغت قمتها ببلوغ البشرية أوجها، ولقد وضع المهتمون بها قواعد لها وضوابط، وأصولاً وشرائط لا بد من رعايتها كما ذكروا للقائمين بها شروطاً وحدوداً وقيوداً، وهكذا فقد نقلت الترجمة ثقافات وحضارات للدول النائية وعاداتٍ وطقوساً وتقاليدها من أمة إلى أخرى، ومدّت يدّ العون إلى إقامة التعامل والتعاون التجاري والدبلوماسي والعسكري بين دولتين أو أكثر، ومن خلال عمليتها المواصلّة تلك فقد أغنت الترجمة اللغة وطوّرتها. وأما عن جهة الدين وأصوله فحدث عنها ولا حرج فقد ثبتت الترجمة أهمّ أداة للدعوة إلى الله تعالى ودينه القيم.

هذا، والحقيقة أنّ عملية الترجمة ليست سهلة، وإنما هي أصعب من أيّ فن من الفنون الإنسانية، يختلف أنواعها التحريرية والشفهية والآلية والعلمية والأدبية، والطبية والعسكرية والفقهية وما إلى ذلك، وتُطلب من المترجم الكثير من المهارة والنبوغ والممارسة لفترة طويلة لإجادتها، والبلوغ إلى أقصى غاياتها. يقول الدكتور محمد أحمد منصور وهو يبيّن أهمية الترجمة وما لها من قيمة في تبادل الحضارات والثقافات بين الأمم:

"مما لا مرأى فيه حاجة الإنسان والمجتمعات قديماً وحديثاً إلى الترجمة، ذلك لأنّ الترجمة بين اللغات تمثّل حاجة من الحاجات الأصلية للبشرية، وترتقي في بعض الأحيان إلى درجة الضرورة أو الفريضة الواجبة، فهي تمكّن الأفراد والأمم من تخطي الحواجز

¹ قدّمت هذه الورقة في ندوة دولية افتراضية عقدها قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية بحيدرآباد حول موضوع "دور اللغة العربية في تعزيز العلاقات العربية الهندية في 2021/12/28م

² رئيس هيئة الدراسات العربية الشرقية، الجامعة العثمانية، حيدرآباد

اللغوية بسبب اختلاف الألسنة، فيقوم كل بدوره الفاعل والمؤثر في النهوض بالحضارة الإنسانية، وقد تباينت الشعوب أو الأجيال في نصيب كل منها في هذا الدور، فبعضها قد يكون فاعلاً، وبعضها متفاعلاً، وبعضها منفعلاً، غير أنّ بناء الحضارة الإنسانية ليس مقصوراً على شعب واحد من الشعوب، أيّاً كانت عبقريته، ومهما كان إبداعه وتميزه، كما أنها ليست منحصرة في مكان بذاته، أو حقبة تاريخية بعينها، بل إنها حصيلة للتجربة الإنسانية المشتركة، فيها تسهم كل أمة بمجهودها".¹

ولقد قامت الترجمة من الهندية إلى العربية أو العكس بدور فعال في تعزيز العلاقات بين الهند والعرب، وهكذا فلها تاريخ يرجع إلى ما قبل الإسلام في نقل الثقافتين الهندية والعربية، وهذه العملية تستمرّ إلى عصرنا هذا بكل نشاط وشأن عظيم.

حركة الترجمة في الهند: المسلمون بناء حضارات أينما حلّوا وزلّوا، وفي طبيعة الإسلام أنه يدفع دائماً بعجلة الحضارة والمدنية إلى السير من جديد، في كل بلد يدخله، وأصحابه حين توغّلوا الهند، ومعهم حضارتهم التي كانت قد بلغت خارج هذه البلاد درجة عالية من الرقي، لم يهملوا أمر حضارة الهند وثقافتها، بل شغلوا بها وانهمك علماءهم في كل العصور في النقل منها، حتى ترجموا أقساماً من المهابهارات نفسها سفر الهنادكة المقدس، وكان من بين السلاطين المسلمين من حصّ الهنادكة أنفسهم على الاشتغال بترائهم القديم والكشف عن ماضي بلادهم، وبذلك لهم في ذلك العون والمساعدة.²

الكتب المترجمة من الهندية إلى العربية أو العكس ودورها في تعزيز العلاقات: يقول "Havell": "إن المسلمين مدينون للهنادكة أولاً لا لليونان، بما وصلهم من مختلف ألوان المعرفة والثقافة أو الفلك أو الطب، وقد طلبوها من بعد ذلك عند اليونان حين تمكنت من أنفسهم محبة العلوم، واشتد شغفهم بها، ويؤيد رأيه هذا أنّ أول كتب

¹ الدكتور محمد أحمد منصور، الترجمة بين النظرية والتطبيق، مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية، ص 13

² أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، 8/1

في الفلك والرياضيات حُمل إلى بلاط الخليفة، وكان ذلك أيام المنصور العباسي، هي كتاب "براهما سدهانتا" لمؤلفه العالم برهمكبت، وتذكره الكتب العربية باسم كتاب "السند هند" وهو أقدم الرسائل الفلكية على الإطلاق إذ يرجع تاريخ تأليفه إلى عام 452 ق.م، وكتاب "كهند كهاديكا" المعروف باسم "أركند" ثم كتاب "آرية بهت" المعروف باسم "أرجبهذ" أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود، ومن أول هذه الكتب يظن أن العرب تعلموا الأرقام الحسائية والنظام العشري، وقد وجدت الأولى منقوشة على أعمدة آشوكا أن يستخدمها المسلمون بألف عام¹.

ويقول الأستاذ ت.ج دي بور عن التراجم العربية في الأدوار الأولى للكتب الهندية: "أما الهند فتعدّ بلاد الحكمة على الحقيقة، وكثيراً ما يقول مؤلفو العرب في كتبهم إنها "معدن الفلسفة". وقد ذاعت المعرفة بالحكمة بين العرب أيام السلم من طريق التجارة التي كان الفرس في الأغلب، وسطاء فيها بين الهند والعرب، ثم انتشرت أيضاً بسبب فتح الهند على يد المسلمين، وترجم الكثير من هذه الحكمة في عهد المنصور (136-158هـ) والرشد (170-193هـ) وترجم بعض ذلك عن الترجمة الفارسية (اللغة البهلوية) وبعضه الآخر عن اللغة السنسكريتية مباشرة، وكَم من أقوال في الحكمة الأخلاقية أو السياسية أخذت من قصص الهنود وأساطيرهم، مثل قصة "بانثشاتانترا" وغيرها التي نقلها عن الفهلوية ابن المقفع في عهد المنصور².

ويقول أيضاً: "وغير أنه كان للرياضيات والتنجم المتصل بالطب العلمي وبالسحر أكبر الأثر في بواكير الحكمة العقلية في الإسلام، وعرف كتاب السند هند لبرهمكبت، وهو الكتاب الذي ترجمه إلى العربية الفزاري، يعاونه علماء من الهنود، في عهد المنصور، قبل أن يعرف كتاب المسجطي لبطليموس³".

¹ ويل وإيريل ديورانت، الهند وجيرانها، ترجمة، الدكتور نجيب محمود، 3/35-36-37
² الأستاذ ت.ج دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، التعريب الدكتور محمد عبد الهادي أبو زيد، ص 26-27
³ نفس المرجع والصفحة.

بعض أهم الكتب المترجمة إلى العربية: نقدّم هنا بعض النماذج مفصلاً عن الكتب المترجمة في العربية في القرون الأولى:¹

1. كتاب "السند هند": يذهب هارل Harell إلى أنّ المسلمين مدينون للهنداكة قبل اليونان بالتأثر بثقّي ألوان المعرفة والثقافة الجديدة سواء في الفلسفة أو الرياضيات، واشتد شغفهم بها. ويؤكد رأيّه هذا في أنّ أول كتب الفلك والرياضيات التي حُملت إلى بلاط الخلافة أيام المنصور العباسي هو كتاب "ابراهيم سدهانتا" لمؤلفه العالم برهمكبت وتذكره الكتب العربية باسم "السند هند"، الذي يرجع تأليفه إلى 425 ق.م، وكتاب "كهاديكا" المعروف باسم "أركند"، ثم كتاب "أريه بهت" المعروف باسم "أرجهند" أعظم الفلكيين والرياضيين الهنود. وهو من أول الكتب التي يظن أنّ العرب تعلموا منها الأرقام الحسابية والنظام العشري. فقد شغف المنصور بالفلك، ناهيك عن تشجيعه للترجمة، إلى درجة أنه اصطحب نوبخت الفارسي، وابنه أبا سهل بن نوبخت، وكان في حواشيه أيضاً إبراهيم الفزاري وابنه محمد، وعلي بن عيسى الأسطرلابي وغيرهم، وقد كلف المنصور العالم الجغرافي محمد إبراهيم الفزاري، بترجمة الكتاب الذي قدّمته البعثة الهندية، المنوه عنها سابقاً، وصلت بغداد (156هـ) من الهند، وأطلق العرب على هذا الكتاب اسم "كتاب السند هند الكبير". ولقد أجمع البيروني والقفطي على أنّ كتاب الفزاري هذا، لم يكن إلا ترجمة كتاب "سند هانت" لإبراهيم كيث، وأصبح فيما بعد، نواة لأول مدرسة لعلم الهيئة العربي، حتى جاء عصر المأمون، وترجم كتاب المجسطي لبطليموس، فصار العلماء العرب يروجون لعلم الهيئة اليوناني على حساب التأثيرات الهندية. ويلخص كراتشكوفسكي الرواية العربية

¹ راجع للتفصيل حول هذا المقال: الشيخ ضياء الدين الإصلاحي، عناية العرب بالعلوم الهندية، الترجمة: الدكتور أورنك زيب الأعظمي، ص 96-120

حول الصلة بالعالم الهندي، فيذكر أنه كان من بين أعضاء السفارة الهندية إلى بلاط المنصور في عام (154هـ) أو (156هـ) عالم هندي هو مانكا Manka أو كانكا Kanka أحضر من الهند رسالة في الفلك أطلق عليها في الترجمة العربية التي عملها الفزاري، ويعقوب طارق اسم "كتاب السندهند" وكثير من جوانب هذه القصة غير واضح، غير أنه يمكن القول إن الرسالة التي حملتها البعثة هي لـ"براهما سقوتا سيدانتا Brahma squata sdiehanta"، التي وضعها براهما غبتا Brahma Gupta، وحول العرب لفظ سيدانتا إلى "السند هند"، التي تنعكس فيها التسمية العربية لشطري الهند أي السند والهند، وبقي نظام السند والهند مؤثراً في الفلك العربي حوالي خمسين عاماً إلى عصر المأمون حين بدأت ترجمة مذهب اليونان، فصار منافساً قوياً للنظام الهندي، قبل أن يحل محله تقريباً.

2. ترجمة كتاب "سشرت سنهتا": تُرجمت كتب هندية كثيرة إلى العربية، ومنها على سبيل المثال، كتاب "سشرت سنهتا"، الذي كان أول كتاب للطب الهندي تمت ترجمته إلى العربية. وكان مؤلفه قد درس الطب على يد "ديوداس"، هذا الكتاب يُضارع في العربية كتاب القانون لابن سينا. وقد ذكره المؤرخون العرب باسم "سسردي"، كما ذكره بعض المؤرخين العرب باسم كتاب "شرك" و"سيرك" (ورد ذكره في الفهرست وعيون الأنباء وفي تاريخ اليعقوبي). وكان هذا الكتاب قد تُرجم من السنسكريتية إلى الفارسية، ثم قام بترجمته من الفارسية إلى العربية عبد الله بن علي. ويقول بعض المؤرخين إن المترجم هو "كنكا هندي".

3. ترجمة كتاب "تشرك سنهتا": وكذا ترجم كتاب "تشرك سنهتا" لمؤلفه الطبيب المشهور "تشرك"، وكان في حاشية الملك المعروف بـ"كنشك" في الهند. وكان من معاصريه العالمان "ناغا رنجن" الماهر في علم الكيمياء، و"آشوك هوش".

4. ترجمة كتاب السموم "شاناق": وكتاب السموم لمؤلفه الحقيقي "تشانكيه" الذي

سمّاه العرب "شانا"، وكان وزيراً لـ"تشندر غبت موريه" الذي كتب عنه ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء: "ومن المشهورين أيضاً من أطباء الهند شانا، وكانت له معالجات وتجارب كثيرة في صناعة الطب، وتفنّن في العلوم وفي الحكمة، وكان بارعاً في علم النجوم، حسن الكلام، متقدماً عند ملوك الهند".

5. الأرقام الهندية: من أهمّ مآثر العرب في العلوم المختلفة في العهد الإسلامي أنهم نقلوا الأرقام الهندية (من 1 إلى 9) إلى اللغة العربية التي امتدت إلى جميع البلاد الأخرى بواسطتهم، وكانت الأعداد تكتب في بلاد العرب وغيرها من البلاد الأخرى بالأحرف. ويسمّيها العرب الأرقام الهندية، لأنهم وجدوها من أهل الهند. أما أهل أوروبا فيسمونها أرقاماً عربية لأنّ الرياضيات وصلت إليهم من العرب. وكان أول من تلقى علم هذه الأرقام الهندية من العرب هو أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي. وقد انتشر استعمال الأرقام الهندية في بلاد الغرب والأندلس وعن طريق الأندلس دخلت هذه الأرقام إلى أوروبا، كما أوجد العرب طريقة جديدة، هي طريقة الإحصاء العشري، واستعمال الصفر.

6. في علم الفلك: نجح العرب في استخراج قواعد مفيدة في الرياضيات تتعلق بالمسائل الفلكية ولم يتمكن منها اليونانيون، كالمثلثات الكروية (راجع: "علم الفلك وتاريخه عند العرب" لكرلو نلينو). وهذا العلم جاء من الهند، ومصدره الأول كتاب سنسكريتي معروف باسم "برهم سدان"، الذي ألفه "برهم غبت"، مؤلف من الهند بارع في العلوم المتعددة، وكان له من العمر ثلاثون سنة فقط، وأهداه في العام 824م إلى الملك "دياكر موكا".

7. في علم الطب: كذلك كان في بغداد أطباء هنود يمسكون الطب الهندي إلى جانب الطب اليوناني، اشتهر منهم في عهد الرشيد "صالح بن بهلة الهندي" وقد ذكر الجاحظ أنّ يحيى بن خالد جلب أطباء من الهند أمثال "منكة" و"يازبكر"

و"قلبرقل" و"سندباد"، وفي كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة أسماء الأطباء. ومن الكتب التي تُرجمت إلى العربية من الهندية في مجال الطب: كتاب "السيرك"، وقد ترجم أولاً إلى الفارسية ثم من الفارسية إلى العربية عن طريق عبد الله بن علي. وكتاب "سرد" نقله منك من الفارسية ليحيى بن خالد البرمكي. وكتاب "أسماء عقاير الهند"، نقله منك لإسحق بن سليمان. وكتاب "استنكر الجامع" نقله ابن دهن الهندي.

فن المعروف أنّ أطباء الهند نبغوا في استخدام الأعشاب الطيبة في مداواة الكثير من العلل، وقد نقل المسلمون الكثير عن فوائد الأعشاب عن الهنود، وبعض هذه الأعشاب لم يعرفها اليونان لأنها لا تنبت إلا في أقاليم الهند وشرق آسيا، ويقال إن خالد بن يحيى البرمكي جلب بعض أطباء الهند مثل: منك، وقلبرقل، وسندباد. وكان الاتصال بالحضارة الهندية مصحوباً بتعريب كثير من المصطلحات والأسماء، مثل: زنجيل، وكافور، وخيرزان، وفلفل.

8. في فن الحروب والسياسات: وفي السياسات وفن الحرب لم يُنقل من الهندية إلى العربية إلا ثلاثة كتب، أولها: كتاب شاناك الهندي في أمر تدبير الحرب وما ينبغي للملك أن يتخذ من الرجال. وثانيهما: كتاب في أمر الأساورة والطعام والسم. وثالثها: كتاب باجهر الهندي في دراسات السيوف ونعتها وصفاتها ورسومها وعلاماتها.

9. في علم النحو: ووجدت في الهند آثار علم النحو، كباقي العلوم الأخرى، منذ الزمن القديم؛ ولم يظهر علم النحو إلى حيز الوجود في العربية واللغات الأخرى إلا بعد فترة طويلة. وقد روى البيروني عن بداية علم النحو ومنطقه رواية عجيبة توافق الرواية التي رويت عن أبي الأسود الدؤلي في النحو ونشأته. وعلاوة على علم النحو، كانت لدى العرب رغبة في علم العروض الهندي. وقد سلَّط البيروني

على هذه القضية أضواء مفصلة كتب في آخرها: "ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد قد سمع أنّ للهند موازين في الأشعار كما ظنّ به بعض الناس". ومّا يجدر ذكره أن الخليل بن أحمد عسى أن يستفيد من الهنود، لكن لا شك في أنه استفاد كثيراً من العلوم السنسكريتية. وعلى كل حال فكانت الفائدة التي حصلت عليها اللغة العربية من اللسانيات والآداب الهندية كبيرة جداً.

10. في علم الموالي: ومن الكتب التي ترجمت إلى العربية في علم الموالي كتاب "أسرار الموالي" لمؤلفه كنكه الهندي الذي ورد ذكره في كتابي "الفهرست" و"عيون الأنباء"، وكتاب "الموالي" الذي ألفه كودر الهندي، وكتاب "الموالي الكبير" الذي ألفه سنكل هندي، و"كتاب الموالي" لمؤلفه براهر.¹

كتب أخرى: وثمة عدد لا يستهان به من الكتب الهندية التي تُرجمت إلى العربية، ككتاب "علاجات الجبال"، وكتاب "أسماء عقاقير الهند" لكنكه الهندي، ومن الكتب الهندية المترجمة إلى العربية، هناك أيضاً كتاب في علاجات النساء، وهو من تأليف طبيبة الهند "روسا" التي ورد ذكرها في كتاب "الفهرست". واستفاد الرازي من هذا الكتاب فذكره في مصنفاته. وكتاب توقشنل الذي وضعه طبيب هندي يدعى "توقشنل". كما أنّ العرب أولعوا بالسيف الهندية، وسموا السيف المصنوع من حديد الهند بالمهند، وسموا كثيراً من نسائهم هنداً.²

الكتاب العرب الذين قاموا بترجمة الكتب الهندية إلى العربية: هناك عديد من علماء العرب الذين قاموا بترجمة الكتب العربية للعلماء الهنود وشعرائهم، ونذكر نبذة من هذه الكتب والعلماء:

¹ خورشيد أحمد فارق، الثقافة العربية في العهد القديم (الأردية)، ص 313-328
² راجع: د. صبيب عالم، نقل العلوم الهندية إلى اللغة العربية، موقع ثقافات، مؤسسة الفكر العربي، نشرة أفق- الاقتباس والترجمة عن الهند- جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات.- وموقع قصة الإسلام للراغب السرجاني وغيرهم.

يقول الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي عن المترجمين العرب الذين قاموا بتراجم الكتب الهندية في الفنون المختلفة في الديانة والسياسة والتاريخ والشعر:

"ومما يلاحظ أنّ الكفاح المشترك ضد القوة الاستعمارية زاد الطرفين تقارباً وتواصلًا ليس في المجال السياسي فحسب، وإنما في مجال الأدب أيضًا، فعبّر كثير من الأدباء والشعراء العرب عن تقديرهم واحترامهم للقيادات الهندية المتمثلة في "غاندي" و"نهر" و"أبو الكلام آزاد" و"إنديرا غاندي" وفي مقدمتهم الشاعران المصريان أحمد شوقي (1932-1968م) وحافظ إبراهيم (1871-1932م) والشاعر العراقي معروف الرصافي (1877-1945م) والشاعر الإماراتي محمد عبده غانم (1994-1912م) ويقول الدكتور شهاب الغانم: "وحتى زمن ليس ببعيد كان القارئ الغربي لا يكاد يعرف من أدباء شبه القارة الهندية سوى طاغور، وبالطبع الشاعر العلامة محمد إقبال الذي ترجم بعض أشعاره إلى العربية سفير مصر في باكستان عبد الوهاب عزام، والشاعر اليمني الكبير محمد محمود الزبيري، واشتهرت قصيدتا إقبال شكوى وجواب شكوى اللتان ترجمهما العلامة الهندي الأعظمي، والشاعر المصري الصاوي شعلان وغنتهما المطربة الأشهر من التعريف أمّ كلثوم، وقام الدكتور غانم نفسه بترجمة قصيدة لثلاثين شاعرًا هنديًا معروفًا أمثال غالب وطاغور ونشرتها هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث في شكل كتاب عام 2011م إلى جانب خمسين قصيدة من شعر "ساتشيتدا ناندا" وأربعين قصيدة للشاعرة "غيتا شابرا" ومجموعة "يا الله" بقلم كملا ثريا. وقاموا بتعريب الكتابين الشهيرين "لحات من تاريخ العالم" و"اكتشاف الهند" لمؤلفهما جواهر لال نهرو، وفيما ترجم الأول مجموعة من أساتذة الجامعات العرب قام بترجمة الثاني المترجم السوري المعروف الأستاذ فاضل جتكر".¹

كما ترجم محمد محمد عثمان نائف كتاب "سينما ساتيا جيت راي" من تأليف

¹ الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي، اللغة العربية في الهند، ص 188-189

تشيداناندا دارس جوبتا، وكاتب آخر هو "التطريز في الهند وباكستان: سلسلة الفنون" من تأليف شيلا بيني، وقد ترجم من قبل مروة هاشم، وفي الموسيقى ترجم الأستاذ عبد الوهاب المقالح الشاعر والكاتب والمترجم اليمني المعروف ضمن مشروع "كلمة" لهياة أبو ظبي للثقافة والتراث كتاب "موسيقى الهند" وهو من تأليف ريجنالد ماسي وجميلة ماسي، وفي موضوع الرحلات قام الدكتور إبراهيم البطشان الملحق الثقافي في السعودي السابق في الهند بالاشتراك مع باحث هندي معروف الدكتور ثمامة فيصل بترجمة كتاب "تاريخ وقائع حج" للملكة سكندر بيغم التي قامت برحلة الحج أواخر عام 1963م، وسماه بالعربية "مذكرات رحلة حج لأميرة بوفال النواب سكندر بيغم".

كما لفتت كتب الأدب والدين الكلاسيكية الهندية انتباه بعض الكُتاب العرب أمثال وديع البستاني (1954-1988م) الذي عرّب عددًا منها ولاسيما 3472 بيتاً من أصل تسعين ألف بيت من "مهاباراتا"، علماً بأنّ العلامة أبو صالح بن شعبي وهو من القرن الحادي عشر هو أول من ترجم جزءاً من هذه الملحمة إلى العربية، وكذلك قام أبو الحسن جيلي، أمين المكتبة الخاصة لقائد ديلاي بترجمة النص إلى العربية في العام 417هـ، وترجم وديع البستاني أيضاً عملين شهيرين لـ "كاليداس"، وهما "شاكوتلا" و"نال داياماتي" إلى 745 و1259 بيتاً عربياً على وجه الترتيب، وكما ذكرنا من قبل: فإنّ أبا الريحان البيروني هو من أول من عرب بعض أبيات "بهاغوت غيتا" أحد الكتب القديمة المقدسة لدى الهندوس، وترجمها كلها إلى العربية فيما بعد نثراً من قبل عالم هندي "ماخان لال شودهري" ونشرتها دوائر المعارف في حيدرآباد في العام 1951م، وترجم الأستاذ عبد الوهاب المقالح ضمن مشروع "كلمة" الإماراتي، كتاب "الغيتا- أنشودة الخلود" لمؤلفه الأستاذ أمودر ثاكور، اللغوي الهندي البارز المتخصص والناقد الأدبي المتعمق".¹

¹ المرجع السابق، ص 191-192

ملخص القول: ظهر من هذا العرض الوجيز للغاية وسرد بعض النماذج أنّ الترجمة لها أهمية لا تنكر في نقل الثقافات والحضارات من أمة إلى أخرى كما لها دور مهم في تعزيز العلاقات بين دولة وأخرى، وهي لم تزل تغني اللغات بأفضالها العلمية واللغوية. وليس هذا فحسب بل أنها أسدت صنيعها إلى أقوام دولة خاصة في بقعة أرضية محدّدة كما في بلدنا الهند حيث لعبت الترجمة دوراً فعّالاً في نقل تراث لغة إلى أخرى محلية ووطنية فترجم العديد من كتب السنسكريتية إلى الأردية كما ترجم كتب الأردية إلى الهندية والبنغالية. وبالجملة فعناية الناس بالترجمة في كل عصر ومصر وعلى كل مستوى دولي ووطني حقيقة لا تنكر.

المصادر والمراجع

1. أحمد محمود الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ت.
2. الأستاذ زج ي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، تعريب: الدكتور محمد عبد الهادي أبو زيد، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.
3. خورشيد أحمد فاروق، الثقافة العربية في العهد القديم (الأردية) ندوة المصنفين، أردو بازار، جامع مسجد، دهلي.
4. الدكتور سعيد الرحمان الأعظمي: (عنوان المقالة) اللغة العربية في الهند، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي، ط1، 2014م
5. الدكتور صهيب عالم: (عنوان المقالة) نقل العلوم الهندية إلى اللغة العربية، موقع ثقافيات، مؤسسة الفكر العربي، نشرة أفق- الاقتباس والترجمة عن الهند، جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات، وموقع قصة الإسلام للراغب السرجاني وغيرهم.
6. الدكتور محمد أحمد منصور: الترجمة بين النظرية والتطبيق، مبادئ ونصوص وقاموس للمصطلحات الإسلامية، دار الكمال للطباعة والنشر، القاهرة، 2006م.
7. الشيخ ضياء الدين الإصلاححي: (عنوان المقالة) عناية العرب بالعلوم الهندية، ترجمة: الدكتور أورنك زيب الأعظمي، مجلة الهند، المجلد: 2، العدد: 3، عدد يوليو-سبتمبر 2003م.
8. ويل وأيريل ديورانت: الهند وجيرانها، ترجمة: الدكتور نجيب، بيروت، د.ت.

دراسة تفويجية لترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية ترجمة كتاب "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" نموذجاً

- د. عبد الصبور أبو بكر¹

﴿1﴾

ملخص البحث

إنّ كتب الشيخ ابن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- من أحسن ما ألّف في تسهيل علوم الشريعة كالعقيدة والتفسير والحديث والفقه بأسلوب شيق وعبارة جزلة سهلة على منهج السلف، وكتبه قيمة مليئة بالأدلة الشرعية متضمنة بالنكات البديعة والاستنباطات الفقهية الدقيقة والفوائد الحديثية، ولها دور كبير في توعية المسلمين وتمكين الناطقين بغير العربية من فهم العقيدة الصحيحة وحمايتهم من الأفكار الضالة والآراء الشاذة. وقد عني العلماء بترجمة بعض مؤلفاته إلى لغات أخرى، ومنها إلى الأردنية، ومن أهم ما ترجم إليها كتابه المعروف: "القواعد المثلى" الذي ترجمه الشيخ عبد الله ناصر الرحمانى، ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث المتواضع.

هدف البحث:

- تفويج ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى الأردنية من خلال النص المترجم لـ "القواعد المثلى".
- التعرف على محاسن الترجمة والمآخذ عليها.
- تقديم مقترحات لحلّ مشاكل الترجمة وتعزيزها.

¹ أستاذ مساعد بالجامعة السلفية، بنارس، الهند

مشكلة البحث: تبلورت في السؤال الرئيس: كيف يمكن تحسين ترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين إلى الأردنية؟

منهج البحث: الوصفي والنقدي.

توصيات البحث:

- بناء نظام فعال لمتابعة ترجمة كتب الشيخ من قبل المتخصصين.
 - إيجاد آلية لتقويم شامل للترجمات وفق أسس موضوعية.
 - الاهتمام بترجمة بقية كتب الشيخ إلى الأردنية.
- الكلمات الافتتاحية: القواعد، المثل، الأسماء، الصفات، الترجمة والتقويم.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلاة الله وسلامه وبركاته على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإنَّ الله سبحانه وتعالى بعث كلَّ نبي إلى قومه خاصةً نفاطهم الرسل بلسانهم، وبعث نبينا محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كافة الإنس والجن؛ أرسله بالحق بشيراً ونذيراً ونسخ به الشرائع السابقة وجعل شريعته خالدة إلى يوم القيامة واختار اللغة العربية لساناً له؛ أنزل بها القرآن الكريم وتوجد بها السنة، وجعل هذه اللغة لغة الإسلام، فأصبحت لها مكانة خاصة بين المسلمين، إذ بها يناجي المسلمون ربهم خمس مرات في اليوم والليلة على الأقل وبها تراثم الديني من تفاسير القرآن وشروح الحديث وجميع المسائل العلمية والفرعية. فعلى كلِّ مسلم أن يتعلم هذه اللغة أينما كان في مشارق الأرض ومغاربها ويأخذ دينه من مصدره الحقيقي ولغته الأصلية إن استطاع إلى ذلك سبيلاً. فإن لم يستطع فعن طريق الكتب المترجمة إلى لغته من قبل العلماء

المعتبرين؛ لاسيما ما يتعلق بأصول الدين وقواعده وعلى المترجمين أن يخافوا الله فيما يترجمون من مسائل الدين وأن يختاروا الأهم فالمهم.

ومن علماء عصرنا الذين رزقهم الله الفقه في الدين وكتب لهم القبول في العرب والعجم: الشيخ ابن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ-، وهو حقاً كان فقيه الأمة في هذا العصر، نفع الله بدروسه ومحاضراته ومؤلفاته أقواماً، وما زال الناس يستفيدون منها، وقد ترجم كثير من كتبه إلى لغات العالم، ومنها: اللغة الأردنية. وفي هذا البحث قصدت أن أعرف مدى قيمة ترجمات كتب الشيخ إلى الأردنية؟ وما هي محاسنها والمآخذ عليها؟ لذا اخترت بحثاً بعنوان: "دراسة تفويجية لترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- إلى اللغة الأردنية، ترجمة كتاب (القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى) نموذجاً".

مشكلة البحث وأهميته:

أولاً: مشكلة البحث وتسائلاته:

تحدد مشكلة البحث في الإجابة على السؤال الرئيس: كيف يمكن تحسين ترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين -رَحِمَهُ اللهُ- إلى لغات أخرى لاسيما اللغة الأردنية؟ ويتفرع عن هذا السؤال الرئيس الأسئلة الفرعية الآتية:

1. ما القيمة العلمية لكتب الشيخ ابن عثيمين؟ وما أهمية ترجمتها إلى اللغة الأردنية؟
2. ما هي أهم الإيجابيات التي ظهرت من خلال تقويم ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية؟
3. ما هي أهم السلبيات التي ظهرت من خلال تقويم ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية؟
4. ما الإشكاليات الواردة في ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية؟

5. ما التصور المقترح لتعزيز ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية؟
6. ما إسهامات ترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين في نشر العقيدة الصحيحة لدى المسلمين الناطقين باللغة الأردنية؟

ثانياً: أهمية البحث:

تبرز أهمية البحث وفوائده في النقاط التالية:

1. تعلقه بنشر الدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية، والشيء يشرف بشرف متعلقه.
2. معرفة القيمة العلمية لكتب الشيخ ابن عثيمين لاسيما المترجم منها إلى اللغة الأردنية.
3. معرفة أهمية اللغة الأردنية وأهمية نقل التراث العربي إليها.
4. معرفة نقاط القوة والضعف وإزالة الإشكالات في ترجمة كتاب "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" لابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ.
5. وضع تصور مقترح لتعزيز ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية.
6. معرفة إسهامات ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين في وعي المسلمين الناطقين بالأردنية.
7. إمكانية الاستفادة من مقترحات هذه الدراسة وتنتائجها في إكمال ترجمة بقية كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية.
8. عدم وجود دراسة سابقة لموضوع البحث حسب علم الباحث رغم ما لها من أهمية.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

1. تقييم ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية من خلال دراسة ترجمة كتابه "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى".
2. تحديد نقاط القوة والضعف في ترجمة كتاب "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه

الحسنى "لابن عثيمين.

3. التعرف على أهم الإيجابيات والسلبيات في ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردية؟

4. الكشف عن إسهامات ترجمات كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردية في وعي المسلمين الناطقين بالأردية وتربيتهم وفق المنهج السلف الصالح.

5. بيان تصور مقترح لتعزيز ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردية.

الدراسات السابقة: بعد التقصي والبحث - حسب جهد الباحث - تبين له أنه لا توجد دراسة لها علاقة مباشرة بموضوع بحثه، ولكن هناك عديد من الرسائل والبحوث والمقالات التي هدفت إلى دراسة تفويمية لترجمات بعض الكتب العربية إلى اللغات الأخرى وبيان الأسس العلمية والشروط التي يجب توفرها في الترجمة. ومنها ما يلي:

1. دراسة تفويمية لواقع الترجمة المعاصرة للسنة من خلال دراسة كتاب ترجمة "الأدب المفرد"، ليم بنت رضا كيوان، بحث مقدّم إلى ندوة ترجمة السنة والسيرة النبوية، عدد صفحاته: 19، استخدمت الباحثة المنهج الاستقرائي والنقدي حيث قامت بتتبع ترجمة أحاديث كتاب "الأدب المفرد" للإمام البخاري من قبل أصحاب المواقع الإلكترونية إلى اللغة الإنجليزية ودراساتها وتقويمها وذكرت بعض الأمثلة على الترجمات الخاطئة الناجمة عن سوء الفهم أو الضعف في اللغة العربية مع تقديم تصحيح لها.

2. دراسة وتقويم كتاب "فيض الباري شرح صحيح البخاري"، للدكتور الهروي باللغة الفارسية، إعداد: د. عبد الغفور عبدالحق البلوشي، بحث مقدّم للمشاركة في ندوة ترجمة السنة والسيرة النبوية، عدد صفحاته: 75، وهدفت الدراسة إلى تقويم النص المترجم وبيان مدى التزام المترجم بالدقة في ترجمته للنص

- وإصابته وقصوره في ذلك.
3. تجرّبي مع تقويم ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية، للدكتور عادل بن محمد عطا إلياس، رسالة صغيرة، عدد صفحاتها: 66. قام الباحث بإجراء مسح شامل لترجمات إنجليزية مختلفة لسورة يوسف وبعض الآيات الأخرى مع مناقشتها وتقويمها.
4. ترجمة أوري روبين لمعاني القرآن الكريم بالعبرية، عرض وتقويم، للدكتور محمد محمود أبو غدير، هدف البحث إلى دراسة نقدية لأحدث ترجمة عبرية لمعاني القرآن الكريم لبروفيسور أوري روبين، وقدم نماذج من أخطاء المترجم في الترجمة مع معالجتها وبيان وجه الصواب فيها.
5. كتاب مناهل العرفان للزرقاني، دراسة وتقويم، للشيخ خالد بن عثمان السبت، عدد صفحاته: 1010، وهدفت الدراسة إلى الجمع بين ذكر المحاسن وإبرازها والتنبيه على المآخذ على الكتاب ومناقشتها وبيان وجه الصواب فيها.
6. ترجمة السنة النبوية إلى اللغة السويدية، عرض وتقييم عام، للشيخ عبد الحق الترككاني، بحث مقدّم إلى ندوة ترجمة السنة والسيرة النبوية، وعدد صفحاتها: 18، ولم يفصح الباحث عن منهجه إلا أنّ الظاهر أنه استخدم المنهج الوصفي، وقد أوصت الدراسة بضرورة أن تتوجه الجامعات الإسلامية إلى وضع برنامج لإعداد الطلبة لأداء مهمة الترجمة الصحيحة المتقنة وتقديم الدورات التأهيلية لهم.
7. قواعد التفسير: إشكالية المفهوم والعلاقة، دراسة تفويمية، للباحث سعود فهد العجمي، وعدد صفحاتها: 29، وهدفت الدراسة إلى تأصيل مفهوم قواعد التفسير وإزالة الإشكاليات الواردة فيه وفق الأطر العلمية، واستخدمت مناهج الاستقراء والتحليل والنقد والتقويم.

التعليق على الدراسات السابقة: في ضوء ما تمّ عرضه من الدراسات السابقة يمكن التعليق عليها من خلال أوجه الاتفاق والاختلاف بين البحث الحالي والدراسات السابقة ثم عرض أوجه الاستفادة منها.

أولاً: أوجه الاتفاق بين البحث الحالي والدراسات السابقة: يتفق البحث الحالي مع الدراسات السابقة في التعرف على أهمية ترجمة التراث الإسلامي العربي إلى لغات أخرى ومعرفة ضوابط الترجمة والشروط التي يجب توفرها في المترجم. ويتفق مع معظم الدراسات السابقة في استخدام المنهج الوصفي والنقدي كمنهج للدراسة.

ثانياً: وجه الاختلاف بين البحث الحالي والدراسات السابقة: يختلف البحث الحالي مع جميع الدراسات السابقة في موضوع الدراسة حيث لم تنطرق واحدة منها إلى دراسة تفويمية لترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين إلى اللغة الأردنية.

ثالثاً: أوجه الاستفادة من الدراسات السابقة: تستفيد الدراسة الحالية من الدراسات السابقة في صياغة مشكلة البحث وأسئلته، وبناء الإطار النظري وتحديد المنهج المناسب للبحث الحالي.

منهجية البحث: استخدم الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي والنقدي، إضافة إلى ذلك فإنه اتبع الخطوات الإجرائية الآتية:

1. عزو الآيات القرآنية إلى مواقعها بذكر اسم السورة ورقم الآية مع كتابتها بالرسم العثماني.
2. عزو الأحاديث النبوية إلى مصادرها الأصلية، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفى به، وإن كان في غيرهما ذكر درجته من خلال دراسات أهل العلم بالحديث وأقوالهم.
3. التعريف بالغريب من الألفاظ وما يحتاج إلى تعريف.
4. الالتزام بعلامات الترقيم وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

5. عمل الفهارس اللازمة على النحو المبين في الخطة.

خطة البحث: يشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة وفهارس. والمقدمة تشتمل على: سبب اختيار الموضوع، مشكلة البحث، أهمية الموضوع، أهداف البحث، الدراسات السابقة، منهج البحث وخطة البحث. والتمهيد فيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف مصطلحات البحث، وفيه: (1) تعريف الدراسة التفويجية، (2) تعريف الترجمة، (3) تعريف مؤلف كتاب "القواعد المثلى"، (4) تعريف كتاب "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" و(5) تعريف المترجم وبيان منهجه في الترجمة.

والمبحث الثاني: أهمية الترجمة وضوابطها وأسسها العلمية وبيان شروطها، وفيه: (1) تاريخ الترجمة، (2) أهمية فن الترجمة، (3) الأسس العلمية وضوابط الترجمة و(4) شروط في المترجم.

والمبحث الثالث: أهم كتب الشيخ ابن عثيمين التي ترجمت إلى اللغة الأردنية، وفيه: (1) لمحة إجمالية عن كتب الشيخ ابن عثيمين، (2) كتب الشيخ ابن عثيمين التي ترجمت إلى اللغة الأردنية (3) كتب الشيخ ابن عثيمين التي لم تترجم إلى اللغة الأردنية حتى الآن رغم حاجة الناس إليها.

الفصل الأول: محاسن ترجمة كتاب "القواعد المثلى" إلى اللغة الأردنية وإسهامها في وعي المسلمين الناطقين بالأردنية، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التزام المترجم بالدقة في ترجمة النصوص الشرعية.

المبحث الثاني: التزام المترجم بالدقة في ترجمة أغلب المصطلحات الشرعية.

- المبحث الثالث: مدى التزام المترجم بالترجمة الأدبية لنص الكتاب.
- المبحث الرابع: إسهام ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين في وعي المسلمين الناطقين باللغة الأردنية.
- الفصل الثاني: مآخذ على ترجمة كتاب "القواعد المثلثي" إلى اللغة الأردنية، وفيه سبعة مباحث:
- المبحث الأول: الأسباب العامة للضعف في الترجمة وأهم معوقاتها.
- المبحث الثاني: قصور الترجمة عن أداء المعنى المقصود في مواضع.
- المبحث الثالث: نقل بعض الكلمات في الترجمة مع وجود ترجمتها في اللغة الأردنية.
- المبحث الرابع: اختيار المترجم الترجمة الحرفية في مواضع.
- المبحث الخامس: القصور في ترجمة بعض المصطلحات الشرعية إلى الأردنية.
- المبحث السادس: خلو الكتاب من التعليقات التوضيحية على نصوص الكتاب.
- المبحث السابع: التصرف في ترجمة النص أو اختيار المعنى غير المناسب للسياق.
- الفصل الثالث: التصور المقترح لتعزيز النص المترجم وحل مشكلاته، وفيه ثلاثة مباحث:
- المبحث الأول: تقويم النص المترجم من وجهة نظر بعض العلماء المتخصصين في فن الترجمة.
- المبحث الثاني: جدول الأخطاء في النص المترجم.
- المبحث الثالث: التصور المقترح لتعزيز النص المترجم وحل النقاط الضعيفة فيه.
- الخاتمة، وفيها: (1) أهم نتائج البحث و(2) بعض المقترحات والتوصيات.
- وتم ثبت المصادر والمراجع.

التمهيد

المبحث الأول: تعريف مصطلحات البحث

أولاً: تعريف الدراسة التقويمية

التقويم لغة: قال ابن منظور: "قَوِّمَ السلعة واستقامها قدرها، والقيمة: واحدة القيم وأصله الواو لأنه يقوم مقام الشيء والقيمة ثمن الشيء بالتقويم".¹

وفي "المعجم الوسيط": التقويم مأخوذ من تقوم الشيء، أي: تبينت قيمته، واستقام الشيء: اعتدل واستوى".²

وقوم المعوج أي: أعدله وأزال اعوجاجه.³ ومنه قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (سورة التين: 4).

فمعنى التقويم: الاستقامة والاستواء والاعتدال وإزالة العوج.

التقويم اصطلاحاً: عرّفه العلماء بعدة تعاريف منها: "أن التقويم هو: عمل ومتابعة يراد به معرفة مدى صلاحية المنهج ونجاحه في التأثير على الفرد".⁴ وقيل: "هو: إعطاء قيمة لشيء ما وفقاً لمستويات وضعت أو حددت سلفاً".⁵

والتعريف الإجرائي للتقويم في نظر الباحث هو: عبارة عن الأنشطة والجهود المختلفة التي تتم من خلال جمع المعلومات والبيانات عن الكّاب المراد دراسته من أجل التعرف على إيجابياته وسلبياته، وذلك بهدف الوصول إلى نتائج تساعد على اتخاذ قرار

¹ لسان العرب، 500/12

² المعجم الوسيط، 768/2

³ انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر (3/1875)، ومعجم المصطلحات التربوية والنفسية لمحمد مصطفى زيدان (ص 26).

⁴ خصائص المدرسة النبوية لكّال محمد عيسى، ص 169

⁵ مبادئ القياس والتقويم النفسي والتقييم التربوي لمحمد أي لبة، ص 63

نحوه ومن ثم العمل على تطويره أو تعديله. ويكون ذلك وفق أسس علمية محددة.

ثانياً: تعريف الترجمة

الترجمة لغة: قال ابن منظور: "يترجم الكلام أي: ينقله من لغة إلى لغة أخرى، والشخص يسمى الترجمان، وهو الذي يفسر الكلام بلسان آخر".¹ ولك أن تضم التاء فتقول: ترجمان، والجمع: تراجم، يقال: ترجم الكلام: إذا بينه وأوضحه.²

وفي المنجد: "الترجمة هي نقل كلام من لغة إلى لغة أخرى مثل: ترجمة كتاب إلى اللاتينية وترجمة حرفية: شرح وتفسير، وترجمة آية أي: ترجمة فورية، تتم فوراً وشفهياً، ومترجم: من ينقل الكلام من لغة إلى أخرى".³

الترجمة اصطلاحاً: قال روجرت بيل: "الترجمة هي التعبير بلغة أخرى أو لغة الهدف عما عبر عنه بأخرى لغة المصدر مع الاحتفاظ بالتكافؤات الدلالية والأسلوبية".⁴ وقال الأستاذ برخوداروف: "الترجمة هي استبدال كلمة في لغة بكلمة في لغة أخرى، وذلك بدون إحداث أي تغيير في المعاني".⁵

وقيل: هي التعبير عن معنى كلام في لغة، بكلام آخر من لغة أخرى، مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده.⁶

ثالثاً: تعريف مؤلف كتاب "القواعد المثلث"

اسمه ونسبه: هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين الوهبي التيمي.

¹ لسان العرب، 65/12

² المعجم الوسيط، 83/1

³ المنجد، ص 145

⁴ الترجمة وعملاتها النظرية والتطبيق لروجرت بيل، ص 42

⁵ Essentials of the General theory of translation – Fyodorov.12

⁶ انظر: القاموس الفقهي، ص 49، وتكملة حاشية رد المحتار، 506/1

مولده ونشأته: ولد الشيخ في مدينة عنيزة، إحدى مدن القصيم في عام 1347هـ، في أسرة معروفة بالدين والاستقامة، وكان الشيخ قد رزق ذكاء وهمة عالية وحرصاً على طلب العلم منذ صغره.

شيوخه: تلمذ الشيخ على جماعة من كبار العلماء في وقته، ومن أبرزهم:

- العلامة المفسر الفقيه عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ت: 1376هـ).
- الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي (ت: 1393هـ).
- الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز (ت: 1419هـ).

آثاره العلمية: كان الشيخ صاحب التصانيف المفيدة في مجالات شتى من العقيدة والتفسير وأصوله والفقه وأصوله والحديث وعلومه والنحو والأخلاق والسلوك والمعاملات وغيرها، وتمتاز مؤلفاته بالوضوح، ويكون كلامه مدعماً بالأدلة السمعية والعقلية والتعليلات والأقيسة الصريحة بأسلوب رائع بديع. وسيأتي الكلام على كتبه في المبحث الثالث من الفصل الأول.

وفاته: توفي الشيخ -رحمه الله- بعد حياة حافلة بالبذل والعطاء في يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال سنة 1421هـ.¹

رابعاً: تعريف كتاب "القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى"

اسم الكتاب: "القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى"، والمعروف بـ "القواعد المثلى" اختصاراً.

¹ استفدت في إعداد ترجمة الشيخ رحمه الله من كتاب "ابن عثيمين الإمام الزاهد" وكتاب "الأئمة الثلاثة" للشيخ عبد المعيد المدني بالأردنية (ص 65)، ومن موقع ابن عثيمين على الإنترنت، إعداد مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين على العنوان التالي: (www.binothaimeen.com).

منهج المؤلف في الكتاب:

- 1- يهتم المؤلف بالنقل الحرفي عند ذكر أقوال الأئمة ولا يأتي بالاختصار غالباً.
 - 2- عقد ابن عثيمين في هذا الكتاب خمسة فصول، وجعل كل فصل منها يضم مسائل متنوعة كما وضع لكثير من المسائل والتفريعات عناوين فرعية خاصة.
 - 3- يعنى المؤلف ببيان غريب الألفاظ والمصطلحات حسب ما يقتضيه المقام.
 - 4- اقتبس في كثير من المباحث من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله.
 - 5- من الملامح البارزة في الكتاب أنّ الشيخ يقرّر مسألة الباب بالأدلة السمعية (الكتاب والسنة) والأدلة العقلية والإجماع والفطرة.
 - 6- يورد المؤلف خلاف أهل العلم في المسألة التي هو بصدددها.
 - 7- ينقل أقوال الأئمة بعزوها إلى قائلها مع التعليق عليها وقت الحاجة.
 - 8- في كل مبحث من مباحث الكتاب يسوق المؤلف جملة من الشبه المتعلقة بموضوعه ثم يحاول الإجابة عليها إجمالاً أو تفصيلاً.
 - 9- أطال المؤلف الكلام في مسألة المعية ونقح المسألة تنقيحاً وأوضحها إيضاحاً.
- من ميزات الكتاب:

- 1- أن جميع مباحث الكتاب يعتبر مهمة وضرورية لكل مسلم؛ لأنها تتعلق بأفضل العلوم وأشرفها، وهو علم التوحيد والعقيدة.
- 2- أن المؤلف يعدّ في العلماء الراشخين، وله اطلاع واسع في موضوع العقيدة، ولذا قد حوى الكتاب الفوائد العلمية والتحقيقات المرضية في باب العقيدة.

- 3- السمة الأدبية ظاهرة في أسلوب مؤلفه في أغلب المباحث مما يجعل القارئ يتمتع به من ناحية ويكسبه الذوق الأدبي من ناحية أخرى.
 - 4- الكتاب يعدّ من المراجع الأساسية في باب الأسماء والصفات، ولذا حظي بشهرة واسعة حتى أضحى من أكثر كتبه ذيوماً وتداولاً، وقد قرّر الكتاب في المقررات الدراسية لدى عديد من الجامعات والمدارس في العالم.
 - 5- الكتاب خالٍ من الاستطرادات والزوائد والحشو.
 - 6- حسن معالجة الشبه التي يثيرها أعداء الإسلام أو بعض المنتسبين إلى الإسلام من الطوائف والفرق والجماعات.
 - 7- جودة ترتيب الكتاب وحسن عرضه وسهولة عبارته.
- أهمية الكتاب: مما يدلّ على أهمية الكتاب وقيّمته العلمية أنّ الكتاب قد راجعه العلامة عبد العزيز بن باز -رَحِمَهُ اللهُ- وأثنى عليه ثناء عاطراً بقوله: "ألفيته كتاباً جليلاً؛ قد اشتمل على بيان عقيدة السلف الصالح في أسماء الله وصفاته، كما اشتمل على قواعد عظيمة وفوائد جمّة في باب الأسماء والصفات، وأوضح معنى المعية الواردة في كتاب الله عزَّجَلَّ الخاصة والعامة عند أهل السنة والجماعة... كما اشتمل على إنكار قول أهل التعطيل والتشبيه والتمثيل وأهل الحلول والاتحاد...".¹
- ولا يزال أهل العلم يتداولون هذا السفر القيم؛ فكم من ناظم وشارح له، وكم من معلق عليه ومفسر له، وكان ممن شرّحه سماحة الشيخ الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.
- ترجمة الكتاب إلى اللغات الأجنبية: نظراً لأهمية الكتاب قام جماعة من أهل العلم

¹ القواعد المثلى، ص 7

بترجمته إلى عدد من لغات العالم الحية، ومن اللغات التي نقل إليها الكتاب مما اطلعت عليه ما يلي:

- 1- اللغة الروسية، المترجم: إلمير كليف.
- 2- اللغة الفارسية، المترجم: عبدالله عبداللهي.
- 3- اللغة الإنجليزية، المترجم: عبدالرحمن ميدا.
- 4- اللغة البنجالية، المترجم محمد شمس الحق صديق.
- 5- اللغة الأردنية، المترجم هو الشيخ عبدالله ناصر الرحمانى، وهو موضوعنا في هذا البحث.

من شروحات الكتاب:

- 1- "شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" لل المؤلف الشيخ ابن عثيمين.
- 2- "المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" للشيخ كاملة الكواري.
- 3- "التعليق الأسنى على القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" للشيخ ياسين بن علي الحوشبي العدني.
- 4- "الفتح العلي الأعلى بشرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى" للشيخ عبيد بن عبدالله الجابري. وغيرها من الشروح.

طبعت الكتاب: للكتاب طبعت عديدة، منها:

1. طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عام 1421هـ/2001م.
2. طبعة مكتبة السنة بالقاهرة، والدار السلفية لنشر العلم، بدون سنة النشر.

3. طبعة مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، نشر: مدار الوطن للنشر 1433هـ، وهذه الطبعة هي التي اخترتها واعتمدت عليها في هذا البحث.

خامساً: تعريف المترجم وبيان منهجه في الترجمة

أولاً: تعريف المترجم: هو الشيخ أبو سلمان عبد الله ناصر بن عبد الرشيد بن رحيم بخش بن قائم الدين الرحماني، الخطيب، صاحب التصانيف والتراجم. ولد في يوم الأربعاء في 28 من شهر ديسمبر عام 1958م ببلدة كراتشي.

تعلّمه وتعلّمه: درس الشيخ المرحلة الابتدائية في "غجرانواله"، و"كراتشي"، ثم التحق بجامعة دار الحديث الرحمانية بكراتشي، وتخرج فيها عام 1395هـ، ثم التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وحصل منها على شهادة الليسانس من كلية أصول الدين عام 1402هـ، وأكمل دراسة الماجستير من وفق المدارس السلفية بباكستان عام 1405هـ.

وبعد العودة من المملكة العربية السعودية إلى وطنه المؤلف انضم الشيخ على طلب من البروفيسور محمد ظفر الله إلى "جامعة أبي بكر الإسلامية"، ولكن بعد فترة وجيزة انقطع عن التدريس بسبب توليه منصب الأمين العام لجمعية أهل الحديث بالسند، وانشغاله بالأمور الدعوية والتنظيمية بالجمعية.

شيوخه: من أبرز شيوخه:

- الشيخ حاكم علي المحدث الدهلوي.
- الشيخ بديع الدين شاه الراشدي.

¹ استفتت في إعداد هذه الترجمة من المقابلة الشخصية للشيخ الرحماني المنشورة في مجلة دعوة أهل الحديث الشهرية الصادرة من حيدرآباد، باكستان، فبراير 2015م (ص 14-17)، وموقع جمعية أهل الحديث بالسند، ويكي بيديا أردو (ur.m.wikipedia.org).

- سماحة العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

- الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

مناصبه: تقلد الشيخ ابن عثيمين مناصب عليا، فهو المؤسس والرئيس للمعهد السلفي للتعليم والتربية في كراتشي، أسسه في عام 1999م، وهو المشرف الأعلى على مركز التحقيق الإسلامي بكراتشي، وكان مديراً مسؤولاً لمجلة "دعوة أهل الحديث" الشهرية باللغة الأردنية الصادرة من جمعية أهل الحديث بالسند، وكان مدير المكتبة عبد الله بن سلام لترجمة كتب الإسلام، ومن أهم مناصبه أيضاً أنه أمير جمعية أهل الحديث بإقليم السند بباكستان.

عقيدته ورحلاته الدعوية: إن الشيخ الرحماني داعية كبير له جهود بارزة في إصلاح عقيدة الناس وكشف الشبهات وإزالة المنكرات والدفاع عن السنة النبوية. وهو خطيب بارع وقد شارك في عدة مؤتمرات وندوات في داخل باكستان وسافر في سبيل الدعوة إلى الله إلى أماكن عديدة وبلدان شتى منها المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات والبحرين ومصر وبنجلاديش.

جهوده العلمية: إن حياة الشيخ الرحماني حافلة بالبدل والعطاء، وكان مع اشتغاله بالتدريس والدعوة وإدارة المعهد وإدارة مجلة أهل الحديث وأمانة الجمعية قد بذل جهداً مشكوراً في جانب التأليف والترجمة؛ ومن أهم مؤلفاته:

1- المنهج الأسعد في ترتيب مسند الإمام أحمد، مطبوع بأربعة مجلدات.

2- منهج الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه "فتح الباري".

3- منهج المحدثين في خدمة السنة.

4- شرح الأربعين النووية.

وله جهود مشكورة في ترجمة الكتب الدينية من العربية إلى الأردية، ومن أهمها:

- 1- ترجمة "تيسير العزيز الحميد شرح كتاب التوحيد"، مطبوع في مجلدين.
 - 2- ترجمة "شرح العقيدة الواسطية" للشيخ صالح الفوزان.
 - 3- ترجمة "القواعد المثل في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى" للشيخ ابن عثيمين، وهو الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، وقد اخترت طبعة مكتبة عبد الله بن سلام لترجمة كتب الإسلامية، باكستان الطبعة الثانية.
 - 4- ترجمة "شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني" للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد.
 - 5- ترجمة "شرح لمعة الاعتقاد" للشيخ محمد بن صالح العثيمين.
 - 6- ترجمة "كتاب الولاء والبراء" للشيخ صالح الفوزان.
 - 7- ترجمة "الشهاب في كشف الشبهات عن الحجاب" للشيخ علي بن عبد الله النمي.
- وهذه الترجمات تدلّ واضحاً على أنّ الشيخ ناصر متخصص في فن الترجمة وماهر فيه، وأنّ ترجماته مقبولة لدى الناس، ويدل اختياره للكتب أنه يهتم بالعقيدة اهتماماً بالغاً. تقبل الله جهوده وجعل ذلك في ميزان حسناته.
- والشيخ في هذه الأيام على فراشه مريض منذ أشهر. أسأل الله أن يشفيه ويمتعه بالصحة والعافية.

ثانياً: منهجه في الترجمة: يمكن إبراز منهجه في ترجمة كتاب "القواعد المثل في الآتي:

1. صاغ المترجم ترجمة هذا الكتاب في قالب يجمع بين السلاسة والمتانة بحيث يتيسر فهم النص المترجم، وهضمه للقراء لاسيما الذين لهم إلمام باللغة العربية ومفرداتها.
2. حاول أن يترجم الكتاب بلغة فصيحة، ويتخللها أحياناً بذكر الأمثال البليغة

المستخدمة بالأردن، مع العلم أنّ هذه الميزة قد يعكس صفوها عندما يأتي بترجمة حرفية؛ لكنها قليلة.

3. يضيف أحياناً بعض الكلمات أو الجمل من عنده؛ للتوضيح وبيان مراد المؤلف، واضحاً إياه بين المعكوفتين غالباً¹ أو في الحاشية كما فعل عند تفسير "الدلالة بالمطابقة" و"بالتضامن" و"بالالتزام"²، وأحياناً لم يفعل ذلك كقوله: "والله المستعان"³، فالكلمة من إضافات المترجم في النصّ دون تمييز، مما يوهم أنه من أصل الكتاب.
4. يعتمد في ترجمة معاني الآيات القرآنية على ترجمة الشيخ محمد الجونا كرهى، المطبوعة من مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة النبوية.
5. يترجم النصوص الشرعية لاسيما نصوص الصفات بما يوافق مذهب أهل السنة والجماعة، وهي من أهم ميزات هذه الترجمة.

المبحث الثاني: أهمية الترجمة وضوابطه وأساسه العلمية وبيان شروطها

أولاً: تاريخ الترجمة: إنّ تاريخ الترجمة قديم منذ أن بدأ الإنسان ينطق باللغات المختلفة؛ لأنّ حاجة الإنسان لنقل فكرة وحضارة إلى غيره قديمة؛ لذا من الصعوبة بمكان تحديد الزمان الذي بدأت فيه الترجمة، ويظهر بالنظر في كتب التاريخ أنّ عملية الترجمة كانت موجودة قبل فجر الإسلام؛ حيث كان الملوك والأمراء يستقربون المترجمين للسفارة، ومراسلة بعضهم إلى بعض. ويدل على ذلك ما جاء في "صحيح البخاري" من قصة أبي سفيان مع هرقل عظيم الروم "أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا، فإن كذبتني فكذبوه، فذكر الحديث، فقال للترجمان: "قل له: إن كان ما تقول حقاً، فسيملك موضع قدي هاتين"⁴.

¹ انظر: النص المترجم للقواعد المثلى للرحماني، ص 41، 71، 85

² المصدر السابق، ص 42

³ المصدر السابق، ص 92، 194

⁴ صحيح البخاري، رقم الحديث: 7196

فقد بوب الإمام البخاري -رَحِمَهُ اللهُ- بقوله: "باب ترجمة الحكم، وهل يجوز ترجمان واحد"، وأورد تحت هذا الباب أيضاً حديث زيد بن ثابت: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتبت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه.¹

واختلف الكتاب في نشأة حركة الترجمة في الحضارة الإسلامية على قولين:

الأول: إن الجذور الأولى لحركة الترجمة إلى العربية ترجع إلى أوائل العصر الأموي، ومن ذهب إلى هذا الرأي: الجاحظ في "البيان والتبيين"² وابن النديم في "الفهرست"³ حيث ذكرا أن خالد بن يزيد- الملقب بحكيم آل مروان- كان أول من نقل في الإسلام من لغة إلى أخرى.

يقول ابن النديم عن خالد بن يزيد بن معاوية: "وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومجبة للعلوم، خطر بباله الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر، وقد تفصح بالعربية، أمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة".⁴

والثاني: إن حركة الترجمة ترجع إلى صدر الإسلام في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبتكليف منه، ومن أشهر من تعلم السريانية في عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زيد بن ثابت وقد تعلّمها في سبعة عشر يوماً،⁵ وتعلّم كذلك الفارسية والقبطية والحبشية.⁶

¹ المصدر السابق، رقم الحديث: 7195

² انظر: البيان والتبيين، 267/1

³ انظر: الفهرست، ص 300

⁴ الفهرست، ص 300

⁵ سنن أبي داود (رقم الحديث: 3645)، سنن الترمذي (رقم الحديث: 2715) ومسند الإمام أحمد (رقم الحديث: 21587) وصحيح ابن حبان (رقم الحديث: 7136).

⁶ انظر: التنبيه والإشراف للسعودي (ص 246)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم لمسكويه (274/1) والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (214/5).

والقول الثاني أصح؛ لوضوح دليله وصحته.

وقد تطورت الترجمة في العصر الأموي وما بعده، لاسيما العصر العباسي، وقد بنى الخليفة المأمون أكبر معهد للترجمة سماه "بيت الحكمة" فازدهرت حركة الترجمة ونشطت أكثر.

أما علماء الهند فقد اتجهت همهم منذ القرن الثالث عشر الهجري إلى التأليف والترجمة باللغة الأردية التي راجت، وازدهرت حتى صارت لغة التفاهم لسكان شبه القارة الهندية، فأول من ترجم معاني القرآن الكريم إلى الأردية في الهند هو الشيخ رفيع الدين الدهلوي- نجل الإمام الشاه ولي الله الدهلوي- عام 1776م، وكانت هذه الترجمة حرفية، ثم تسلسلت حركة ترجمة معاني القرآن والكتب الدينية من العربية إلى الأردية وهي كثيرة، ومن أهمها:

الكتب الستة وسنن الدارمي وموطأ الإمام مالك وشروحها مثل: "نصرة الباري بترجمة صحيح البخاري" للشيخ عبد الأول الغزنوي (ت: 1313هـ) و"فيض الباري ترجمة وشرح صحيح البخاري" للحافظ أبي الحسن السيلكوتي (ت: 1325هـ) و"إنعام المنعم بترجمة صحيح مسلم" للشيخ عبد الأول حفيد الشيخ عبد الله الغزنوي (ت: 1313هـ) و"كشف الملهم عما في مقدمة مسلم" للشيخ عبد السلام البستوي (ت: 1394هـ) و"المعلم لترجمة صحيح مسلم"، و"روض الربى شرح سنن النسائي" ورفع العجاجة شرح سنن ابن ماجه" و"كشف المغطا في ترجمة الموطأ" كلها للشيخ النواب وحيد الزمان خان الحيدر آبادي (ت: 1338هـ)، وغيرها من الترجمات.¹

ثانياً: أهمية فن الترجمة: لقد جعل الله سبحانه وتعالى تعدد ألسنة الناس من آياته البديعة، قال تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ" (سورة الروم: 22). قال ابن كثير: "وَأَخْتِلَافُ

¹ انظر: المقال بعنوان: "تقريب السنة النبوية لناطقي اللغة الأردية" للدكتور عبد الرحمن الفريوائي (ص 8، 12).

أَلَسِنَتِكُمْ" يعني: اللغات؛ فهؤلاء بلغة العرب وهؤلاء بلغات أخرى".¹

والترجمة لها دور مهم في عملية تطور الحضارات ونهضة الأمة وتشكيل الثقافة والمحتوى المعرفي واطلاع القراء على مختلف صنوف المعرفة الأدبية والفكرية والنشاط الإنساني في مجال الأدب.

يقول السيد إحسان الرحمن: "وعندما توقفت الترجمة توقفت معها عن التنامي الحضارة العربية الإسلامية، وبعد ذلك انتقل المسرح إلى الدول الأوروبية التي ترجمت العلوم من اللغة العربية أولاً إلى اللغة اللاتينية ثم إلى اللغات الأوروبية الأخرى ولحسن حظ تلك المنطقة فإنها بلغت ذروة المعرفة وأصبحت صاحبة الاحتكار في المجال العلمي. وفي الوقت الحالي يتطلع إليها كل العالم حتى يستفيد منها في المجال العلمي والأدبي".²

وأما نقل علوم الشريعة الإسلامية من العربية إلى اللغات الأجنبية فطلب شرعي، حيث إنه من أعظم وسائل الدعوة إلى الله، ونشر الحق بين الناس، وقد بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى كافة الناس. فعن جابر بن عبد الله - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس عامة".³

وقد توسعت دائرة الإسلام وشملت كثيراً من بلدان العالم، واستلزم ذلك تعليم الناس لدينهم عن طريق نقل محتوى الدين الإسلامي إلى لغات تلك الشعوب. وفي العصر الحاضر توجد دول تكتظ بملايين المسلمين من غير الناطقين باللغة العربية كإندونيسيا وأندونيسيا وباكستان وبنجلاديش ونيجيريا والهند والدعوة الإسلامية الآن في أوج حاجتها إلى من يحمل لواء ترجمة النصوص الدينية؛ لأنه لا يمكن تبليغ الرسالة الإلهية

¹ تفسير ابن كثير، 309/6

² فن الترجمة للسيد إحسان الرحمن، ص 31

³ صحيح البخاري (رقم الحديث: 335) وصحيح مسلم (رقم الحديث: 521) واللفظ للبخاري.

لسائر الخلق في شتى بقاع العالم وفق المنهج النبوي إلا إذا تم إيفهام الناس ما لهم وما عليهم، ولا يتأتى هذا إلا بمخاطبتهم، كل بلسانه ولغته؛ بل وربما بلهجته، ولا يمكن أن تقام المحجة على الناس أجمعين إلا عن طريق ترجمة الكتب الدينية إلى لغاتهم، وهذا يؤكد أهمية الترجمة وعظم الحاجة إليها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وأما مخاطبة أهل الاصطلاح باصطلاحهم ولغتهم فليس بمكروه إذا احتيج إلى ذلك. وكانت المعاني صحيحة كمخاطبة العجم: من الروم والفرس والترك بلغتهم وعرفهم، فإن هذا جائز، وحسن للحاجة... وكذلك يترجم القرآن والحديث لمن يحتاج إلى تفهيمه إياه بالترجمة".¹

ثالثاً: أسس الترجمة وضوابطها العلمية: الترجمة هي ذوق، وحقل من أهم حقول المعرفة وأمانة وفن قائم بذاته، لها أصولها وضوابطها. ومن أهم هذه الأسس والقواعد ما يأتي:

- 1- أن تكون الترجمة مطابقة لأصلها، إذ الواجب في الترجمة أن تكون صورة مطابقة للأصل المترجم منه، وافية بجميع معانيه ومقاصده، فن الأمانة أن تساويه بدقة دون زيادة ولا نقصان ولا تحريف لا سيما في النصوص الشرعية.²
- 2- الأولى للمترجم أن يختار من أنواع الترجمة، الترجمة المعنوية والتفسيرية (Paraphrase)، ويتجنب من الترجمة الحرفية (Literal translation)؛ لأن اللفظ غير العربي قد يعجز عن إدراك بلاغة اللفظ العربي.
- 3- ترك المصطلحات العربية والشرعية التي يتعذر ترجمتها إلى اللغة المترجم إليها كما هي بلفظها العربي، ويكون توضيحها في الحاشية أو بين القوسين بعد الكلمة مباشرة.
- 4- ألا يجعل الترجمة بديلاً عن النصوص والألفاظ التي تعبدنا بها الشارع كالأدعية

¹ مجموع الفتاوى، 306/3

² انظر: المرجع السابق (307/3) والمحصل للرازي (668/4).

المأثورة في الصلاة وغيرها والأذكار المندوبة، ويحسن كتابته باللغة العربية بجانب النص المترجم؛ لأنه يجب نطقه بلفظه العربي مع القدرة والاستطاعة، وإنما الغرض من ترجمته بيان معناه، فينبغي التحرز عند ترجمته، والأولى أن يترجمها في الهامش أو بين القوسين.¹

5- يجب التقيد بمنهج السلف في ترجمة ما يتعلق بالأمر العقدي والمسائل الدينية.

6- يجب استخدام اللغة السائدة المعاصرة المفهومة لدى معظم الناطقين باللغة المترجم إليها والابتعاد عن استخدام اللغة القديمة أو الكلمات المهجورة.

رابعاً: شروط في المترجم: في زماننا ظهرت برامج إلكترونية للترجمة الآلية، تقوم بالترجمة الحرفية للكلام دون مراعاة للدلالات اللغوية والذوق الفني، وفي كثير من الأحيان تكون هذه الترجمة مدعاة للضحك ومثيرة للسخرية وتفقد المصادقية والجمال بل وحتى صحتها.

ومن المعلوم أنّ الترجمة ليست مجرد نقل حرفي من لغة إلى أخرى باستخدام القواميس والمعاجم، بل لها دور كبير في تثقيف الأمم وازدهارهم ورفقهم، والمترجم يدخل القارئ إلى ثقافة أخرى، فيحتاج إلى ذوق فني ودربة وخبرة وممارسة لنشاطات الثقافتين. ولذا يجب أن يتوفر فيه من الشروط والصفات ما يأتي:

1. أن يكون المترجم على اطلاع واسع من مفردات اللغة المصدر والهدف وقواعدهما، وعلى دراية تامة بأساسيات كل من اللغتين وأصولهما؛ كمعرفة القواعد النحوية والصرفية ومعرفة الجمل والمفردات ومعانيها المتعددة حتى يتمكن من وضع الجمل والمفردات موضعها المناسب، ويكون مجيداً ومتقناً في اللغتين، وملماً بثقافتهما

¹ انظر: المحصول في علم الأصول (467/4) والمجموع شرح المذهب (299/3) والمنثور في القواعد للزركشي (282/1) والقواعد لابن رجب (ص 13).

وخصائصهما؛ حتى يستطيع التعبير عن المعاني تعبيراً دقيقاً، ويسهل عليه إمكان المقابلات بين الكلمات والمعاني في كلتا اللغتين التي تتفق، والثقافة التي ينقل منها وإليها، ويكون عرافاً بالألفاظ ومقاصدها، خبيراً بما يحيل معانيها، بصيراً بمقادير التفاوت بينها؛ لأنه إذا لم يكن متمكناً من ذلك عرّ عليه أن يترجم ترجمة صحيحة يعول عليها.¹ قال يوجين نايدا: "ينبغي أن يعرف المترجم كلتا اللغتين: اللغة المصدر واللغة المستقبلية".² وقال القلقشندي: "ينبغي للكاتب أن يتعلم لغة من يحتاج إلى مخاطبته أو مكاتبته من اللغات غير العربية".³

2. أن يكون أميناً فيما ينقله للناس من نصوص دون أن يدفعه ميل أو هوى إلى تغيير أو تبديل، وأن يبذل كل ما في وسعه للوصول إلى المعنى المقصود من النص المراد ترجمته، وذلك يتطلب منه الصبر والبحث وعدم العجلة وسؤال أهل العلم والخبرة حتى يكون عمله متقناً؛ لأن الترجمة أمانة، وأداء الأمانة مطلب شرعي يجب الالتزام به في كل شيء. قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا" (سورة النساء: 58)، وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ" (سورة الأنفال: 27).

3. أن يكون لديه خبرة وممارسة في فن الترجمة. يقول السيد إحسان الرحمن: "إن الفكرة أنه بمجرد إجادة لغتين يمكن للمترجم أن يترجم أي شيء وكل شيء، فإنها فكرة خاطئة، معرفة كل من اللغتين تكون عنصراً أساسياً للمترجم إلا أن ذلك لن يمكن شخصاً من ممارسة حرفة الترجمة كهنة".⁴

¹ انظر: الأحكام لابن حزم، 2/215

² انظر: فن الترجمة للسيد إحسان الرحمن، ص 54

³ انظر: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، 3/7

⁴ فن الترجمة، ص 55

4. أن يدرك خصوصية مصطلحات العلوم الإسلامية والاصطلاحات الشرعية واختلاف دلالاتها، مع سلامة المعتقد والمنهج، ويأخذ الحيلة أثناء ترجمتها مثل ترجمة معنى "توحيد الألوهية" وترجمة "أسماء الله الحسنى وصفاته".
5. أن يلتزم الدقة في ترجمة النص على وجهه من غير زيادة ولا نقصان مع مراعاة الوضوح، وإلا تترتب عليها مساوئ عظيمة وعواقب وخيمة بل ربما أدى إلى تحريف النص الشرعي.
6. ينبغي لمن يقوم بترجمة النصوص الشرعية الإمام بفروع العلوم الدينية مثل علوم القرآن وعلوم الحديث والأحكام الفقهية؛ كي يسهل عليه أعمال الترجمة إلى اللغات الأجنبية.

المبحث الثالث: أهم كتب الشيخ ابن عثيمين التي ترجمت إلى اللغة الأردنية

أولاً: لمحة إجمالية عن كتب الشيخ ابن عثيمين: لقد صنّف الشيخ ابن عثيمين كتباً كثيرة في مجالات شتى من العقيدة والتفسير وأصوله والحديث وعلومه والفقه وأصوله والأخلاق والسلوك والمعاملات وقد بلغ عدد مؤلفاته المطبوعة أكثر من 150 كتاباً من تصنيف وترتيب وتعليق ورسالة صغيرة وشرح وتفسير واختصار وفتوى وسؤال وسلسلة لقاءات مفتوحة ونحوها.

ومما يلاحظ على آثاره العلمية أنّ جميعها ليست من تأليف له مستقل، بل أغلبها دروس له وفتاوى في مجالس شتى سجلت في الأشرطة، ثم استفرغت منها المواد العلمية، فرتبت وطبعت على أشكال كتب ومن أهم من قام بهذه المهمة: مؤسسة ابن عثيمين الخيرية. وهذه الطريقة من التأليف معروفة منذ القديم وما زالت مستمرة.

"وتمتاز مؤلفات الشيخ بالوضوح، ووضوح في الألفاظ ووضوح في المعاني بعيدة عن التطويل الممل والتعقيد والاختصار المخل، استدلالاته مدعومة بالأدلة الصحيحة والتعليقات

والأقيسة الصريحة مع إبداع في التبويب وحسن في التقسيم فيما يحتاج إلى تقسيم... إلى غير ذلك من الأساليب البديعة التي يحل بها الكتاب حتى يخرج في أروع وأحسن لباس".¹

ومن ميزات كتبه أيضاً: أنَّ الشيخ في ترجيحاته يكون مع الدليل الصحيح ويدور معه حيث دار، متقيداً بفهم السلف، ولا يخاف في ذلك لومة لائم ولا إهانة مهين، بعيداً عن التعصب المذهبي والتزعة الشخصية عملاً بقول الإمام أحمد بن حنبل لتلميذه الميموني: "إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام".² فكتبه مليئة بالفوائد والفرائد وأقوال السلف ومسائلها منقحة محررة مدعومة بالأدلة السمعية والعقلية من غير حشو ولا تطويل، حيث تنشرح بها الصدور وتطمئن لها القلوب "ولذا أقبل الناس على كتبه إقبالاً شديداً، منقطع النظير، وما ذلك إلا لثقة الناس به؛ لما يلبسون في ذات الشيخ من الأهلية والكفاءة التامة التي ترشحه إلى إصدار الأحكام الشرعية والتصدي للفتوى والتأليف".³ وأسرد هنا بعض مؤلفات الشيخ المشهورة:

1. تفسير القرآن الكريم	2. الإمام ببعض آيات الأحكام تفسيراً واستنباطاً
3. شرح أصول في التفسير	4. التعليق على صحيح البخاري
5. التعليق على صحيح مسلم	6. فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام
7. شرح رياض الصالحين	8. تنبيه الأفهام بشرح عمدة الأحكام
9. شرح الأربعين النووية	10. شرح البيقونية في مصطلح الحديث
11. شرح العقيدة الواسطية	12. القول المفيد على كتاب التوحيد

¹ انظر: ابن عثيمين الإمام الزاهد، ص 32

² الحاوي في الفقه على مذهب الإمام أحمد لأبي طالب البصري (60/1) وسير أعلام النبلاء (296/11).

³ انظر: ابن عثيمين الإمام الزاهد، ص 32

13. تقريب التدمرية	14. القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنی
15. مجالس شهر رمضان	16. الشرح الممتع على زاد المستقنع
17. مناسك الحج والعمرة	18. تسهيل الفرائض
19. شرح قواعد ابن رجب	20. شرح الآجرومية
21. موقف المسلم من الفتن	22. المناهي اللفظية

ثانياً: كتب الشيخ ابن عثيمين التي ترجمت إلى اللغة الأردنية: في الآونة الأخيرة بفضل العلماء الخريجين في الجامعات السعودية والدعاة المشتغلين بأعمال الدعوة وتوعية الجالية الآتية من شبه القارة الهندية عبر مراكز الدعوة والمكاتب الخيرية بالمملكة العربية السعودية اعتنق كثير من الكفار الدين الإسلامي ورجع جماعة كبيرة من أهل الضلال من بدعهم وأفكارهم الضالة إلى العقيدة الصافية والحق المبين وأخرجهم الله تعالى بهم من الظلمات إلى النور. ومن أهم أساليب الدعوة لدى هؤلاء الأفاضل أنهم ترجموا كتباً نافعة للعلماء السعوديين إلى مختلف اللغات الأجنبية، ومنها إلى الأردنية، ومن العلماء البارزين الذين ترجمت كتبهم إلى الأردنية فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. وإليك قائمة هذه الكتب المترجمة حسب علمي:

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردنية	اسم المترجم	دار النشر
1	شرح أصول الإيمان	ایمان کے بنیادی اصول	مشتاق أحمد كريمي	مكتبة الدعوة، توعية الجاليات، الربوة، الرياض
			أبو المكرم بن عبد الجليل	وزارة الشؤون الإسلامية بالرياض
2	شرح ثلاثة	شریعت کے تین	عبد الكبير عبد	إدارة البحوث

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردنية	اسم المترجم	دار النشر
	الأصول	بنيادي اصولون كى شرح	القوي المباركفوري	الإسلامية، الجامعة السلفية، بنارس، الهند
3	عقيدة أهل السنة والجماعة	اهل سنت والجماعات كا عقيده	شفيق الرحمن ضياء المدني	المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات، الرياض
		عقيده اهل سنت والجماعات	عبد الرشيد أظهر	مكتبة دار السلام، الرياض
4	القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى	توحيد اسماء وصفات	عبد الله ناصر الرحماني	مكتبة عبد الله بن سلام لترجمة كتب الإسلام
5	نبذة في العقيدة الإسلامية	اسلامى عقيده	حافظ حبيب الرحمن	دار الإبلانغ، لاهور
6	العقائد الأساسية في الإسلام	اسلام كى بنيادي عقائد	غازي عزيز المباركفوري	دار السلام، الرياض
7	مباحث في أصول الفتن	شرح اصول ايمان	غازي عزيز المباركفوري	دار السلام

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردية	اسم المترجم	دار النشر
8	خطر الابتداع	بدعت کیا ہے؟	عمر فاروق سعيدى	دار الإبلانغ، لاهور
9	تفسير سورة الفاتحة	تفسير سورة الفاتحة	طارق علي بروهي	بدون
10	من الأحكام الفقهية في الطهارة والصلاة	مختصر احكام ومسائل: طهارت ونماز	أبو عدنان محمد منير قمر	دار التوحيد، بنجلور، الهند
11	حكم تارك الصلاة	نماز چھوڑنے والے کا حکم	عبد الكريم بن عبد السلام المدني	المكتبة التعاونية للدعوة والإرشاد
			أبو المكرم بن عبد الجليل	مكتب الدعوة بسلطنة 1421هـ
12	رسالة في سجود السهو	سجدہ سہو	بدون الاسم	الدار السلفية، ممباي
13	فصول في الصيام والتراويح والزكاة	روزہ، تراویح اور زکوٰۃ کے متعلق اہم احکام و مسائل	عطاء الرحمن ضياء الله	المكتب التعاوني للدعوة وتوعية الجاليات بالربوة
14	رسالة في الدماء	نسوانی طبعی خون کے احکام	رياض أحمد	عبد الله حنيف، ملتان، باكستان

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردية	اسم المترجم	دار النشر
	الطبيعية عند النساء	عورتوں کے طبعی خون	رضیة محمد إبراهيم	مطبعة سرفراز آفیسٹ، یو بی، الهند
15	ستون سؤالاً عن أحكام الحيض	احکام حیض	أبو المكرم بن عبد الجليل	مركز الدعوة بالدرعية
16	أحكام الحيض	خواتین کے مخصوص مسائل	نیاز أحمد عبد الحمد الطيب فوري	مكتبة الفهم، يو بي، الهند
17	أحكام الحيض والنفاس	حیض و نفاس کے احکام	رضیة محمد إبراهيم	مطبعة سرفراز آفیسٹ، یو بی الهند
18	مجالس شهر رمضان	مختصر مجالس رمضان	ترجمة وتلخيص: جميل أحمد المدني	مؤسسة الحرمين التحريرية
19	المداينة	ادھار کے معاملات	حافظ أحمد حماد	المكتبة الإسلامية، لاهور
20	رسالة الحجاب	پردہ	حافظ عبد الرشيد ظاهر	دار السلام، الرياض
21	الأصول من علم الأصول	مختصر اصول	بدون الاسم	المكتبة القدوسية، لاهور، باكستان
22	القواعد	القواعد الفقہیہ	أفضل سهيل	دار الإبلانغ،

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردية	اسم المترجم	دار النشر
	الفقهية			لاهور، باكستان
23	كتاب العلم	علم کے آداب	عبد القوي لقمان الكيلاني	مركز الكتاب، لاهور
24	فوائد التقوى من القرآن الكريم	تقویٰ کے ثمرات اور سعادت مند زندگی کے اسباب	عبد الله الأثري	المكتبة الرشيدية السلفية، باكستان
25	حقوق دعت إليها الفطرة	شریعت کے مقرر کردہ فطری حقوق	أبو المكرم بن عبد الجليل	مكتبة الدعوة، توعية الجاليات، الربوة
26	وقررتها الشريعة	فطری اور شرعی حقوق	رفیق أحمد السلفي	مجمع البحوث العلمية الإسلامية، نیو دہلی
27	الحقوق الأساسية في الإسلام	اسلام میں بنیادی حقوق	بدون الاسم	دار السلام، الرياض
28	انحلاف بين العلماء، أسبابه وموقفنا منه	یہ اختلاف کب تک؟	مشتاق أحمد کریمی، أبو المكرم بن عبد الجليل	جمعية الهلال التعليمية، بهار، الهند ومكتب الدعوة بسلطنة
29	من مشكلات	نوجوان اور الجھنیں	أبو سعيد وسیم عثمان المدني	دار التقوى

٢	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردنية	اسم المترجم	دار النشر
	الشباب			
30	دور المرأة في إصلاح المجتمع	اصلاح معاشره مين عورت كا کردار	أبو المكرم بن عبد الجليل	مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
31	الفتاوى المكية	فتاوى مكيه	بدون الاسم	مركز الدعوة والإرشاد
32	فتاوى أركان الإسلام	فتاوى اركان اسلام	محمد خالد سيف	دار السلام
33	فتاوى المرأة	فتاوى برائے خواتين	جمع وترتيب: محمد عبد العزيز المسند ترجمة: مصيب الرحمن بن عطاء الرحمن	مطبعة سرفراز آفيست، يو بي، الهند
34	الفتاوى	فتاوى	جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان ترجمة: محمد إبراهيم زاهد	جامعة البدر الإسلامية، ساهيوال، باكستان
35	من فتاوى ابن باز وابن	کيايہ بھی حرام	ترتيب: عبد الله بن عبد الرحمن	دار الأندلس، لاهور

م	اسم الكتاب بالعربية	اسم الكتاب بالأردية	اسم المترجم	دار النشر
	عثيمين	ہے؟	الجبرين ترجمة: عبد الله رفيق	
36	فتاوى الشيخ ابن عثيمين	فتاوى شيخ ابن عثيمين	محمد خالد سيف	مكتبة الفهم، يوني، الهند

ثالثاً: كتب الشيخ ابن عثيمين التي لم تترجم إلى اللغة الأردية حتى الآن رغم حاجة الناس إليها: إن عدد المنتسبين إلى الإسلام في شبه القارة الهندية يربو على ستمائة مليون مسلم، وهذا الكم الهائل لغة معظمهم الدينية هي الأردية، والمشتغلون بالدعوة والتعليم في شبه القارة الهندية كتبوا بالأردية، سواء كتابات لهم مستقلة أو تراجم من العربية إلى الأردية، وتستخدم اللغة الأردية في الدروس الدينية والمحاضرات والخطب. أما اللغات الأخرى فلا تستعمل إلا على نطاق ضيق، وما زال الناس يفهمون الدين الإسلامي عن طريق اللغة العربية ثم عن طريق اللغة الأردية وبعد ذلك عن طريق اللغات الأخرى.

وإذا أحصينا ما نشر من الكتب الإسلامية خلال قرن ونصف في شبه القارة الهندية، ثم قارنا بينه وبين عدد المسلمين المحتاجين إلى التوجيهات السديدة في مسائل الدين، لظهر لنا العجز وتبين النقص، فعلى العلماء أن يشمروا عن ساعد الجد والاجتهاد لسد هذه الثغرة ويبدلوا جهدهم في التصنيف والتأليف والترجمة تلبيةً لحاجات الناس وتوعيةً لهم.

وقد ترجمت- كما تقدم- مجموعة من كتب الشيخ ابن عثيمين إلى الأردية، التي استفاد منها المسلمون كثيراً في شبه القارة الهندية، ولكن هناك كتباً للشيخ لم تترجم

إلى الأردنية حتى الآن- حسب علي- رغم حاجة الناس إليها، ومن أهمها ما يلي:

1. تفسير القرآن الكريم	2. تقريب التدمرية
3. الإمام بيض آيات الأحكام تفسيراً واستنباطاً	4. الشرح الممتع على زاد المستقنع
5. شرح أصول في التفسير	6. مناسك الحج والعمرة
7. التعليق على صحيح البخاري	8. تسهيل الفرائض
9. التعليق على صحيح مسلم	10. شرح قواعد ابن رجب
11. فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام	12. شرح الآجرومية
13. تنبيه الأفهام بشرح عمدة الأحكام	14. مكارم الأخلاق
15. شرح رياض الصالحين	16. موقف المسلم من الفتن
17. شرح الأربعين النووية	18. شرح حلية طالب العلم
19. شرح البيقونية في مصطلح الحديث	20. فتاوى نور على الدرب
21. شرح العقيدة الواسطية	22. المناهي اللفظية
23. القول المفيد على كتاب التوحيد	24. الضياء اللامع من الخطب الجوامع

الفصل الأول: محاسن ترجمة كتاب "القواعد المثلى" إلى اللغة الأردنية،

وإسهامها في وعي المسلمين الناطقين بالأردنية

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التزام المترجم بالدقة في ترجمة النصوص الشرعية

إنّ ترجمة النصوص الشرعية إلى اللغات الأجنبية مهمة وفي الوقت ذاته خطيرة أيضاً، لما يترتب على الخطأ فيها من تبعات على القارئ الأعجمي، ولا سيما المسلم الجديد أو الكافر، ولذا من مهمات المترجم للكتب الدينية العربية إلى اللغات الأخرى أن

يراعي الدقة والأمانة في ترجمة النصوص الشرعية من الكتاب والسنة على خلاف النصوص الاجتماعية أو الدراسية أو حتى العلمية؛ لأنه ينبغي على ترجمة النصوص الدينية: الأحكام الشرعية من الوجوب والاستحباب والحلال والحرام والخطأ فيها قد يجعل المرء في المتاحات والمغالطات، فلو انحرفت خطوة المترجم قليلاً أو وجدت الزلة إلى قلبه سبيلاً لصار من الخاسرين في الدنيا والآخرة، فيجب عليه أن يفهم النصوص الشرعية فهماً صحيحاً، ويعرف قواعد اللغة العربية وقواعد اللغة المترجم إليها ومفرداتها معرفة تامة، ثم يراعي عند الترجمة ما يحيل به من المعاني.

ومن المقرر أنّ ترجمة نصوص القرآن والسنة إلى لغات أخرى تندرج تحت الرواية بالمعنى، وهي تجوز على القول الراجح بشروط جاءت تفاصيلها في كتب المصطلح.¹

ومن ميزات ترجمة الشيخ الرحماني لكتاب "القواعد المثلى" أنه التزم بالدقة والأمانة في نقل النصوص إلى الأردية، ومن حسن صنيعه أنه اختار لترجمة معاني الآيات القرآنية نسخة المصحف المترجمة إلى الأردية، المطبوعة تحت إشراف مجمع الملك فهد للمصحف الشريف بالمدينة النبوية، وهي ترجمة معتمدة لدى أهل العلم كما راعى الشيخ الدقة والاحترافية في ترجمة الأحاديث النبوية والآثار وأقوال السلف الصالح وترجمته لآيات الصفات وأحاديثها موافقة لمذهب السلف الصالح. وقد توجد هناك ترجمات أخرى لمعاني الآيات القرآنية إلى اللغة الأردية وهي غير معتمدة ومخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة ومعارضة لفهم السلف لنصوص الشرع. وأذكر هنا بعض الأمثلة على ذلك حتى تتجلى أهمية ترجمته من التراجم الأخرى:

- قوله تعالى: "وَجَاءَ رَبُّكَ" (سورة الفجر: 22)، ترجمه أحمد رضا (مؤسس الفرقة البريلوية) بقوله: "اور تمہارے رب کا حکم آئے".² أي: وجاء أمر ربك، فزاد

¹ انظر: فتح المغيث (138/3-139) وتدريب الراوي (532/1).

² كنز الإيمان (ترجمة معاني القرآن) لأحمد رضا البريلوي، ص 1130

كلمة في الآية عند الترجمة وهي "أمر"، وترجمه الرحمانى بقوله: "تيرارب خود آجائے گا"¹ أي: سيحيى ربك بنفسه" ولا شك أن الترجمة التي اختارها الرحمانى هي الموافقة لأقوال السلف رحمهم الله وأنّ ترجمة البريلوي مخالفة لما عليه سلف هذه الأمة؛ لأنه تأول مجيء الرب بمجيء أمره جل شأنه، وهو يتضمن إنكار صفة المجيء للرب عزّوجلّ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسير الآية السابقة: "وأنه تعالى وتقدّس بجيء يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده، فيغفر لمن يشاء من مذنبى الموحدين ويعذب من يشاء؛ كما قال تعالى: "يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ" (سورة آل عمران: 129)".²

- وقوله تعالى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ" (سورة البقرة: 210) ترجمه أحمد رضا خان البريلوي بقوله: "کاہے کا انتظار میں ہے مگر یہی کہ اللہ کا عذاب آئے چھائے ہوئے بادلوں میں"³، وترجمه الرحمانى بقوله: "کیا لوگوں کو اس بات کا انتظار ہے کہ ان کے پاس خود اللہ تعالیٰ ابر کے سائبانوں میں آجائے"⁴، والفرق بين الترجمتين واضح؛ ففي ترجمة البريلوي تأويل لإتيان الله تعالى بإتيان عذابه، وهو متضمن لإنكار صفة الإتيان للرب تعالى، وأما الترجمة التي اختارها الرحمانى فهي موافقة لما عليه السلف من إثبات صفة الإتيان لله تعالى.

قال عبدالرحمن المحمود: "وأهل السنة والجماعة يثبتون هاتين الصفتين: صفة المجيء وصفة الإتيان؛ لأن النصوص دلّت عليهما من كتاب الله، ومن سنة

¹ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 66

² الفتوى الحموية الكبرى، ص 373

³ كنز الإيمان، ص 70

⁴ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 66

رسوله. قال الله تعالى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ" (سورة البقرة: 210)، وفي آية أخرى: "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ عَائِدَتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ عَائِدَتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا" (سورة الأنعام: 158)".¹

- وقوله تعالى: "ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ" (سورة الأعراف: 54) ترجمه الدكتور طاهر القادري البريلوي بقوله: "پھر (اپنی شان کے مطابق) عرش پر استواء (یعنی اس کائنات میں اپنے حکم و اقتدار کے نظام کا اجراء) فرمایا"⁽²⁾ فعنی الاستواء على العرش عنده حسب قوله: "إجراء الله سبحانه وتعالى نظام حكمه وملكه في الخلق"، وترجم الرحمانى قوله تعالى: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ" (سورة طه: 5) بما نصه: "جورحمٰن ہے عرش پر قائم ہے"³ أي: أن الرحمن استقر على العرش"، ولا شك أن ترجمة الرحمانى موافقة لتفسير السلف. وأما القادري فقد تأول في ترجمته تأويلاً باطلاً لا دليل عليه من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة بل هو مخالف لتفسيرهم وتأويله باطل من وجوه:

أحدها: أن هذا التفسير لم يفسره أحد من السلف من سائر المسلمين من الصحابة والتابعين.

الثاني: أنه لم يثبت أن لفظ "استوى" في اللغة يأتي بمعنى: "أجرى نظام حكمه وملكه".

الثالث: أنه صرف للفظ عن ظاهره بدون أي قرينة.

قال الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: "الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال:

¹ تيسير لمعة الاعتقاد، ص 95

² عرفان القرآن (ترجمة معاني القرآن) لطاهر القادري، ص 271

³ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 82، 142

كيف، وكيف عنه مرفوع"،¹ وفي رواية: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب".²

وقال الإمام الشافعي: "آمنت بما جاء عن الله على مراد الله وبما جاء عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على مراد رسول الله".³

وقال الحافظ البيهقي: "فأما الاستواء فالمتقدمون من أصحابنا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا لا يفسرونه، ولا يتكلمون فيه كنعو مذهبهم في أمثال ذلك".⁴

وقد عبر أهل السنة والجماعة عن "الاستواء" بأربع عبارات معناها واحد، وقد ذكرها ابن القيم في النونية حيث قال:

فلهم عبارات عليها أربع قد حصلت للفارس الطعان وهي استقر وقد علا وكذلك ار تقع الذي ما فيه من نكران وكذلك قد صعد الذي هو أربع وأبو عبيدة صاحب الشيباني يختار هذا القول في تفسيره أدري من الجهمي بالقرآن⁵

المبحث الثاني: التزام المترجم بالدقة في ترجمة أغلب المصطلحات الشرعية

إنّ نقل معنى المصطلح الشرعي من اللغة المصدر إلى المعنى المكافئ له في اللغة الهدف أمر في غاية الأهمية؛ لأنّ المصطلحات الشرعية إنما هي مفاتيح فهم العقيدة والأحكام الفقهية عند المسلم العربي والأعجمي على حد سواء، فعلى المترجم أن يتحرى الدقة والوضوح في ترجمتها ليبيان مراد الشارع منها ويلتزم بالأمانة العلمية فيها.

¹ رواه البيهقي في الأسماء والصفات، رقم الحديث: 866

² المصدر السابق، رقم الحديث: 867

³ لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسي، ص 7

⁴ الأسماء والصفات، 304-303/2

⁵ نونية ابن القيم، ص 87

ونقل الألفاظ والكلمات الاصطلاحية من لغة إلى أخرى يعد من أصعب أنواع الترجمات وأعسرها، وصعوبته تكمن في قلة ألفاظ المصطلحات وكثرة معانيها، لأنّ المصطلح يتخذ للتعبير بلفظ واحد في الأعم عن معنى أو فكرة لا تستوعبها في العادة لفظة واحدة، ولهذا السبب أطلقت عليه هذه التسمية أي أنه يصطلح به على المعنى المقصود، وهذا يتطلب من المترجم أن يأتي في الترجمة بمثلها من الألفاظ والمعاني، وأن يتجنب من الترجمة الحرفية إذا كانت لا تؤدي الغرض المنشود من نقل معاني تلك المصطلحات إلى لغة أخرى، ولا يقدر عليه إلا مَنْ كان له دربة كاملة واحترافية فائقة في فن الترجمة وكان له دراية تامة بلغتين: (المترجم منها، والمترجم إليها) حتى لا يتطرق أيّ إخلال في المعنى المستهدف ولا تتقاصر الترجمة من الوصول إلى المعنى المقصود.

ومن المعلوم أنّ الدقة في الترجمة مطلب أساسي، والأمر يزداد أهمية إذا كانت تلك المصطلحات تتعلق بالأحكام الشرعية؛ لاسيما بعقائد أهل السنة والجماعة؛ لأنّ الخطأ فيها ليس خطأ في أيّ مصطلح يتعلق بالعلوم والفنون غير الإسلامية.

قال الكاظم العبودي: "قضية تعريب المصطلح العلمي، والتقني تظل كإشكالية قديمة جديدة، وهي موضوع نقاش مستمر بين المشتغلين في الحقلين: اللغوي والعلمي، نظراً لارتباطها مع تطور حركة التأليف والترجمة والتعريب رغم محاولات خصوم العربية في طمس إمكانياته الواسعة في المعاصرة والتطور والإبداع إلا أنها بقيت صامتة أمام عاديّات الزمن ولم تعد مهمشة في البعدين: القومي والدولي، وأثبتت أنها لغة لا طفولة لها ولا شيخوخة أيضاً ذلك ما وصفت به".¹

وكتاب "القواعد المثلّ" لابن عثيمين تزخر بالقواعد والضوابط والمصطلحات في باب العقيدة لاسيما ما يتعلق بالأسماء والصفات كما هو واضح من اسمه. ونحن نلاحظ في الترجمة التي بين أيدينا أنّ الرحماني قد حاول الالتزام بالإيجاز في ترجمة تلك القواعد

¹ تأملات في الخطاب الجامعي، ص 55

والمصطلحات الشرعية مع تأدية المعنى المقصود بأخصر عبارة وأخصر جملة، وقد أجاد في ترجمة أغلب تلك المصطلحات مما يعطي الترجمة قوة والمعنى المطلوب حسناً وجمالاً، وإن كان هو قد لجأ إلى ترجمة حرفية أحياناً مما يصعب على القارئ العادي فهمها وضبطها بشكل مرضي كما سيأتي ذكره في المبحث الخامس من الفصل الثاني.

ومن أمثلة ذلك:

قول المؤلف: "التوحيد" و"الشرك" و"الكفر" و"الجنة" و"النار" و"القيامة" و"السلف" وغيرها من المصطلحات الشرعية، قد استخدم المترجم نفس هذه الكلمات عند الترجمة؛ لأنّ هذه الكلمات العربية والمصطلحات الشرعية مستخدمة في الأردنية في نفس معناها، والقارئ المسلم يفهمها جيداً؛ فالأردو لغة مأخوذة من عدة لغات؛ من أهمها: اللغة العربية واللغة الفارسية.

ومن السمات البارزة التي تتوافر في هذه الترجمة أنّ الرحامي لم يلتزم في أغلب الأحوال بالترجمة الحرفية، بل همه الأكبر إيصال المعنى وإفادة القارئ وإفهامه لحتوى كتاب الأصل ليستفيد منه في إصلاح عقيدته في باب أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، وليس الكتاب مجرد ترجمة. لذا نجد أن المترجم يقدم أحياناً ترجمة بعض العبارات ويؤخر أخرى أو يزيد بعض الألفاظ في عبارة الأصل أو ينقص منها حسبما يقتضيه المقام وطبيعة اللغة الأردنية ولا شك أنه قد بذل جهداً مشكوراً في هذا الجانب.

ومن أمثلة ذلك:

قول المؤلف: "أسماء الله تعالى كلها حسنى: أي: بالغة في الحسن غاية، قال الله تعالى: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" (سورة الأعراف: 180).¹

عند ترجمة هذا الكلام قدّم الرحامي قوله تعالى: "وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى" وأخر ترجمة

¹ القواعد المثلى، ص 11

قول المؤلف: "أسماء الله تعالى كلها حسنى: أي باللغة في الحسن غايته"، نظراً لمقتضى اللغة الأردنية وتسهيلاً لفهم القارئ.¹

ومن محاسن هذه الترجمة أيضاً أننا نرى المترجم يراعى غالباً الأمانة العلمية في الترجمة ويحافظ على عبارة الأصل، وإذا زاد بعض الكلمات أو الجمل من عنده لإيضاح مقصود المؤلف فيجعل تلك الزيادة بين القوسين؛ للتمييز بين النص الأصلي، وما زاده أو يكتب في بداية الزيادة كلمة "يعني".

ومن أمثلة ذلك:

قول المؤلف: "وقالوا: إن الله سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر، وعزيز بلا عزة، وهكذا."² ترجم الرحماني هذه العبارة ثم أضاف من عنده توضيحاً لكلام المؤلف ما معناه: "يعني: إن الله سميع لكنه لا يسمع، وبصير لكنه لا يبصر، وعزيز لكنه لا يغلب".³ ولا شك أنّ هذه الإضافة من المترجم مهمة؛ لما فيها من شرح للنص الأصل ليفهم الناطق بالأردو جيداً.

ومنه كلامه الذي أضافه لتوضيح قول الشاعر: "لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد...".⁴ وبيان مراد المؤلف من إيراد البيت في كتابه وجعله بين القوسين ليعرف القارئ أنّ هذا من قبل المترجم للشرح والإيضاح.⁵

المبحث الثالث: مدى التزام المترجم بالترجمة الأدبية لنص الكتاب

مما لا شك فيه أنّ ترجمة النصوص ترجمة أدبية هي من أرقى أنواع التراجم وأنفعها

¹ انظر: النص المترجم للقواعد المثلى، ص 30

² القواعد المثلى، ص 14

³ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 36

⁴ القواعد المثلى، ص 35، وفيه: "ذوي حسب".

⁵ انظر: النص المترجم للقواعد المثلى، ص 71

وأكثرها تأثيراً في نفس القارئ كما أنّ الترجمة الأدبية تعدّ أحد أكثر أنواع الترجمة أهمية وصعوبة نسبياً؛ لاشتمالها على الخصائص والمميزات الجمالية بالإضافة لكونها أكثر أنواع الترجمة التي تواجه مشاكل في المعاني والتراكيب والدلالات الثقافية واللغوية كما أنّ الترجمة الأدبية لا تخلو من الصعوبات والتعقيدات؛ لكونها عملية تقريب بين الأساليب اللغوية والثقافية المختلفة من خلال إعادة صياغة المعنى الوارد في النص الأصل وإنتاجه وفق أساليب وقواعد لغة الهدف وبنفس الروح والأثر الجمالي الذي رسمه به كاتبه. وهذا النوع من الترجمة لا يقدر عليه إلا من له ذوق سليم وذهن مبدع وقدرة كاملة ورسوخ قدم في اللغتين معاً؛ لأنّ المترجم يحتاج إلى نقل المشاعر والأحاسيس؛ ليجعل القارئ يتعاش مع الترجمة مثل ما يتعاش معها أصحاب اللغة الأصل وهو ما لا يستطيع القيام به سوى المحترف الذي له خبرة ومهارة في فن الترجمة.

ومن المعلوم أنه لا يمكن للمترجم أن يودع في ترجمته نفس الروح البلاغي والأدبي الموجود في لغة الأصل إلا أن المترجم الماهر يهيمه تحقيق أكبر قدر ممكن من التقارب بين لغة الأصل ولغة الهدف.

قال ليوناردو بورني (Leonardo Burni): "على المترجم اختيار المكافئ أو المرادف حسب ما تقتضيه قواعد لغته الأم وألا يعتمد التطابق بين النصين وإنما الغاية هي المقاربة باعتبار القصد من الترجمة هو تحقيق أكبر قدر من التقارب بين النص المصدر والنص الهدف ومقبولية النص الهدف من حيث الخصائص الجمالية والأدبية واللغوية".¹

والكتاب الذي نحن بصدد بيان محاسنه والمآخذ عليه قد حاول فيه المترجم الرحماني جاهداً لإيصال معاني كتاب الأصل إلى لغة الهدف بصورة سهلة وعبرة ميسورة وصياغة جمالية ليتمتع به القارئ ويسهل عليه فهم الكتاب واستيعاب مقصوده من

¹ قضايا تاريخ ونظرية الترجمة الأدبية، ص 137

غير ملل ولا سامة؛ وقد أوفى بغرضه وهدفه في عدة مواضع من الكتاب إلا أن هناك مواضع غلب عليها طابع الترجمة العادية غير الأدبية؛ لتغلب نفس الكلمات العربية في الترجمة كما سيأتي بيانه بالتفصيل في الفصل الآتي.

- ومن أروع الأمثلة للترجمة الأدبية ما يأتي:
ترجمة الرحمان يلقول المؤلف: "صفات الله كلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه"¹ حيث قال في لغة الهدف: "اللہ تعالیٰ کی صفات، صفات کاملہ ہیں، ان میں کسی قسم کا کوئی نقص نہیں ہے"،² فنلاحظ في النص المترجم الدقة في التعبير والإيجاز وحسن الاختيار في الألفاظ مع تأدية المعنى تماماً للنص الأصل.
- ومنه قول الشاعر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا³
فقد أحسن الرحمان في ترجمة هذا البيت ترجمة أدبية؛ لغرض إفهام القارئ مراد الشاعر بسهولة، حيث جعله يتمتع بقراءته فيقول: "ترجمہ: لیکن میری قوم اگرچہ تعداد میں اچھی خاصی ہے مگر لڑنے میں کچھ بھی نہیں، خواہ لڑائی چھوٹی ہی کیوں نہ ہو".⁴

فن محاسن ترجمة هذا البيت أن المترجم قد تجنب تماماً عن الترجمة الحرفية وأتى بترجمة أدبية وبما يوضح مقصود الشاعر ويستوعب القارئ معناه بدون أدنى مشقة ثم إن المترجم لم يكتف بالترجمة فقط بل شرح العبارة من عنده جاعلاً إياه بين القوسين حتى يتسق الكلام ويتضح استدلال المؤلف جلياً.

¹ القواعد المثلى، ص 28

² النص المترجم للقواعد المثلى، ص 56

³ القواعد المثلى، ص 35، وفيه: "ذوي حسب".

⁴ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 71

- ومن الترجمة الأدبية الرائعة قوله: "معطله نے نصوص صفات کے ظاہری معانی سے صرف نظر کر کے خود ساختہ معانی تراش لیے جو محض ان کی بیمار عقول کی پیداوار ہیں۔ ان معانی کی تعیین میں وہ آپس میں خود بڑی حیرت و اضطراب کا شکار ہیں اور اسے وہ تاویل کا نام دیتے ہیں جو درحقیقت تحریف ہے"۔¹ وهو ترجمة لقول المؤلف: "فهؤلاء صرفوا النصوص عن ظاهرها إلى معانٍ عيَّنوها بعقولهم واضطربوا في تعيينها اضطراباً كثيراً وسمّوا ذلك تأويلاً، وهو في الحقيقة تحريف"۔²
- ومن ذلك قول المترجم: "کوئی دانا انسان یہ سوچ بھی نہیں سکتا کہ وہ اس خالق کو کہ جو ازل سے ہے اور جس سے قبل کوئی چیز نہیں تھی، مخلوق کے کان، آنکھ، ہاتھ اور پاؤں قرار دے۔ بلکہ اس فاسد معنی کے تصور ہی سے دل کانپ اٹھتا ہے، زبان گنگ ہو جاتی ہے اور بولنے کی صلاحیت کھو بیٹھتی ہے۔ خواہ یہ معنی بفرض محال تھوڑی دیر کے لیے ہی مراد لیا جائے..."۔³ وهو ترجمة لقول المؤلف: "ولا يمكن لأبيّ عاقل أن يفهم أنّ الخالق الأول الذي ليس قبله شيء يكون سمعاً وبصراً ويدا ورجلاً لمخلوق، بل إنّ هذا المعنى تشمئز منه النفس أن تتصوره ويحسر اللسان أن ينطق به ولو على سبيل الفرض والتقدير"۔⁴
- ومن مزایا هذه الترجمة أنّ المترجم ذكر بعض التعليقات المهمة؛ لإزالة غموض أو لشرح كلمة أو عبارة. وهذه التعليقات أحياناً جعلها المترجم أثناء النص، ممیزاً إياها بجعلها بين القوسين وأحياناً كتبها في الحاشية إلا أنها ليست بكثيرة بل هناك مواضع لم يعلق عليها المترجم بشيء مع أنّ المقام يقتضيه.

¹ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 104

² القواعد المثلى، ص 55

³ النص المترجم للقواعد المثلى، ص 157

⁴ القواعد المثلى، ص 89

- ومن محاسنها أنّ القارئ الأردني إذا كان ممن له ذوق في العربية ربما لا يشعر أنها نقلت من العربية إلى الأردنية بل يظن أنه تأليف مستقل وليس بترجمة وهو مما يدل على علو كعب المترجم في اللغتين معاً.
- ومن محاسنها أيضاً التزام المترجم بالدقة في اختيار الجمل والعبارات المناسبة من غير خطأ في التذكير والتأنيث مع أنّ الأمر مزلة قدم لكثير من المترجمين والباحثين والكاثرين في اللغة الأردنية.

المبحث الرابع: إسهام ترجمة كتب الشيخ ابن عثيمين في وعي المسلمين الناطقين باللغة الأردنية
إنّ جملة من كتب الشيخ ابن عثيمين قد ترجمت إلى لغات العالم الحية من الإنجليزية والفرنسية والأردنية والاندونيسية والماليزية والفارسية والبنجالية وغيرها. وسبق أن ذكرت أنّ طائفة من كتب الشيخ قد ترجمت إلى اللغة الأردنية، ومن أهمها: "القواعد المثلى في صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى" و"دور المرأة في إصلاح المجتمع" و"فوائد التقوى من القرآن الكريم".

وقد أسهمت هذه الترجمات في وعي المسلمين الناطقين بالأردن وإصلاح عقيدتهم ورجوعهم إلى منهج السلف وأخذهم من الكتاب والسنة ونبذهم التقليد والبدعة وابتعادهم عن الإشراك بالله والغلو في محبة النبي ﷺ. وقد لقيت كتب الشيخ ابن عثيمين رواجاً وقبولاً لدى عامة المسلمين لجزالة عبارته وبديع تقسيماته للمسائل المعضلة وحسن معالجته للمشكلات المعقدة وتقديمه إياها للقارئ بحلة جميلة بإيجاز واختصار.

ومما يدل على قبول كتبه لاسيما المترجم منها إلى اللغة الأردنية أنّ المسلمين الناطقين بالأردن بدأوا يبحثون عن كتبه بشدة ويفضلون قراءتها على غيرها من الكتب ويحولون كثيراً على كلامه وكتبه؛ لفهم الأحكام الشرعية ويلجأون إلى تقريراته وترجيحاته في المعضلات ومسائل الخلاف وإذا ذكر أمامهم قول الشيخ ورأيه وترجيحه فيطمئنون إليها ويسلمون بها ونجد الآن العلماء والدعاة يذكرون رأي الشيخ

وموقفه من المسائل الفقهية على المنابر وفي الدروس والخطب.

وقد مضت فترة من الزمن على بلاد القارة الهندية وجد فيها من العلماء السلفيين فضلاً عن غيرهم من كان يخطئ في تقرير المسائل العقديّة المتعلقة بأسماء الله وصفاته وإن كان هو قوياً في تقرير توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية؛ لأنه قد تأثر بمذهب الأشاعرة في باب الأسماء والصفات من غير قصد؛ لشيوع مذهبهم في أغلب بلدان العالم، فالعالم القوي في العقيدة والتمسك بالكتاب والسنة وداعي الناس إلى عقيدة أهل السنة والجماعة أيضاً لم يسلم من التأثير بموقفهم من الأسماء والصفات ولم يسلم من أخطاء وزلات في هذا الجانب، وكتب العلماء شاهدة عدل على ذلك. ومن رموز السلفيين وقائديهم في زمانهم قد زلت أقدامهم في هذا الباب أمثال الشاه ولي الله المحدث الدهلوي والشاه عبد العزيز الدهلوي والأمير صديق حسن القنوجي ومحمد إسماعيل غجرانواله وعبد العزيز الرحيم آبادي وغيرهم.

ومن أبرز جهود ابن عثيمين عنايته بعلم التوحيد وجعله جوهر العلوم وأساسها، ومن أهم مؤلفاته فيه كتابه الشهير: "القواعد المثلى"، وللكتاب دور ملموس في إصلاح عقيدة المسلمين وإسهام فاعل في توعية المسلمين في شتى بقاع العالم. فكم من أناس رجعوا إلى الحق وتمسكوا بعقيدة أهل السنة والجماعة ومنهج السلف الصالح بفضل الله سبحانه وتعالى ثم بفضل هذا الكتاب العظيم.

ولقد اعتنى الشيخ ابن عثيمين بتقرير توحيد الأسماء والصفات في كتبه عموماً وفي تفسيره خصوصاً؛ فإن الناظر في تفسيره يرى ذلك ظاهراً جلياً، وسبب عنايته في ذلك أمران:

الأول: كثرة التأويل في أسماء الله وصفاته عند المفسرين فأراد أن يجعل من تفسيره مقررًا لمذهب أهل السنة والجماعة في هذا النوع من التوحيد مع بيان المخالفين والرد عليهم.

والثاني: ما صرح به في قوله: "وهذا القسم من التوحيد هو الذي ضلّت فيه بعض

الأمة الإسلامية وانقسموا فيه إلى فرق كثيرة".¹

وقال في موضع آخر بعد كلامه عن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية: "لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو القسم الثالث، وهو توحيد الأسماء والصفات: هذا هو الذي كثر فيه الخوض فانقسم الناس فيه إلى ثلاثة أقسام، وهم: ممثل ومعتل ومعتدل والمعتل: إما مكذب، أو محرف".²

وقد قرّر الشيخ توحيد الأسماء والصفات على منهج السلف رحمهم الله؛ فإذا مرّ على آية تدل على ذلك أشار إليها، وبين وجه دلالتها على صحة هذا المنهج في أسماء الله وصفاته. وتطبيقات ذلك كثيرة ظاهرة في تفسيره.

وقد كتب الله لكاتبه "القواعد المثلّية" القبول في الناس على صغر حجمه، فانتفع به المسلمون عامة وطلاب العلم خاصة.

ونظراً لدور الكتاب الفعال في توعية الناشئين والجيل الجديد أدخله بعض أصحاب الجامعات والمدارس الإسلامية في الهند في مقرراتهم الدراسية مثل الجامعة السلفية بمدينة بنارس وأهل العلم يستفيدون من ترجمة الكتاب للشيخ الرحمانى إلى اللغة الأردنية لحل مشكلاته وفهم معانيه.

¹ القول المفيد، 17/1

² شرح العقيدة الواسطية، 29/1

رواية "الوشاح المدنس": دراسة في القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية

- أ.د. مجيب الرحمن¹

تمهيد وتلخيص

تعدّ رواية "مايلا آنشل" (الوشاح المدنس) رواية بلغة "هندي" من أهم الروايات في أدب لغة الـ"هندي"، لغة الهند الرسمية الأولى، بعد رواية "غودان" لمنشي برهم تشاند، تقوم شهرة الكاتب فانيشوار ناث رينو (1921-1977م) على استحدثاته فناً جديداً للرواية المحلية الإقليمية مصوراً فيه الحياة الريفية بشتى مظاهرها وتجلياتها المحلية والإقليمية، فاستطاع بذلك أن يرسم في رواياته وقصصه وخصوصاً في رواية "مايلا آنشل"، صورة واقعية ودقيقة لحياة أهل القرى ولا سيما في منطقة شمال شرق بهار التي كان ينحدر منها الكاتب. وهي رواية إقليمية بالمعنى الحقيقي بتمظهرات وتجليات اللون المحلي فيها في اللهجة وأسلوب الحياة والخرافات والمعتقدات والمهرجانات وثقافة سكان الريف. الشخصيات وأدوارها تتناسب مع المنطقة وتتميز بالخصائص المحلية، وتبرز المنطقة بحد ذاتها شخصية حية وتلعب دوراً حيويّاً على مسرح الأحداث.

وهي الرواية الأولى للكاتب وصدرت في عام 1954م بعد سبع سنوات من استقلال الهند وست سنوات من اغتيال شخصية غاندي التي هيمنت على أجواء الرواية في مطلع الأربعينيات من القرن العشرين ابتداء من الحركة الوطنية "ارحلوا عن الهند" لعام 1942م والتطورات السياسية المتسارعة التي قادت إلى استقلال الهند في 15 أغسطس 1947م والاضطرابات الطائفية الواسعة النطاق التي رافقت استقلال الهند وعقبها أيضاً إلى حين اغتيال غاندي في 30 يناير 1948م، وحظيت الرواية

¹ أستاذ، مركز الدراسات العربية والأفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند

بشهرة واسعة رسخت مكانة كاتبها كأحد كبار الكُتّاب في الأدب الهندي إذ استطاعت الرواية أن تغير بشكل جذري أنماط السرد السائدة في الروايات الهندية.

وهي رواية واقعية اجتماعية بامتياز حيث تصور بانوراما القضايا السياسية والاجتماعية في حياة أهل القرى وعلى رأسها استبداد النظام الطبقي، والإقطاعية وما لهما من أثر خطير على حياة القرويين متمثلاً في تفشي الجهل والأمية وسيطرة الأوهام والخرافات واستغلال القبليين والمنبوذين ورجال الطبقات الدنيا على أيدي رجال الطبقات العليا، ونشأة الوعي السياسي القومي، وصعود التيارات السياسية المختلفة من اليمين والوسط واليسار وتقاطعها على مستويات عديدة، والمساعي من أجل نشر الفكر التنويري من خلال الشخصية الرئيسة الطبيب برشانت كومار.

تُرجمت الرواية إلى العربية ونشرت في دائرة السياحة والثقافة بأبوظبي الإمارات العربية المتحدة في نوفمبر 2021م، ترجمها كاتب هذا البحث د. مجيب الرحمن.

الكلمات المفتاحية: الرواية الإقليمية، الأدب الهندي، اللهجة المحلية، الخرافات والأوهام والمعتقدات، البراهمة، الراجبوت، ال ياداف، القبليون، المنبوذون، اليمين، الوسط، اليسار، غاندي.

نبذة عن حياة الكاتب فانيشوار ناث رينو: الاسم الحقيقي للكاتب الهندي الشهير فانيشوار ناث هو "فانيندرا ناث موخوبادياي"، ولد في عائلة بنغالية في طبقة البراهمة. وفي وقت لاحق أضاف الاسم المستعار "رينو" إلى اسمه. ولد في 4 مارس 1921م في قرية تسمى "أوراخي هينغنا"، بالقرب من منطقة "فورييسغانج" في مقاطعة "أرريا" في شرق ولاية بيهار.

تعليمه: أكمل المرحلة الأولى من تعليمه المدرسي في فورييسغانج وأرريا. ثم حصل على شهادة الثانوية العامة من "بيراتاغار أدارش فيديالايا"، في بيراتاغار، الواقعة في نيبال، على بعد 12 كم فقط من فورييسغانج التي تقع على حدود نيبال. وأثناء دراسته في نيبال، أقام مع عائلة كويرالا المشهورة في نيبال. وفي عام 1942م، أكمل شهادة الثانوية

العليا من جامعة "كاشي هندو ويشوويادليه" (جامعة بنارس الهندوسية).

المشاركة في حركة استقلال الهند: شارك رينوفي حركة 1942م "ارحلوا عن الهند" لعام 1942م، ضد الاستعمار البريطاني. وفي عام 1950م شارك أيضاً في الحركة الثورية في نيپال ضد حكم سلالة رانا في نيپال، وتخصت الحركة عن إحلال الحكم الديموقراطي في نيپال.

إنجازات أدبية وفنية: في عام 1954م، نُشرت روايته الأولى باللغة الهندية "مايلا آنشل"، أو الوشاح المدنس، أحدثت الرواية ثورة في الأدب الهندي، وفي عام 1966م كتب سيناريو وحوار لفيلم "تيسري قسم" (اليمين الثالثة)، بناءً على قصته "ماري غائي غولفام" وكان الفيلم من إخراج باسو باتاشاريا وإنتاج شايلندرا شايلندرا وتمثيل الممثل الشهير راج كابور والممثلة الشهيرة وحيدة رحمان، وحصل الفيلم على الجائزة الوطنية لأفضل فيلم روائي في عام 1967م¹ رغم إخفاقه على شبك التذاكر، ويعد من كلاسيكات سينما بوليوود، وفي عام 2017م، أنتج فيلم بوليوود "باننشلايت" الذي كان مبنياً على قصته القصيرة بنفس الاسم، وسبق أن أنتج وأذيع فيلم تلفزيوني بناءً على هذه القصة.²

ومن أعماله الأخرى في مجال الرواية والقصة القصيرة والمذكّرة:

بارتي باريكاتا، (رواية)، وجلوس (رواية)، وكريشاي كي كاهاني (رواية)، وكيثني شوراهي (رواية)، فالتو بابو رود (رواية)، إس جال برالاي مين (رواية)، ورينجال دنجال (مذكّرة)، فان تولسي كي غاند (مذكّرة)، وشروت أشروت بورفا (مذكّرة)، وتوتابور (مذكّرة)، وباننشلايت (قصة).

حظي رينو باحترام كبير من قبل مؤلفيه المعاصرين وكان صديقاً حميماً للشاعر

¹ https://en.wikipedia.org/wiki/Teesri_Kasam تاريخ الزيارة 05.02.2022

² <https://www.beaninspiner.com/phanishwar-nath-renu-the-great-hindi-writer-2>

05.01.2022 تاريخ الزيارة /who-is-ranked-next-to-munshi-premchand

الهندي الأسطوري "ساتشيناندا هيراناندا فاستايانا آغي" كما كان له ارتباط وثيق بالروائي البنغالي "ساتينات بهادوري"، وعلى مستوى النشاط السياسي كان من أتباع جاي براكاش نارايان ومن أشد المعجبين به.

وكان فانيشوار نات رينو ضليعاً في اللغتين البنغالية والنيبالية إلى جانب براعته في لغة الهندي. وهو يعدّ الكاتب الأكثر نفوذاً في الأدب الهندي في حقبة ما بعد برهم تشاند.

مُنح الكاتب في عام 1970م، جائزة الدولة التقديرية "بادام شري" من طرف حكومة الهند ومما يحسب له أنه ردّ الجائزة في عام 1975م احتجاجاً على حالة الطوارئ التي فرضت على الهند¹ وإساءة المعاملة إلى مرشده جاي براكاش نارايان.

حياته الشخصية: تزوج رينو ثلاث سيدات، تزوج أولاً السيدة "رينا رينو"، وطلقها ثم تزوج السيدة بادما وطلقها، وتزوج أخيراً السيدة لاتيكا في عام 1951م والتي التقى بها في باتنا حين كان يخضع للعلاج في مستشفى كلية باتنا للطب في باتنا وهي الأخرى كانت تعمل ممرضة. اقترح ابنه بادما باراغ رينو مجال السياسة وانتخب عضواً في الجمعية التشريعية في ولاية بهار من دائرة فوريسغانج، بينما يدير الابن الأصغر داكينشوار رينو منظمة غير حكومية تسمى "رينو سماج سيوا سانسثان"، وأما ابنته الكبرى كافيتا روي ابنته من زوجته الثانية رينا رينو فهي تسكن في مدينة كتيهار في حالة بؤس وشقاء ومالي.²

ملخص قصير للقصة: حصل الضرائب ويشوا نات براساد، بحكم عمله في إدارة تحصيل الضرائب، استطاع أن يمتلك مساحات شاسعة من الأراضي حوالي ألف "بيغها"، وأصبح واحداً من الملاك الكبار ومن ذوي نفوذ كبير في ميري غنج

¹ راجكومار هانساداه

<https://www.beaninspiner.com/phanishwar-nath-renu-the-great-hindi-writer-who-is-ranked-next-to-munshi-premchand>

² https://en.wikipedia.org/wiki/Phanishwar_Nath_Renu تاريخ الزيارة 05.01.2022

والمنطقة بكاملها. تعاني ابنته الوحيدة "كاملي" من مرض يؤدي إلى نوبات. يتخرج الطبيب برشانت (دكتور بابو) من كلية الطب في مدينة باتنا ويُنتخب ليُبتعث إلى ألمانيا للتعليم العالي على نفقة الحكومة الهندية، ولكنه يفضل العمل في هذه المنطقة النائية في قرية ميرى غانج في مديرية بورنيا التي ينتشر فيها مرض الملاريا والحمى السوداء والعديد من الأوبئة الأخرى، حيث يحمل الناس إيماناً أكبر بالمشعوذين والكهنة ورجال الدين من طبقة البراهمة من إيمانهم بالاستشفاء بالطب الحديث أو العلاج الغربي، حيث الفقر نفسه هو أكبر مرض يصيب الناس، بالإضافة إلى الافتقار إلى وسائل الراحة الأساسية، يفتقر الناس إلى التعليم والإيمان بالحكومة والاستشفاء الحديث.. يبذل الطبيب برشانت قصارى جهوده لمحاربة أمراض الملاريا والحمى السوداء وفوق ذلك يكافح سيطرة الأوهام والخرافات والعزلات في أذهان الناس وعقولهم وقلة ثقتهم بالطب الحديث، ويجري بحوثه لإيجاد علاج لمرض الحمى السوداء والكوليرا الذي اجتاحت المنطقة وكاد أن يبيد السكان. "كاملي" ابنة محصل الضرائب ويشواناث، ذات جمال أخاذ، تخضع للعلاج بيد الطبيب وتقع في حبها والطبيب هو الآخر يبادلها حبه.

قرية ميرى غنج تأخذ اسمها من السيدة البريطانية "ميرى" زوجة الموظف البريطاني مارتن التي أصيبت بالحمى السوداء التي حصدت حياتها، فأراد السيد مارتن أن يبنى مستشفى في القرية تخليداً لذكرها، ولكن جنّ جنونه بعد موت زوجته، وكان مارتن قبل موته قد أهدى قطعة من الأرض لبناء المستشفى في القرية، تبدأ أحداث الرواية بعمليات بناء المستشفى في القرية ومشاركة أهل القرية في البناء.

وعلى صعيد آخر، تعيش لاكشمي في صومعة في ميرى غنج، وتلعب الصومعة دوراً محورياً في حياة أهل القرية حيث يجتمعون للجلسات التعبدية والاستماع إلى المواعظ الدينية وتخدم لاكشمي الكاهن سيوadas المسؤول عن الصومعة الذي يستغلها جنسياً، فليس مسموحاً له، كونه كاهناً دينياً، إقامة علاقة جنسية مع

أيّ امرأة، ولكن المسكينة واليتيمة تتحمل كل تصرفات الكاهن المهينة، ويحاول بالديف، من طبقة الياذاف ومن قرية شننبتى أن يتقرب إلى لاكشمي الجميلة وتولد في نفس كل منهما مشاعر الحب بعضهما للبعض، وتغادر لاكشمي الصومعة لتعيش، بعد وفاة الكاهن سيواداس وتولي الخادم رامداس مسؤولية إدارة الصومعة، في إحدى ضواحي قرية ميري غنج، مع بالديف المناضل والمشارك في حركة استقلال الهند ومن أشد المعجبين بغاندي وأتباعه ويلقي الخطب باللغة الهندية يحث فيها الناس على المشاركة في حركة استقلال الهند واتباع تعليمات غاندي.

ومن جهة أخرى، هناك شخصية كالشرن، المعروفة بـ"كالي" وهو متأثر بالفكر الشيوعي واليساري ويشارك بحماسة في أنشطة الحركة اليسارية، وإحدى الشخصيات الأسطورية هي شخصية شاليتار كارما كار اليساري الثوري الذي يسطو على الأثرياء وينهب منهم الأموال ليوزع على الفقراء ولا يرى بأساً في قتل الأثرياء والإقطاعيين، الجدير بالذكر أنّ هؤلاء اليساريين هم فئة في الكونغريس ولكنهم يتسوا من الكونغرس في أمر تنفيذ المبادئ الاشتراكية فاختاروا نهجاً اشتراكياً ثورياً لتغيير المجتمع المتجذر في التقاليد البالية والأوهام والخرافات والتقسيمات الطبقية الصارمة والقاسية والذهنية الإقطاعية المستغلة والمستبدة لدى الإقطاعيين وملاك الأراضي.

الطبيب برشانت الذي يحزن حزناً كبيراً على الأوضاع البائسة في المجتمع الريفي من جراء سيطرة الأوهام والخرافات وقسوة النظام الطبقي يبذل ما بوسعه من جهود لإحداث فرق في حياة هؤلاء البؤساء، وذات مرة يتجمع رجال قبيلة السانتال الذين كانوا يسكنون على هامش القرية وقاموا باجتثاث شتلات الأرز في حقل جابي الضرائب، وتعارك رجال السانتال وأهل قرية ميري غنج، سقط فيها ضحايا في كلا الطرفين؛ السانتال ورجال ميري غنج، وقام الطبيب بعلاج المصابين في كلا

الطرفين، ورفعت الشكوى إلى الشرطة ضد الطبيب برشانت كومار بتهمة تخريض السانتال على العنف، ونشر الكوليرا في أرجاء القرية... وإحالة سكان القرية ضعفاء بالحقن، وألقت الشرطة القبض عليه ورمته في السجن، وفي أثناء ذلك اكتشفت أمّ كاملي أن ابنتها كاملي حامل من علاقة "غير شرعية" مع الطبيب، ما يثير غضب والدها جاجي الضرائب ويشواناث براساد، وكاد أن يقتل ابنته ونفسه دفاعاً عن شرف العائلة، وتحبس كاملي نفسها في مستودع حبوب والدها لكيلا ينكشف سرّها أمام القرية، ومع مرور الأيام يزداد حبها للطبيب وتشتاق له أكثر فأكثر، وتكتب له رسالة حبّ تكشف له أول مرة أنها تحمل في رحمها جنينه، وتنتظر بشدة عودته، وقد أطلق سراحه من السجن بعد سبعة شهور، ويقرأ الطبيب الرسالة في طريقه من السجن إلى ميري غنج برفقة أخته الطيبة مامتا، ويغمر الفرح والسرور بيت الجاجي، وأشيع في القرية أنّ الطبيب برشانت وكاملي كانا قد تزوّجا سرّاً زواج غاندهارا، وبموجبه يكون الأب هو أول من يرى المولود الجديد، ولذلك لم يتم الإعلان عن هذا الزواج، ويعلن الجاجي إقامة وليمة فاخرة لجميع أهالي القرية ويتعهد بأنه يرد خمس "بيغهاوات" من الأراضي لكل أسرة من أسر المزارعين.

وفي هذه الأثناء يصل خبر اغتيال غاندي، وتغرق القرية كلها في حزن عميق، وقيمون حفلات عزاء ومأتم، في دلالة واضحة على مكانة غاندي العظيمة في نفوس الهنود حتى في المناطق النائية والريفية وفداحة الخسارة التي أصيبت بها الهند بمقتل غاندي قائد استقلال الهند الأسطوري.

طيف واسع من الشخصيات: تحفل الرواية بمجموعة واسعة بل ومنمنمة من الشخصيات التي تشارك في سياسة القرية القائمة على النظام الطبقي، فإلى جانب كاليشرن وبالديف هناك "بافان داس القزم" المقرّب جدّاً إلى غاندي ومن الأتباع المخلصين له جدّاً، ويضحى بحياته في سبيل محاربة الفساد المستشري في طبقة الساسة الهنود بعيد استقلال الهند وذلك في قرية كليم فور الواقعة على الحدود بين الهند

وباكستان، وفيها شخصية العمّ جيوتخي النجومي من طبقة البراهمة، الذي بدوره يمثل القوى الرجعية في القرية، وأصحاب القبعات السوداء المناضلين لإقامة دولة هندوسية، وشخصية خيلاوان سينغ ياداف رئيس طبقة الياداف، وشخصية سومريت داس "المخبر اللاسلكي" الذي يذيع الأخبار في أرجاء القرية، وهناك عشرات من الشخصيات الثانوية التي تلعب أدوارها على مسرح الأحداث في القرية التي تتقاطع مع الأحداث الوطنية في خضم حركة استقلال الهند، وعلى الصعيد القومي فقد جاء ذكر كل من جواهر لال نهرو، وسردار بالاب بائي باتيل، وجاي براكاش نارايان، وكثيرين آخرين من زعماء حزب المؤتمر، وقد حاول الروائي أن يبرز تشكل الوعي القومي والسياسي في هذه المرحلة الحاسمة من التاريخ الهندي حتى في القرى النائية والمتخلفة مثل قرية ميرى غنج على الرغم من تخلفها الشديد مثل باقي قرى الهند.

الروايات الإقليمية عادة تحفل بعدد كبير من الشخصيات لكي تصور بواقعية نماذج متنوعة جداً من الشخصيات في القرية، وعليه "فإن رواية مايلان آنشل"، "تزرع ب200 شخصية تمثل مختلف طبقات وشرائح ومجموعات بشرية من القرية وجوانب البنية الاجتماعية الريفية، ولقد جاءت أدوار الشخصيات النسائية في الرواية متوافقة تماماً مع أدوارهن في الحياة الاجتماعية الريفية".¹

الفولكلور ومظاهر الحياة الشعبية الثقافية: تتميز الرواية بتقديمها لكل ألوان الحياة الريفية الشعبية، من الأغاني الشعبية، والمهرجانات، والأسواق الريفية الأسبوعية التي كانت تقام ومازالت تقام في الهند، وتمثل جوهر الحياة الاقتصادية لسكان القرى والأرياف، والمسرحية الشعبية التي تسمى "نوتكي"، ومباريات المصارعة، واجتماعات مجلس القرية، وقرع الطبول على إيقاع الموسيقى والألحان المخصصة، والتراتيل الدينية التي كانت تملأ أصواتها الأجواء في الصباح، وعلى الرغم من

¹ إيه. بي. باندي: Regional sensitivity in Renu's novel "Maila Aanchal", Variorum

تعذر فهمها على القارئ غير الهندي إلا أنّ الألقان والتراتيل الشعبية الواردة في النص هي تعبير حقيقي عن مظاهر الحياة الشعبية الريفية ومدى ثراء الحياة الثقافية على الرغم من شدة الفقر الذي عانت أغلبية سكان القرى والأرياف في هذه المنطقة المتخلفة. كما رسمت الرواية مشاهد بارعة لموسم الحصاد في القرى وما رافقه من احتفالية شعبية من رقصة "نوتكي"، والابتهاج الشعبي على حلول موسم المطر وما يرتبط به من احتفاليات، "قدم رينو تحفة فنية رائعة لحياة أهل القرى على غرار ما قام به ليوتولستوي أو تشارلز ديكنز وتشيفوف، وموغام ولورانس، مع تميزها بنكهة محلية رائعة، لم تبلغ أية رواية هندية هذا المستوى من الإحاطة الدقيقة والبارعة والشاملة بصور وألوان الحياة المحلية بكل بساطتها وراثتها معاً".¹

وإذا كان كاتب لغة أجنبية كتب رواية كهذه لثم الاحتفاء به مليون مرة أكثر مما تم الاحتفاء بالرواية، وما من شك في أنّ الكاتب رينو يضاهي عمالقة الأدب الهندي من منشي برهم تشاند، ورامداري سينغ دينكار، وهريفانش راى باتشان، ودارامفير بهاراتي، وأجيا، وياش بال، وجيشانكار براساد، على سبيل المثال لا الحصر.²

النظام الطبقي في القرية: من أبرز سمات المجتمع الهندي على امتداد تاريخه الطويل هي توزيعه على طبقات، "فالنظام الاجتماعي في الهند يقوم على الطبقات، وهناك أربع طبقات رئيسة تفرعت منها مئات بل ألوف من الطبقات، الطبقة الأولى هي طبقة البراهمة وهي الطبقة العليا وتمثل الكهنوت أو رجال الدين وتليها طبقة "تشاريا" أي طبقة المحاربين والمدافعين عن الدولة، وتليها طبقة "وايشيا" أي طبقة التجار وأخراها وأدناها منزلة طبقة "الشودرا"، أي طبقة المنبوذين ورجالها يقومون بالأعمال اليدوية التافهة وخلقوا فقط لخدموا الطبقات العليا. وهنا ذكر الكاتب أنّ قرية ميري

¹¹ <https://www.beaninspiner.com/phanishwar-nath-renu-the-great-hindi-writer-11>

05.01.2022 تاريخ الزيارة /who-is-ranked-next-to-munshi-premchand

²² راجكومار هانسانداز: <https://www.beaninspiner.com/phanishwar-nath-renu-the-great-22>

10.01.2022 تاريخ الزيارة /hindi-writer-who-is-ranked-next-to-munshi-premchand

غنج موزعة على أحياء بناء على انتماء رجالها إلى الطبقات، فالبراهمة لهم حيّ خاص، وطبقة راجبوت التي تنحدر أصلاً من الطبقة الثانية "تشارتيا"، حيّ خاص، وطبقة "كايست" لها حيّ خاص، ولفئات مختلفة من طبقة المنبوذين أحياء خاصة بها بحسب المهنة التي تزاو لها طبقة معينة".¹

ويصوّر الكاتب هذا بقوله "يوجد الآن في القرية ثلاث فصائل رئيسة: طبقة الكايست، وطبقة الراجبوت، وطبقة الياداف، أما البراهمة فما زالوا يقومون بدور الوسيط، وأما بقية أفراد القرية فهم موالون حسب مصالحهم إلى هذه الفصائل الثلاث الرئيسة".²

وعن تواجد عشرات الطبقات في القرية المتفرعة من الطبقات الأربع الأساسية يقول الكاتب "الأحياء موزعة على الطبقات مثل حيّ بوليياتولي، وحيّ تانتريميا-وتشارتري تولي، وحيّ ياداف وانثي، وحيّ تشتري تولي، وحيّ غهلوت تشتري تولي، وحيّ كورم تشاتري تولي، وحيّ أماتي براهن تولي أي قرية البراهمة، وحيّ دهانوك دهارى وتشتري تولين وحيّ كوشواها تشاتري تولي".³

وقد صوّر الكاتب الصراع الحاد بين الطبقات بناء على انتماءاتها ومصالحها الاقتصادية وتنافسها على القوة في مجتمع القرية، كما هو الحال في المجتمع الريفي بالهند، والحال نفسه في المدن أيضاً، فالنظام الطبقي متجذر في المجتمع الهندي، ولم يستطع المجتمع أن يتخلص من بطش هذا النظام الصارم حتى بعد مضي أكثر من سبعين سنة بعد استقلال الهند واعتمادها دستوراً هو أكثر دساتير العالم تنويراً وتقدمية التي تكفل الحقوق المتساوية لكل المواطنين بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والطبقية والعرقية واللغوية وما إلى ذلك، وقد صوّر الكاتب ببراعة هذا التحزب الطبقي في مجتمع

¹ رواية الوشاح المدنس، تعليق المترجم في الهامش، ص 24

² الرواية، ص 21

³ الرواية، ص 24

القرية: "توارث رجال طبقتي "راجبوت" و"كايست" الحقد والضغينة والتناحر كلباً عن كلب. أما البراهمة فكان عددهم قليلاً، ولذلك، قاموا تقليدياً بدور الوسيط. ومنذ مدة اكتسب رجال طبقة "الياداف" النفوذ، غير أنهم لم يحظوا بالقبول عند الراجبوت حتى بعد تقلدهم خيط "جانيو" المقدس، بل ظلوا يعبرون أفراد طبقة الياداف من حين إلى آخر".¹

وللطبقات قواعد الصارمة التي لا يمكن مخالفتها أو فك قيودها "إذا تمّ الاستخفاف بقواعد الطبقة ولو قليلاً ستكون هناك فوضى. ولو لم تجر الأمور بشكل سلس كما جرت في اجتماع مجلس القرية، لكانوا خسروا الوليعة".²

انتشار الأمية والجهل والفقر في القرية: وتصور الرواية ببراعة وبصراحة كبيرة مدى انتشار الجهل وال الأمية في مجتمع القرية في منتصف القرية إبان استقلال الهند، وقد جاء ذلك أحياناً عن طريق السرد، وأخرى، على لسان البطل الطبيب برشانت كومار، يقول الكاتب عن معدل القراءة في هذه القرية الكبيرة التي تضم عدداً من الأحياء الموزعة على الطبقات "لا يتعدى عدد المثقفين في قرية ميرى غنج عشرة أشخاص، و"المثقف" يعني القادر على التوقيع وإمسك دفاتر الحسابات، إضافة إلى خمسة عشر شخصاً يتعلمون القراءة. المحاصيل الرئيسة للقرية هي الرز وعدس "خيساري"، والجوت، وأحياناً تجود الطبيعة بمحصول الخريف".³

"قبل رؤيته (أي الطبيب برشانت) لأشجار المانجو المحملة بالثمار فكر في الضعفاء والمساكين يقتاتون على لباب البذور الجافة لثمار المانجو. أليس هؤلاء من البشر؟ من السفاهة أن تتوقع هؤلاء الجوعانين والعطشى ألا يتورطوا في الفساد أو لا يحتاجوا على المشاكل. وعلى الرغم من فقرهم وبؤسهم تحلوا بالصبر والأناة وأظهروا مستوى عالياً

¹ الرواية، ص 20.

² الرواية، ص 403

³ الرواية ص 22

من الانضباط ما أعجب الدكتور كثيراً وملاً نفسه بمشاعر الإجلال تجاههم¹.
ويستغرب البطل حجم المعاناة التي يتكبدها البشر في هذا العصر، ولماذا يجد ويحتج لإيجاد علاج الملاريا والحمى السوداء والناس هنا لا يملكون ما يسدّ رمقهم "ما الفائدة من تحسر المرء على أحوال هؤلاء الناس وتحضيره لقائمة طويلة من الفيتامينات وتوزيعها عليهم؟... والرجال الذين قدموا هنا وسعوا لتحذير الناس من أخطار الملاريا من خلال الشرائع التقديمية، وكتابة الإجراءات الاحترازية على اللوحات الإرشادية مع رسم صور البعوض...ربما جاء هؤلاء الرجال من كوكب آخر؟²

ويمضي الكاتب في سرد شقاء أهل القرية "وكان الناس يعتبرون الحصول على زيت الخردل لكي يمسحوا به أبدانهم من الأمور الكالية، ناهيك عن حصولهم على المادة الذي دي تي (إيثان ثلاثي كلور ثنائي فينيل ثنائي الكلور) والناموسية. أما الزيوت المعطرة فلا يتوفر عليها إلا الإقطاعيون. وفي الجنة تسمح الحوريات أبدان المتقين بالزيوت المعطرة.³

"غير أنه (الطبيب) فقد اهتمامه في أنابيب الفحص المليئة بالدماء مؤخراً. فما الفائدة من استكشاف إكسير الحياة؟ لم تكن لديه حاجة إلى ذلك الدواء. فكر في نفسه أنه قد يكون من الأفضل أن يموت المرء من الملاريا بدلاً من أن يموت جوعاً وفقراً. أليس من الظلم إبقاؤهم على قيد الحياة ليعيشوا حياة تعيسة بأثمة. ... يُحكى أنّ المهاتما غاندي أوصى ذات مرة بقتل العجل بالرصاص الذي كان يتلوّى من الألم. لقد حرص على أن ينعم الإنسان بالصحة والسلامة حتى يستمتع بجمال العالم الجديد؟ ولكن أين "الإنسانية" هنا؟ فأولاً يجب عليه أن يحيل الحيوان إلى إنسان".⁴

¹ الرواية ص 300

² الرواية ص 301

³ الرواية ص 301

⁴ الرواية، ص 362

ويقول في موضع آخر "منذ أيام بدأ الطبيب يجلس عند الخالة وقتاً أطول. وطوال وجوده في بيت الخالة، كان يحسّ بأنه في ظلّ مريح، ولم يشعر برغبة في العمل، وبدأ أنّ حماسه تجرّ مثل الكحول، ماذا يجني من خدمة الإنسان؟

افرض أنّه قام باكتشاف دواء للحمّى السوداء أو اكتشف قارورة صغيرة تحمل ترياق الحياة؟ فإذا بعد هذا؟ سيحدث ما لا ينفكّ يحدث منذ قديم الزّمان. ستُباع الأدوية في النهاية بأثمان باهظة، ستُباع جرعة خمس آنات بخمسين روبية، ولن تتوفر الأدوية في القرى على أيّ حال...

وماذا سيفعل الناس هنا بالحياة الطويلة؟ أيّ نوع من الحياة هذه؟ الناس هنا أكثر طواعية من الحيوان، وأشدّ منه شراسة في الوقت ذاته. بطنه أكبر نقيصة له، وقد قيّدته تقاليد المجتمع وقوانينه الكثيرة بمئات من الأذرع، وجعلته عاجزاً. ومع ذلك فهو يحبّ الحياة، ويريد أن يساعدهم، إلّا أنّ سيؤول الأمر؟¹

وعلى هذا النحو تصور الرواية مظاهر الفقر والبؤس والجهل والأمية وخيبة الأمل في مجتمع القرية إبان استقلال الهند من الاستعمار البريطاني.

استغلال الضعفاء والفقراء على أيدي الإقطاعيين وملاك الأراضي: وتفرض الرواية خطباً شديداً القوة مناوئاً لاستغلال الإقطاعيين وملاك الأراضي الكبار لفقراء ومساكين القرية ومعظمهم من الطبقات الدنيا، فالمصيبة أدهي وأمر، وفوق ذلك لا يملك معظمهم أراضي أو يملكون قطعاً صغيرة منها ويعملون على حرث أراضي الملاك بالمناصفة أو يشتغلون عمالاً لدى الإقطاعيين، وتحفل الرواية بمشاهد هذا الاستغلال المفطر للقلوب ولا سيما في غير موسم الحصاد حين لا يملك المزارعون الفقراء المحاصيل ليقتاتوا بها، فيقترضون من الإقطاعيين بنسبة عالية من الربا، وحين يعجزون عن تسديد الديون يصادر الإقطاعي أراضيهم، ويكونون قد أخذوا مسبقاً بصمات إبهام هؤلاء المساكين والفقراء، يقول البطل برشانت كومار:

¹ الرواية، ص 490

"والذي أبقى هؤلاء المساكين على قيد الحياة هو التربة السوداء للحقول: تربة مرطوبة وخصبة جادت بالمحاصيل الوفرة. ألم تكن الأرض أمّا لهم؟ ولكن سوف يخسرون قريباً الحق في أن تطأها أقدامهم. وحتى قبل أن تُسن القوانين بدأ الناس يوجدون الحيل لمنعهم (أي المزارعين الفقراء) من دخولها. واليوم صارت ذهنية الناس هي امتصاص آخر قطرة من الدم من هؤلاء المساكين. والذين ملكوا آلاف فدان من الأراضي جد حريصين وطامعين للحصول على خمسة "بيغهاوات" إضافية من الأراضي. والذين لا يملكون الأراضي هم ليسوا بشراً وإنما هم حيوانات".¹

"كان "ماهانغو داس" مديوناً لساهديف ميسراً، وُجدت لدى ساهديف ميسرا ورقة بيضاء تحمل بصمة إبهام مانغهوداس- إنه يقدر على أن يفعل ما شاء مع ماهانغو داس. يمكنه أن يأخذ بقرتين وأربعة عجول بعد فكّ حبلها من الودد. وعلاوة على ذلك، يتولّى ساهديف إطعامه منذ سنة كاملة. فالعامل لا يستطيع أن يملأ بطنه بالأجور التي يتقاضاها من عمله اليومي".²

الاستقلال وخيبة الأمل في بزوغ فجر جديد: يقول الناقد الأدبي وأستاذ الأدب الإنجليزي ساتشينااند جها في مقالة منشورة له في جريدة "ذي دايلى غارديان" إنّ رواية الوشاح المدنس تحكي لنا قصة أمة صاعدة تسعى جاهدة للخلاص من أغلال الحكم البريطاني، ولكنها للأسف غرقت من جديد في جميع أنواع الممارسات الرجعية المتمثلة في التضخم المادي الجامح وغير الأخلاقي جراء الفساد المتفشى في الطبقات السياسية. هذه الشرعية الاجتماعية التي بدأت تكتسبها ممارسات الفساد في القرى الهندية مباشرة بعد الاستقلال يفسر بداية تجربتنا ما بعد الاستعمار في الهند الحديثة".³

تحدّد رواية الوشاح المدنس مصادر تدهور قيمنا القومية وتشخص حالات التدهور

¹ الرواية ص 301

² الرواية ص 187

³ ساتشينااند جها، جريدة ذي دايلى غارديان، مايو 21، 2021

<https://theguardian.com/why-renus-maila-aanchal-remains-relevant-in-covid-times>

للقيم والمبادئ النبيلة التي حلم بها وهتف بها ونادى إليها المناضلون القوميون للاستقلال، الذين ضحّوا بالغالي والنفيس في سبيل تحرير الهند من براثن الاستعمار من أجل إقامة دولة حديثة ديمقراطية تسودها قيم الحرية والعدالة والمساواة وتكافؤ الفرص للجميع وتكون خالية من الفساد الذي نخر كيان المجتمع في ظل الاستعمار الغاشم وذلك تحت قيادة المهاتما غاندي المهمة، ففي حين أسهم بریم تشاند إلى إعادة إيقاظ الوعي الوطني لدى المواطنين الهنود في الربع الأول من القرن العشرين إلى حين وفاته في عام 1936م من خلال إبداعاته المبهرة التي أبرز فيها فكرة غاندي ليؤثر في تشكيل الوعي القومي، أخبرنا رينو- من خلال سرده الثري، وعبر شخصيات الدكتور برشانت كومار وحييته كاملي وشخصية بافان داس، بالزوال الممنهج والخطير لمبادئ غاندي النبيلة خلال السنوات الأولى من استقلال الهند.

وعن تورط أعضاء الكونغرس في الفساد جاء على لسان إحدى الشخصيات ".... يا للعجب، كم علبة من الحمص غبها المرء حسب قول زعيمنا؟ لقد تورط الوزير من حزب الكونغرس في بيع ألف علبة من الحمص في السوق السوداء. ومن هنا فإنّ الناس ابتعدوا عن تدخين الشيشة في الأرياف. وفي مثل هذا الحال اضطر الناس إلى تدخين لفائف التبغ المحلية. ومن أين يمكنهم شراء علبة الحمص عند تدخينهم الشيشة. لقد تم بيعها في السوق السوداء. وهذا يمثّل ظلماً".¹

وعن تفشي الفساد في الدوائر السياسية أورد الكاتب على لسان بافان داس "يبدو أنّ الكل يعيش في "باتنا" هذه الأيام، وهنا يسكن كل أعضاء المجلس التشريعي للولاية. لقد حققنا الاستقلال، هذا زمن القيادي "شوتان بابو"، عشرات من المحتالين والمتعاملين في الأسواق السوداء يتسكعون في المحاكم، يقدمون تحية إجلال لكبار الشخصيات، إنها أزمة وكارثة كبيرة وتوقف بافان داس لحظة".²

¹ الرواية، ص 177

² الرواية، ص 490

"لقد انتقل هذا المرض (مرض الفساد) من الأعلى إلى الأسفل، وهو داء "باتنا". وهو الآن ينتشر انتشار النار في الهشيم. كل الطبقات بما فيها "بهوميهار"، و"راجبوت"، و"كلايست"، و"ياداف" و"المنبوذين"، تتعارك فيما بينها... وفي الانتخابات القادمة سوف ينتخب الأعضاء للمجلس التشريعي ثلاثة أضعاف للعدد الحالي، لذلك هم يتعاضدون بعضهم مع البعض... كل الأحزاب سواء. كل الزعماء الكبار في الحزب الاشتراكي يتخاصمون ليصبحوا كبار الوزراء، كلهم يريدون ليصبحوا عضواً في المجلس التشريعي، أو وزيراً في الحكومة، يا بالديف الغالي، فسواء عملوا لأجل الوطن أو للفقراء، أو للعمال، كل هذا يصب في المصلحة الشخصية، كل واحد يطمح إلى تحقيق مآربه الشخصية".¹

وعلى هذه الشاكلة تعكس الرواية على نحو بارع ومؤثر كيف بدأ غاندي يفقد أهميته على نحو متزايد في أعقاب الاستقلال مباشرة في الخطاب الاجتماعي والسياسي الهندي والحياة العامة إلى أن اغتيل في 30 يناير 1948م التي يرمز إليها مقتل بافان داس القزم- الأعز عند غاندي والذي نذر حياته لنشر مبادئ غاندي- في كليم فور على الحدود بين الهند وباكستان على أيدي المسؤولين بالتواطؤ مع زعماء الحزب الحاكم الذين تورطوا في الفساد وتضخموا على حساب المبادئ النبيلة التي أسست عليها الدولة الحديثة بعد كل هذه التضحيات الجسيمة. من الصعوبة بمكان محو الذاكرة المرتبطة بشخصية بافان داس المخلصة وغير العنيفة التي مثلت شخصية غاندي نفسه. تبرز الرواية تلك الأحلام المحطمة التي تصوّر القوميون مثل غاندي ولكن السياسيين المنافقين والآخرين ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم حطموا تلك الآمال بجشعهم وجهلهم وانتهازيتهم، وبالتالي سلّط رينو الضوء على المفاهيم والأولويات الخاطئة لهذه الطبقة الجديدة التي احتكرت موارد الدولة الحديثة وهيمنت على أركان ومفاصل الحكومة وحلّت محل الأسياد البريطانيين،

¹ الرواية من صفحة 490 إلى 491.

ولعل الكاتب يريد أن يؤكد أنّ هذا الفجر الجديد ليس الفجر الذي حلم به القوميون المناضلون، إنه فجر مشوب بالظلام، وهذه الحرية هي عبودية من نوع آخر للملايين من الفقراء والضعفاء والمهمشين الذين لا تعني الحرية لهم سوى استبدال طائفة من الحكام بطائفة أخرى لا تختلف عن الأولى، لنرى ماذا يقول إحدى الشخصيات الرئيسية "كاليشرن" في الرواية: "عاش جاي براكاش الذي قال: "الحرية زيف وخداع حين يموت الشعب جوعاً"¹.

ويصبح المشهد أكثر مأساوية وقمامة مع مقتل غاندي بعد بضعة شهور فقط من استقلال الهند، قتل غاندي إنما هو قتل لمبادئه التي رمز إليها مقتل بافان داس بعد أن مرّت على جسمه خمسون عربة وهو يحاول التصدي للمهربين عند الحدود الهندية الباكستانية، وثم تلقى جثته في النهر الذي يفصل بين الهند وباكستان، وكأنّ العربات لم تدهس بافان داس- رمز غاندي في الرواية- لتقتله بل لتقتل مبادئه في الهند المستقلة، وقد جاء على لسان أحد الشخص "لقد مثل المهاتما غاندي الأمل الوحيد بالنسبة لنا، ولكنهم قتلوه أيضاً. اسألوا بالديف من سيأخذ مكان المهاتما غاندي بعده، جواهرلال نهرو؟ ولكن كان غاندي لا يرتدي إلا لباساً بسيطاً من القادي"².

توجهات تقدمية والقومية المشتركة: حفلت الرواية بمواقف تؤكد توجه الكاتب التقدمي الطامح إلى بناء هند ذات الطابع التنويري والتقدمي، وهي تنعكس بوضوح وقوة في شخصية الدكتور برشانت كومار الذي بعد أن أكمل بحثه الطبي بنجاح، صار يتمتع بشعبية كبيرة بين أولئك الذين عاملوه باحترام كبير كطبيب شهير للملاريا من ميري غنج. وأكدت له أبحاثه العلمية أنّ بعوضة الأنوفيليس الأنوفيلة وبعوضة الحمى السوداء هي مسؤولة عن انتشار الملاريا. لكن بحثه الروحي كشف له أنّ الحشرتين

¹ الرواية، ص 386

² الرواية، ص 504

الأخرين المسؤولين عن المواقف المؤلمة في القرى هما الفقر والجهل. "وقد اكتشف (الدكتور) أسباب المرض الحقيقية - الفقر والجهل. وهما ناقلان للمرض، وهما أخطر من بعوضة الأنوفيليس، وأكثر سمية من بعوضة الحمى السوداء. لعله من الأفضل إعطاء خلفية قبل كتابة التقرير مثلما قام به كالي شرن في بداية خطبته التي ألقاها أمام الفلاحين حيث قال: "يتمتع هؤلاء الرأسماليون والإقطاعيون دماء الناس مثل البعوضة وبق الفراش..... ولذلك معظم أسماء طبقة "مارواري" أي طبقة التجار تنتهي بحروف "مال". وعلى هذا الغرار يُخاطبُ ابن الإقطاعي، بكلمة "مستر"، التي تنسجم مع كلمة "مشتر" أي البعوض".¹

يحاول الدكتور برشانت نشر الوعي بين الناس كي ينهضوا للتصدي للإقطاعيين وملاك الأراضي من أجل استعادة حقوقهم، لأنّ الأراضي التي يمتلكها الملاك هي ملك لهم. تسأل اليساري كاليشرن "لمن الأراضي؟" ... للذين يزرعونها. الذي يحرق الأرض فهو سيزرعها، ومن يزرعها فهو سيحصدها. وسيعيش من يكسب، هذا الشعار هو الذي يجب أن يسود".²

وبحسب الدكتور إيه بي باندي: "فإنّ جهود الدكتور برشانت من أجل خلق وتعميم حساسية جديدة بين المظلومين هي بالتأكيد تمثل خطوة قوية نحو الحداثة، ويجب الاعتراف بدور رينو الكبير في نشر الوعي الحداثي".³

ويقترح الدكتور برشانت أنّ النظام الحالي قد أصبح بالياً ويجب هدمه للبناء على أنقاضه هيكلاً جديداً "إن وجد صدع في الجدار الآيل إلى الانهيار فنّ الأفضل أن نسمحه بأن ينهار، إلى متى سيستمر جدار هذا المجتمع قائماً بهذه التشققات والصدوع.

¹ الرواية، ص 303

² الرواية، ص 171

³ إيه. بي. باندي: Regional sensitivity in Renu's novel "Maila Aanchal", Variorum

Multispecialty Research Journal, Vol. 1,-04, Issue 1, 2013 ص 7

...استحضر بعض الآيات من كلام الشاعر هانس كومانر تيفاري -

لقد جمع العالم الخطب
دعوني أرمي الشرارة فيه¹

ومن ناحية أخرى ثمة مواقف عديدة في الرواية تؤكد على ضرورة الوثام الطائفي بين المسلمين والهندوس والذي وضعه غاندي في صميم حركته النضالية، لأنّ غاندي كان يؤمن بأنّه من دون الوحدة بين المسلمين والهندوس لن تستطيع الهند أن تمضي قدماً نحو بناء الهند التي حلم بها وناضل من أجلها، ومن هنالك لم يرتض غاندي أبداً بالتخلي عن الوحدة بين الهندوس والمسلمين "وقال لهم بالديف: "إخوتي الأعزاء، سمعت قبل قليل الأنباء على مذياع الدكتور، يحيط بنا الظلام من كل جهة، ويبدو أنّ الأمور كلها اضطربت وفسدت، مازال غاندي المحترم يقول منذ أيام "حركة الخلافة": "إنّ المسلمين والهندوس إخوة، وقد أكد هذه الفكرة السيد "تيواري المحترم" في أغنيته الشهيرة قبل خمسة عشر أو عشرين عاماً:

ليشرق الهلال في المعبد،

ليُعرف الناي في المسجد،

ليتحد الهندوس والمسلمون

ولينبذوا تفاخرهم الزائف

"فالذين فشلوا في اتباع تعليمات غاندي وعاثوا في الأرض فساداً بسبب جهلهم، ونشروا الظلام في كل مكان، سيدركون خطأهم يوماً...".²

الاتجاه الطائفي: لقد رصد الكاتب في الوشاح المدنس كل الاتجاهات والتيارات

¹ الرواية، ص 303

² الرواية، ص 396.

السياسية من اليمين واليسار والوسط في محيط القرية السياسي، وتمثل الأخير في فكر حزب المؤتمر وهو الاتجاه الغالب على مسرح الأحداث والشخصية الرئيسة فيه هي شخصية غاندي المهيمنة على أجواء الرواية، وشخصيات بافان داس وبالديف وأعضاء حزب المؤتمر الآخرين، فيما تم تمثيل الاتجاه اليساري في شخصية كاليشرن وأعضاء الحزب الاشتراكي، أما التيار اليميني فقد تم تمثيله في أصحاب القبعة السوداء الذين نادوا بتأسيس دولة هندوسية وحملوا كراهية ضد المسلمين: "وحاضر السيد سانيجاك ذو القبعة السوداء كل يوم قائلاً "يحق للهندوس الأصليين من الطبقة الآرية فقط أن يعيشوا في هذا البلد. لقد دمر المسلمون ثقافة بلدنا وديانتنا وفنوننا. والآن يتبع الهندوس ثقافة بريرية. لو كان شيفا جي أو ماهارانا برتاب حياً لما تحل كل هذا".¹ وجاء على لسان جابي الضرائب الجديد هارغوري بشأن التعاون مع المسلمين "أيها السيد سانيجاك، لا أحمل ضغينة في قلبي ضد المسلمين. لكنني أريد أن أقطع رؤوس الهندوس الذين يوالون للمسلمين".² وعن خلو القرية من السكان المسلمين يقول هارغوري: "لعل اسم ميري غنج صار الآن "آريا برات" (مسكن الآريين). فلا يوجد مسلم في هذه القرية".³ كما أورد الكاتب على لسان أحد أصحاب القميص الأسود والقبعة السوداء "مثلها انتقل منصب جابي الضرائب من طبقة "كايست" إلى أيدي طبقة راجبوت سوف يعود حكم بلاد الآريين (أي مملكة الهند) إلى الهندوس، وعندئذ سوف ترفرف راية الحكم الهندوسي في ربوع الهند وأرجائها كلها".⁴

الشخصيات الإسلامية في الرواية قليلة جداً، إحداها جمعاتي ميان، وقد ورد ذكره في سياق عدم موثوقية المسلمين "وضع باسوديث على عينيه نظارته السوداء وقال:

¹ الرواية، ص 203

² الرواية، ص 203

³ الرواية، ص 203

⁴ الرواية، ص 235

ذلك الرجل جمعراتي ميان، اشتكى إلى كالي شرن بأنك اقتنصت منه مبلغاً من المال. لا يمكنك الوثوق بالمسلمين في هذه الأيام".¹

الشخصية المسلمة الأخرى هي شخصية قمر الدين، وهو شخص متورط في الفساد ومن أنصار "مسلم ليغ" (العصبة الإسلامية)، والشخصية الوحيدة التي قدمها الكاتب في صورة مضيئة هي شخصية السياسي المسلم مظهر الحق الذي كان من كبار مناضلي الحرية ومن رفقاء غاندي المقربين "صاحبنا مظهر الحق ضحى بما عنده من غال ورخيص لصالح الوطن".²

الأمل والتفاؤل وسط الظلام الحالك: لا يدع الكاتب نفسه يفلت خيط الأمل في النهاية حتى في أحلك الظروف كهذه، فجاءت النهاية مرضية باجتماع الحبيبين برشانت وكاملي بعد سراحه من السجن واحتضانه لطفله الرضيع "نيلوبتال" وعودة الفرح والبهجة على وجوه أهالي القرية ورجوع النضارة إلى البشرة الباهتة بعد إعلان جابي الضرائب ويشوانات براساد بأنه سوف يرد خمس "بيغهاوات" من الأراضي لكل أسرة المزارعين، ويستحضر الطبيب برشانت كومار قول مامتا له "ليس بحثك فاشلاً، هذا الحب العميق للتربة والإنسانية لا يمكن صنعه في مختبر".³ وعندئذ يقرر الطبيب أنه سيستقر في هذه القرية بين هؤلاء الناس الذين غمروه بالحب، ليعمل ما بوسعه ليصلح حالهم، هو الآخر اليتيم الذي لا يعرف له نسب، وتحتضنه عائلة كريمة وتربيه وثقافته ليشتغل في الناس كطبيب باحث طبق صيته في الأرجاء، "مامتا، قررت أن أبدأ عملي هنا من جديد- في هذه القرية بالتحديد. أريد أن أعمل في حقول الحب، نباتاتها ستعمو وتزدهر في الأرض المرطوبة بماء الدموع. سوف أكرّس نفسي لها، هنا لطرف ساري الهند الأم التي تسكن في القرى. أتمنى أن أوفق في إعادة البسمة إلى بعض الوجوه في

¹ الرواية، ص 399

² الرواية، ص 150.

³ الرواية، ص 522.

قرية واحدة فقط، وأتمنى أن أزرع الأمل والثقة في قلوبهم".¹

مع أنّ العالم كله غارق في الجنون، جنون التسلح النووي الذي كاد أن يهلك الحرث والنسل ويقضي على الكوكب الأرضي في الوقت الذي يعاني فيه مئات الملايين من الجوع، بالكاد يحصلون على ما يسدّ رمقهم ويستر عورتهم، ما هذه الدنيا يا إلهي، ويستغرب الكاتب هذا التقدم العلمي المذهل الذي يعجز عن تلبية الحاجات الأساسية للبشر وبدلاً من توظيف العلماء قوة العلم في سبيل خدمة الإنسان يسخرونها لتصنيع الأسلحة الفتاكة المدمرة...يا للسخافة ويا للجهالة!

المختبر!... أي معمل تجريبي عظيم، محاط بجدران عالية؛ تشغل جماعات العلماء في البحث والتجريب تحت إشراف زملاء الساسة الطامعين للسلطة...الأضواء الخضراء الحمراء تومض على رؤوسهم الصلعاء، وبدج قوات الموت، والدمار، والهلاك يصنعون قبلة يمكنها أن تقضي على العالم كله...بشق الذرة...نحن عالقون في شبكة العنكبوت. يحيط الظلام الحالك بكل مكان. لقد تبجّر كل شيء.. المادة والروح...الجسم والروح.. مجموعة قليلة من المتمنين للخير بالبشر والأرض تتحسس طريقها في الظلام. الفيدانتية، والمادية، والنسيبة، والإنسانية، الأرض الأم التي خربها العنف البشري تبكي وتقول. إلى أين ستلجأ البشرية التي أصبحت مثل الرّم الذي جرحه القناص بسهمه. ها، ها، ها، ضحكات القناصين هزّت السماء، وبلهث الظلي الصغير والمسكين، ويخفق قلبه الصغير بسرعة كبيرة. نيلوبتال! لا، لا، يجب ألا يستمرّ هذا الظلام ولا يدوم، ودوى صوت المؤمنين بالإنسانية معاً، يا له من صوت مقدّس، إنهم اكتشفوا النور الذي يتوهج بسطوع، كان ذلك بمثابة معجون بارد ومنعش من خشب الصندل على جروح الأرض المكلومة، وانتصر الحب واللاعنف، فلمْ الخوف؟ لقد خلق الله الإنسان أقوى من بين المخلوقات، ولا يمكن

¹ الرواية، ص 523

هزمه وقهره حتى بقوة أقوى القنابل الفتاكة، أيها المجانون، المرء بشر، إنه ليس
خنزير غيني أو فأر تجارب.... الإنسان هو الحقيقة المطلقة.

وجوه وعيون لا تُحصى، رؤى رائعة لا تُحصى

مجوهرات إلهية لا تُحصى، أسلحة إلهية موزونة لا تُحصى

ألف من الشمس في السماوات...".¹

¹ الرواية، ص 523.

المراجع

1. إنديرا جوناغري: Introduction of The Soiled Border, English translation of "Maila Anchal", Chankya Publications, New Delhi, 1991.
2. د. أنجالي تيواري، فانيشوار ناث رينو كا ساهتيا (أدب فانيشوار ناث رينو)، ريشاب شاران جاين إيفامشانتى، نيو دلهي، 1983م.
3. د. إيه بي بانداي: Regional Sensibility of aneshwar Nath Renu's Maila Anchal, Variorum Multidisciplinary E-Research Journal, Volume 04, Issue-1, August 2013.
4. ساتشيناناند جهها، جريدة ذي دايلي غارديان، مايو 21، 2021
5. عدد من مواقع الإنترنت.
6. فانيشوار ناث رينو: رواية "الوشاح المدنس" (ترجمة عربية لـ "مايلا آنشل" قام بها أ.د. محيى الرحمن)، مشروع "كلمة" للترجمة بمركز أبو ظبي للغة العربية التابع لدائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي، الطبعة الأولى، 2021م.

قراءة في كتاب:

أشياء من ذكريات طفولتي
(للكاتب السوري حنا مينه)

- د. عظمت الله¹

مدخل:

يتناول هذا المقال جوانب مختلفة عن حياة الأديب السوري حنا مينه، وذلك في ضوء سيرته الذاتية "أشياء من ذكريات طفولتي"، فيما كتب الأديب ما أراد سرده من مشاعره وعواطفه وانطباعاته التي تلامس مراحل حياته منذ الطفولة إلى الكهولة، وكذلك كل ما شاهد وجرب من عناء وشقاء ثم سعادة خلال عمره المديد، إذ أنه يصف سيرته الذاتية بمحلقات تاريخية، مشيراً إلى أن الإنسان ابن تاريخه الاجتماعي. علماً بأن الأديب السوري مينه قام بتأليف سيرته الذاتية تحت عناوين شتى تختص بمختلف مراحل حياته، وتطرق المقال إلى هذه التفاصيل بناء على الاقتباسات المأخوذة من الكتاب المذكورة أعلاه.

نبذة وجيزة عن الكاتب:

وُلد الأديب السوري حنا مينه في 16 أبريل 1924م، في إحدى قرى منطقة الإسكندرون بسوريا، في أسرة مسيحية، وعاش طفولته في كنف عائلته التي انتقلت من الإسكندرون إلى مدينة اللاذقية في 1939م. واضطر حنا مينه إلى ترك الدراسة بسبب ظروف عائلته بعد انتهاء المرحلة الابتدائية فقط. واختار منهاً كثيرة من ضمنها خاض في معترك الكتابة، وشرع في كتابة الأخبار والمقالات الصغيرة، ثم راح يكتب القصص

¹ أستاذ مساعد (متقاعد) في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة الملكية الإسلامية، نيودلهي، الهند

القصيرة في بعض الصحف السورية واللبنانية، هكذا بدأت حياته الأدبية فتألق نجمه في سماء الأدب والفن حتى وصفه الكاتب بشيخ الرواية السورية وبأديب الحقيقة.

وبعد استقلال سوريا عن فرنسا، انتقل حنا مينه إلى مدينة دمشق، وبدأ يعمل في جريدة الإنشاء، حتى شغل منصب رئيس التحرير لهذه المجلة. واستمر في كتابة القصص والمسرحيات والروايات. ويبلغ عدد رواياته 40 رواية، أولها: رواية "المصباح الزرق"، التي صدرت في عام 1954م. كما ساهم الأديب في تأسيس رابطة الكتاب السوريين واتحاد الكتاب العرب. وهكذا كرّس حياته على خدمة العلم والأدب إلى أن وافته المنية في 21 أغسطس 2018م، في عمر ناهز 94 سنة.

هذا تعريف موجز عن الأديب السوري حنا مينه الذي تلقى التعليم الابتدائي فقط. ولكن جهوده المتواصلة في حياته جعلته أديباً غزيراً الإنتاج، وذاع صيته في مصاف كبار الروائيين العرب. رغم أن الظروف القاسية التي لم تمنحه هو وأخواته فرص تلقي التعليم. حتى ازداد وضع عائلته سوءاً عندما غاب والده تاركاً إياهم دون أيّ مساعد. لذا يصف الأديب نفسه بأنه منذور للشقاء.

على كل حال، قد انسلخت الأيام وحدث ما قدر الله وشاء حتى حقق هذا الطفل اليتيم إنجازات مبهمة ومكانة مرموقة في الأوساط العلمية والأدبية بفضل جهوده الجادة.

وبعد ذلك، أودّ أن أسلط الضوء على كتاب السيرة الذاتية الذي كتبه الأديب السوري مينه باسم "أشياء من ذكريات طفولتي". يحتوي هذا الكتاب على 127 صفحة، وفيه 11 عنواناً. وذلك وفق النسخة المطبوعة التي صدرت أول مرة في عام 2010م.¹

العناوين الواردة في هذا الكتاب كما يلي:

حنا مينه، أشياء من ذكريات طفولتي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، 2010م¹

- توطئة لا غنى عنها بالنسبة لي وللقراء الأعزّة
- الوعي الأول بالوجود.
- الأم الخالدة ومفاداتها
- يوم رأينا الموت .. من خلال الجوع.
- شيء من الذكرى
- الياطر ... وجنون القراء بها.
- وحدة الثقافة واستعادة الدور التنويري النهضوي
- الكتابة والحرية
- عندما أضعت البحر . مرة أخرى
- أنتم تسألون عن حياتي.. وأنا أجيبكم
- أنتم تسألون عن حياتي.. وأنا أجيبكم

هذه هي العناوين التي تناولها الكاتب في هذا المؤلف، ومن ضمنها قام بسرد جوانب مختلفة من حياته، إضافة إلى ذكر المعانات التي واجهتها عائلته لأنه لم يكن هناك أيّ رجل من أفراد عائلته، ليساعدهم في العيش، إذ بذلت ربة البيت وهي أمّ هذا الأديب، كلّ ما في سعتها، في توفير أسباب العيش لأولادها. وفيما يلي شرح لكل العناوين.

- يمثل العنوان الأول كتمهيد لهذا الكتاب، فيما أشار الأديب باختصار، إلى كل ما مرّ به في حياته من الطفولة والمراهقة إلى الشباب والرجولة. إذ يكتب: "إنني منذور للشقاء، وإنني أبصرت هذا الشقاء منذ أن أبصرت النور.. حاربت الشقاء وانتصرت عليه.. أن حياتي منذورة لديّ في سبيل الفقراء والبؤساء والمعذبين في الأرض. قد وهبتها جسدي، الذي أضنته السجون

الطوال، والمنافي المماثلة طولاً".¹

- أما العنوان الثاني فهو الوعي الأول بالوجود: أراد الكاتب فيه أن يطلع القراء على ما هو الشيء الأول الذي شعر الكاتب بوجوده في حياته، فيكتب: "وجه الأم هو الذي يتفتح عليه وعي الطفل، وقد كان وجه أمي هو أول الوجود".² وتناول الأديب أيضاً سرد علاقته مع أمه مثل الآخرين، بحيث لا يفوته ذكر شيء ما يتعلق بحياة الطفل من الرضاعة ومحبة الأم والحنان.. وكل ما يربط الطفل برحم الأم حتى سمي الكاتب هذه المرحلة باسم المرحلة الرحمية، ومنوهاً بأن المرحلة الرحمية تدوم ما دامت الحياة..

إلى ذلك، خص الكاتب بذكر المعونات والتحديات التي تواجهها المرأة في حياتها الأسرية ولاسيما بعد الزواج، فيما أورد الكاتب بعض القصص مثلاً: عندما تنجب امرأة مولوداً أي بنتاً فكيف يزيد الوضع سوءاً بالنسبة للمرأة، وإذا أنجبت مولوداً أي ابناً، فكيف تحتفل الأسرة بهذه المناسبة، حيث ذكر الكاتب قصته الشخصية مشيراً إلى فضل البنين على البنات، لأنه كان الولد الوحيد من بين أولاد والديه، فيكتب: "كنا نسكن في حي الصليبية في اللاذقية، وأعمل حلاقاً، كانت أمي تستيقظ باكراً، فتقرع باب غرفتي، منادية باسمي، وتظل تقرع حتى أرد عليها، وعندئذ تتصرف وهي تقول: نم يا حبيبي، نم!"

لقد اطمأنت إلى أنني بخير، أنني لم أمت في الليل".³

- العنوان الثالث هو "الأم الخالدة ومفاداتها": بموجب هذا العنوان، تناول

¹ نفس المصدر، ص 5

² نفس المصدر، ص 9

³ نفس المصدر، ص 21

الأديب التحديات التي عانت منها الأم في تربية الأولاد بشكل عام، كما خص الكاتب بسرد الظروف القاهرة التي واجهتها أمها بعد غياب زوجها في مدينة الغربية بجانب التضحيات التي تقدمها المرأة خلال مرحلة الأمومة، حتى لو اقتضت الأمومة وضع جسدها متراًساً بينهم وبين السهام لأجل سلامة الأولاد وحمايتهم من كل مكروه، تلي المرأة الأم هذا النداء، مما يجعل الأم خالدة بصنع مثلها الأعلى وتفانيها الفريد. وهذه هي الغزيرة التي توجد لدى الأم كنزعة بيولوجية خالدة، في أقصى درجاتها، ومن هذا المنطق، تصبح الأم خالدة. كما تكون مفاداتها استثنائية بفضل عطائها المفتوح وتضحياتها التي لا حدود لها.

- العنوان الرابع هو "يوم رأينا الموت.. من خلال الجوع": ذكر الكاتب بموجب هذا العنوان، موقفين اثنين، أحدهما يخص بمكانة المرأة في المجتمع تحت جبروت الرجل وعنته حيث تعيش المرأة تحت وطأة إيهام الزوج. وفي هذا الشأن، تطرق الكاتب إلى سرد قصة تتعلق بوالده مع أمها عندما انهال الوالد عليها ضرباً. وكان الكاتب ابن ثلاث سنوات فقط. إضافة إلى القصص الأخرى المماثلة.

أما الموقف الثاني فهو اليوم الذي رأى الكاتب فيه، الموت، ولا سيما بعد أن تركهم أبوه في البيت بدون طعام، وذهب إلى مكان لا تعرفه الأسرة، والاقتراس يقول:

"لقد ذهب الوالد بعد نكبة الحرير الطبيعي، وتركنا في البيت المهجور بغير طعام، بغير نار، بغير حماية، والدنيا في أواخر الخريف، وتوجهت الأم إلى بيت المختار لتطلب شيئاً ما نقتات به، فطردوها وعادت فارغة اليدين، وبدا لها في نوبة اليأس.. وأتينا

ميتون جوعاً لا محالة..¹

حتى أنهم اضطروا إلى أكل وجبة حشيشية من غدير، هذه الوجبة الحشيشية تسببت في غثيان في أمعائنا وإسهال بلغ حد المرض.. والاقتباس يقول:

"كما نحن أولئك الأطفال.. لقد أهزلنا الجوع وهددنا الإسهال، وتراخينا كأوراق مبللة على فراش في الزاوية، تمددت.. وإن الحياة والموت يصبحان في وهن الجسم".²
ثم يسرد الكاتب نفس الوضع حسب كلام الأم:

"وتقول الأم، حين تروي بعد ذلك هذه الحادثة لأطفالها عندما يكبرون: جرت إلى العراء وكانت الريح تلطمني، تشدني، تدفعني وخارت قواي فاستندت على الأشجار، وسقطت نخيل إلي أنني لن أقوم بعدها ولن أراكم أبداً".³

• العنوان الخامس هو باسم "شيء من الذكرى": في مستهل هذا العنوان، تطرق الكاتب إلى سرد قصة تتمثل في أنه وذات مرة بمناسبة العيد، كان الطفل طلب من أمه شراء جزمة له، ولكن "كان ما تملكه الوالدة 65 قرشاً، وكان ثمن الجزمة ليرة ونيف، وكانت الأم تقول للبائع: أنا أعمل خادمة، وهذا وحيدني، ولم يلبس عمره كله جزمة كاوتشوك، ولا أملك إلا هذا المبلغ فيز البائع رأسه ساخراً أو آسفاً..."⁴ ولكن الأم ظلت طوال ساعات، تتسول له، بقروشها الناحلة، والجزمة التي لم تحصل عليها أبداً.

ويضيف الكاتب: "أن هذه الأم هي أمي، وهذا الابن هو أنا.."⁵

¹ نفس المصدر، ص 45

² نفس المصدر، ص 46

³ نفس المصدر، ص 48

⁴ نفس المصدر، ص 61

⁵ نفس المصدر، ص 62

- العنوان القادم هو باسم "الياطر.. وجنون القراء بها": تحدث الكاتب في هذا العنوان: عن أهمية روايته الياطر التي أهداها إلى أمه الصغيرة "قدسية مينة"، وكم نالت هذه الرواية إقبالا وتقديراً. حتى طبعت عشرين طبعة.
- العنوان القادم: وحدة الثقافة واستعادة الدور التنويري النهوضي: يتحدث الكاتب فيه عن الثقافة العربية، مؤكداً:

"أن الثقافة العربية كل الثقافات الأخرى، أدت دورها بامتياز في ترويح الشعور العربي القومي في حين كانت الاحتلالات، عثمانية أولاً، وإنكليزية، وفرنسية، وإيطالية ثانياً. تسعى لوأد الشعور العربي القومي. إذ صانت الثقافة العربية هذا الشعور وطورته".¹

ويعترف الكاتب في نفس المقال:

"إن الثقافة العربية أكدت من خلال التبادل والتفاعل، حضورها الوطني والقومي، رغم أن البلدان العربية كانت نتيجة التجزئة جزراً متباعدة، متنافرة، متمزقة، منذ منتصف السبعينيات حتى وقتنا هذا".²

مما يعني أن الكاتب يتسمك بالوحدة العربية ويفضلها واصفاً إياها بالتي تمثل الوحدة العربية التي تستعيد الوطن قوته ومجده.

- ورد في هذا الكتاب، عنوان اسمه: الكتابة والحرية: يتضح من هذا العنوان، كل ما يريد الكاتب، وهو عندما يريد أي كاتب أن يتناول موضوعاً ما لكتابته، ففي بعض الأحيان، تحول دون كتابته، قيود على الحرية. هذا هو أهم عنصر تحدث الكاتب عنه في هذا المقال، إذ يستهل هذا العنوان بما يلي:
- "ترتبط الكتابة بالحرية ارتباطاً عضوياً، فعندما لا تكون حرية لا تكون كتابة. لكن

¹ نفس المصدر، ص 79

² نفس المصدر، ص 79

الكتابة في جميع العصور وفي أشدها قعاً، تجد حريتها المنشودة بأشكال كثيرة غير مباشرة، تقول قولها عن طريق الرمز، الأسطورة، الإسقاط، التورية، الإبهام، أو على لسان الحيوان، كما نجد عند الكاتب عبد الله بن المقفع¹.

وفي هذا السياق، ذكر الأديب السوري حنا، بعض تجاربه الشخصية، فيما أنه عوقب أو سُجن بسبب الكتابة: ويتضح ذلك من الاقتباس التالي:

"إن تجارب حياتي ككاتب لا تخلو من أذى السلطة في عهد الانتداب الفرنسي والعهد الوطني بعد الاستقلال.. ففي العهد الفرنسي، وبسبب مقال نشرته في "صوت الشعب" اللبنانية ضد مظالم المنتدبين ومطاردتهم للوطنيين السوريين العرب، ضربت من قبل رقيب في الدرك الفرنسي يدعى أبوحذو، حتى قاربت الموت.... وفي فترة الوحدة المصرية - السورية، أُعتبرت رابطة الكتاب العرب التي كنت من مؤسسيها خارجة على القانون، فسُجن أعضاؤها وتشتتوا في المنافي. وبقيت في المنفى قرابة عشر سنوات قضيتها مشرداً بين أوروبا والصين".²

على كل، يحاول الأديب في هذا المقال، دعم حرية الكتابة بكل أشكالها وأبعادها لتصنع الحرية تاريخاً وتمنح الإنسانية مجدها وعزها.

• العنوان الثامن هو باسم عندما أضعت البحر... مرة أخرى: أشار الأديب في هذا العنوان، إلى أنه رفض قبول الإقامة في بيوت واقعة على البحر، قدما من عرفه خلال زيارته إحدى الدول الأجنبية، وحدث هذا الرفض مرتين، ورفض هذين العرضين، يدل على أن الكاتب فضل دوماً، على ألا يحول أي شيء دون كتاباته، إذ يكتب رداً على أحد هذه العروض:

"إنني، يا سيدتي، إذا قبلت عرضك، وسكنت بيتك، فإنني فيه سأفكر دون أن

¹ نفس المصدر، ص 87

² نفس المصدر، ص 90

أكتب، فأنا هارب من التفكير، لذلك أشكر، واعتذر إليك".¹

• العنوان الأخير له حلقتان باسم: أتم تسألون عن حياتي.. وأنا أجيبكم! تحدث الأديب فيه، عن حياته الأسرية والمهنية والأدبية، مما يعني أن هذا الجزء من الكتاب يحتوي على أهم المعلومات الشخصية لهذا الأديب العملاق، من الطفولة إلى الشباب، ومن الشباب إلى الكهولة. فتبدأ الحلقة الأولى باقتباس:

"من المعروف أنني أضعت طفولتي بالشقاء، وشبابي في السياسة، وكنت في فقر أسود، وأنا الآن، في فقر أبيض. قد ناضلت بجسدي، والآن أنا أناضل بقلبي".²

كتب الأديب تحت هذا العنوان، عن ولادته وعن أفراد عائلته ومهنته وعن هجرة عائلته إلى خارج مسقط رأسه لغرض كسب قوة الحياة وكذلك عن وصوله إلى أوروبا وإلى الصين في المنفى الاضطرابي.

وألقى الكاتب الضوء على زواجه من السيدة مريم دميان سعان، بجانب ذكر أولاده الخمسة بينهم صبيان وثلاث بنات.

وفي الحلقة الثانية من هذا العنوان، ركز الكاتب على حياته الأدبية حيث أنه ذكر غاية كتاباته. فيكتب:

"احترفتُ العمل في الميناء كحمال، واحترفت البحر كبحار على المراكب.. اشتغلت في مهن كثيرة، من أجير، مصلح دراجات، إلى مربّي أطفال.. إلى عامل في صيدلية، إلى حلاق، إلى صحافي، إلى كاتب مسلسلات إذاعية باللغة العامية، إلى موظف في الحكومة. إلى روائي. وهنا المحطة قبل الأخيرة".³

وفيما يتعلق بداية حياته الأدبية، يكتب الروائي بنفسه فيما يلي:

¹ نفس المصدر، ص 100

² نفس المصدر، ص 111

³ نفس المصدر، ص 122

كتاب "السؤال والجواب في آيات الكتاب"

- د. يوسف عكراش¹

بيانات الكتاب:

اسم الكتاب: السؤال والجواب في آيات الكتاب.

اسم المؤلف: عطية محمد سالم.

عدد الصفحات: 351 صفحة

الناشر: دار الجواهر.

رقم الطبعة: الأولى

- ولد عطية بن محمد سالم في قرية المهديّة من أعمال الشرقية في مصر سنة 1346هـ، وتلقّى في كُتّابها علومه الأولى، وحفظ بعض أجزاء القرآن الكريم ومبادئ العلوم. وفي عام 1364هـ ارتحل إلى المدينة المنورة، وأخذ يتلقى العلم في حلقات المسجد النبوي الشريف، فدرس موطأ الإمام مالك ونيل الأوطار وسبل السلام وغيرها من كتب الحديث واللغة والفرائض على يد عدد من الشيوخ والعلماء منهم: عبد الرحمن الأفريقي وحامد الأنصاري ومحمد التركي ومحمد الحرکان وغيرهم.
- زاول الشيخ عطية التعليم وهو على مقاعد الدراسة الجامعية، فدرس بالمعهد

¹ أستاذ وباحث في الدراسات الإسلامية والقضايا الفكرية والتربوية

العلبي بالأحساء، وفي كليتي الشريعة واللغة العربية بالرياض. وكان للشيخ حلقة في المسجد النبوي الشريف، يدرس فيها فنوناً مختلفة من العلوم الشرعية يجتمع إليه فيها طلبة العلم من شتى بقاع العالم.

- له عدد من المصنفات والمؤلفات والرسائل المطبوعة والمخطوطة في العلم والأدب والتاريخ وغيرها، وظل الشيخ يزاول عمله مدرساً في المسجد النبوي الشريف وله تلاميذه ومحبيه.

- توفي رحمه الله في المدينة يوم الاثنين 6 ربيع الثاني 1420 هـ ودفن في البقيع.

تمهيد: لا يكاد يخفى على كل متأمل مدى عناية المسلمين بكتاب الله وتصدي لبنان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستنباط فوائده، كما لا يخفى هذا التنوع الواسع الذي نلسمه في طرائق التعرض لدراسته، والذي يظهر في المصنفات المتنوعة والمختلفة في أغراضها وأساليبها واتجاهات مؤلفيها وجزئياتها وأحجامها.

وقد انكبت جهود أغلب الباحثين والمفسرين قديماً وحديثاً على دراسة كتاب الله ومن هذه الجهد المبذولة ما هو مطولة أو مختصرة، ثم بدأ حضور ظاهرة الاعتناء بمسألة معينة وإفرادها بالتأليف والاكتفاء بدراستها وبيان معانيها، واستخراج أحكامها وحكمها كما هو الشأن في كتاب "السؤال والجواب في آيات الكتاب".

ورغم حضور هذه الظاهرة وتوالي الاشتغال بكتاب الله على هذا المنوال، إلا أنها لم تلقَ تلك العناية اللائقة بها من دراسة معمقة بعيداً عن سطع المعاني وظواهرها، إذ نجد بعض المؤلفات اعتنت بدراسة بعض المسائل القرآنية ولم تفِ بالمقصود فظلت حبيسة المعاني السطحية لا غير.

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي نعرض له قراءة لا تدعي الكمال أو الاكتمال بقدر ما تسعى لرسم إطار نظري لهذا الكتاب المهم الذي لا يسع طالب العلم عامة

والدراسات القرآنية والتفسيرية خاصة الاطلاع عليه والنهل من فوائده ودرره، والذي تطرق للسؤال والجواب في آيات الكتاب، كما اعتنى بتسليط الضوء على مجموعة من المعاني العميقة والفوائد والأحكام، فدرسها وبين تقاسيمها وأنواعها وبرع في استخراج حكمها وأحكامها وبيان معانيها ومقصدتها تشريعاً وتوجيهاً ومقصداً، كما أجاد وأفاد في ربط هذه الآيات المختارة بمجالات أخرى ك مجال التربية ومجال التعليم في دراسة حافلة زاهرة قاربت ثلاث مئة وخمسين صفحة، تعد ذات أهمية في بابها وتفتح آفاقاً واسعة للعناية بمسائل القرآن وقضاياها على هذا المنوال الفريد.

محتويات الكتاب: جاء تقسم الكتاب بعد مقدمة المؤلف إلى ثلاثة عشر سؤالاً كلها قد اشتملت على مادة سأل "يَسْأَلُونَكَ" مقرونة ومتبوعة بالجواب الذي ورد بـ"قُلْ" أو "فَقُلْ". وبالنسبة للمقدمة فقد ذكر فيها المؤلف مدى أهمية الموضوع، وأهمية وقيمة السؤال والجواب في التلقين، كما تطرق لمادة (سأل) عند علماء اللغة والبلاغة خاصة، ثم بين مادة (سأل) وما تفرع عنها في القرآن الكريم مع العطف ببيان الأسئلة الواقعية وأجوبتها.

السؤال الأول: وهو سؤال الله عز وجلّ وطلبه، وبين أنه خاص بالمؤمنين دون غيرهم، كما بين أسباب وروده ثم عرج بذكر أنواع الإجابة المرتبط به.

والسؤال الثاني: وهو عن سؤال الأهلّة فقد ابتدأ الكلام حول فطرة التوقيت في الإسلام فأجاد وأفاد فيما يتعلق بها من أنواع العبادات والمعاملات والأيمان والأحكام الخاصة والعامة، ثم بين التطبيق العلمي للتوقيت القمري ونقطة البداية لهذا النظام الإسلامي المتميز الخاص بالمسلمين، وختم هذا السؤال بأن الأهلّة ذات علاقة وطيدة بالتشريع الرباني.

والسؤال الثالث: السؤال عن الإنفاق، حيث استهل الكلام بسرد أسئلة الإنفاق حسب ترتيب المصحف الشريف فبين مقاصده ونوعيته وما يترتب عن هذه الأنواع، كما تطرق المؤلف رحمه الله إلى مقدار الإنفاق وآدابه التي ينبغي للمنفق التحلي بها حتى تحول بينه وبين إبطاله لإنفاقه، وشم عرج بآثار الإنفاق في الأمة في

جوانب عدة- الفرد والمجتمع- تحقيقاً للمطلب الإنساني الفاضل والذي يسعى إليه كلّ عاقل، ثم ختم الكلام ما ينبو عن إنفاق المال وعله ذلك أن ليس كلّ مكلف له يمتلك الزائد عن حاجته من المال، وليس كل المحتاجين منحصرة حاجتهم في المال.

والسؤال الرابع: وهو سؤال عن الشهر الحرام، فقد اكتفى بذكر سبب ورود السؤال ومجيء الجواب، وبعد تطرّق لمنزلة الأشهر الحرم بين غيرها من الأشهر في القرآن العظيم وأقوال الصحابة وكلام العرب، وحرمة البلد الحرام، والتي تمثل خاصية فريدة من نوعها وهي فرض الأمن مع الأمان والسلم مع السلام، وجعل بينها ارتباطاً وثيقاً من خلال أحكام تشريعية.

والسؤال الخامس: وتضمن هذا السؤال الخمر والميسر لبدأ الكلام في هذا السؤال حول ما يندرج تحت مسمى الخمر شرعاً، ثم إظهار شمولية الجواب لسؤال الخمر والميسر، ثم تطرّق إلى المنافع في الخمر والميسر وإهدارها، ثم ختم الكلام بترتيب الآيات وذكر التحريم المؤقت متدرجاً إلى التحريم القطعي النهائي للخمر.

والسؤال السادس: وهو سؤال عن اليتامى، وبين فيه معنى اليتيم كما هو معتمد في المنهج العلمي- لغة واصطلاحاً- ثم انتقل إلى المنهج القرآني في معالجة قضية الأيتام وتعامل معها في جوانب عدة من بينها: جانب إطعام اليتيم وإيواءه، وجانب الحجر على مال اليتيم ومعلقاته، ومتى يدفع إليه.

والسؤال السابع: السؤال عن الحيض وهو من الأسئلة التي وردت بغير الواو، فبين الكاتب معنى الحيض وجلّ أسمائه المبثوثة في كتب اللغة والفقه، وعرج عليه بذكر العلاقة بينه وبين التشريع الإسلامي، وكذلك بين معنى قوله تعالى "فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ" وأقله وأكثره، وكيف تكون معاملة الحائض والمعيشة معها دون أدنى حرج، ومتى تظهر عليها علامات طهر الحائض وتطهرها، ثم أنهى الكلام بالحديث دم النفساء ومعنى الاستحاضة.

والسؤال الثامن: وهو سؤال عن الطيبات، وجاء في معرض الحديث عنه بيان شمولية

الطيبات وعمومها، ثم ثنى بالطيبات في المأكل والمشرب خاصة، والطيبات من النساء، كما تعرض في آخر دراسة هذا السؤال إلى طعام أهل الكتاب ونسائهم من حيث نظر التشريع الإسلامي.

والسؤال التاسع: وهو سؤال عن الساعة والبعث والجزاء، وقد اختار المؤلف الكلام عليه لترتب جميع المكلفين عليه؛ إذ هو مصدر الانطلاق إلى فعل الخير والكف عن الشر، وبين أساليب السؤال عن البعث في عدة سور من القرآن كالواقعة والمؤمنون وغيرهما، وعطف عليه بطرق القرآن الفريدة وصوره البديعة في إثبات الساعة والبعث والجزاء؛ وأنه أمر واقع لا محالة.

والسؤال العاشر: وهو سؤال عن الأنفال، فقد أولى الكلام للحديث عن مفهوم الأنفال بشكل وافر، ثم بيان أسباب هذا السؤال، وما أجمعت عليه كلمة العلم اتجاهه، ثم بين وجه الجواب ودراسته، وفي ختام هذا السؤال ذكر قسمة المال في صوره العامة والتي لا تختص بشخص بعينه، وهي التي تولّاها الله تعالى في ثلاثة مواطن: الأول قسمة الغنائم والثاني: قسمة الموارث والثالث: قسمة الصدقات.

والسؤال الحادي عشر: وهو من أعظم الأسئلة التي تضمنتها آي القرآن وهو سؤال عن الروح، حيث بين الشيخ رحمه الله أسباب النزول بروايات المتعددة؛ التي أسفرت على أنّ اليهود هم مصدره، وأنّ الغاية والمرمى منه التعجيز والتحدي، وفي توسع لطيف من المؤلف ليتطرق لخصائص الروح ومميزاتها وحالات الأرواح بعد قبضها ثم علاقة الروح بالبدن.

والسؤال الثاني عشر: وهو سؤال عن ذي القرنين مع بيان أحداثه التي تطلع العلماء بجمعها من كتب معتمدين التاريخ تارة والقرائن تارة أخرى، كما تتبع عرض أحداث ذي القرنين في القرآن، ثم الحديث عن يأجوج ومأجوج والسبب الرئيسي لبناء السد وإقامته.

والسؤال الثالث عشر: وهو سؤال عن الجبال، وهو آخر سؤال وقد تضمن استثناء إذ لم يرد الجواب فيه بـ"قل" بل لازمته الفاء فكان الجواب بقوله تعالى "فَقُلْ"، وقد

توسع في الحديث عن هذا السؤال ودراسته إذ تطرق للأسئلة الاعتراضية وبين أنواعها، ثم بين أسئلة التثبيت واليقين، ثم أسئلة المعجزات وسؤال الحوارين، ثم انتقل إلى أسئلة الأنبياء والمرسلين فبين سؤال الخليل إبراهيم عليه السلام في سورة البقرة، وسؤال زكريا عليه السلام في سورة مريم، ثم سؤال مريم. ثم أنهى الكلام وختمه بأسئلة إلزام التوحيد لله تعالى، وأسئلة التفخيم والتعظيم.

هدف الكتاب: لم ينص المؤلف على هدف الكتاب بوضوح تام، لكن يظهر في مقصده- كما هو بين في مقدمته- لتناول قضية السؤال والجواب في القرآن ودراستها وبيان أهميتها، وإظهار عمقها تشريعاً وتوجيهاً مما يمكن استخلاص الأحكام والحكم منه والموعظة من السياق.

الإشكالية الرئيسية للكتاب: تعرض المؤلف في وسط مقدمته للإشكالية المطروحة التي تتمثل في الحاجة إلى الاهتمام بأسلوب السؤال والجواب في القرآن الكريم لأنه عني بأكبر القضايا في علاقتها بالإنسان تشريعاً وتوجيهاً بحيث شملت منهج حياته خاصة، كالإنفاق مما ينفق؟ وعلى من ينفق؟ ومتى ينفق؟ وأخص من ذلك المحيض، والعشرة بين الزوجين، ورعاية الأيتام، كما تناول مطعمه ومشربه ومكسبه مما أحل الله لهم وحرّم عليهم، قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ" ¹.

وكذلك المغامر في الجهاد في قوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ" ².

وكذلك الظواهر الكونية في الأرض كالجبال، وفي السماء كالهلال، بل في خواص

¹ سورة المائدة: 4.

² سورة الأنفال: 1.

أنفسهم والروح التي بها حياتهم مما يدركوا كنهه ولم يعلموا حقيقته. وكذلك ما بقي من معتقد في الأشهر الحرم وحرمتها في الإسلام وعن مشروعية القتال فيها وعدم مشروعيته. بل تجاوزت هذه التساؤلات الحياة الدنيا لتشمل السؤال عن البعث والجزاء وعن الساعة أيان مرساها. بل وسؤالهم عن الله سبحانه: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" ¹.

والسؤال عن الماضين: "وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنهُ ذِكْرًا" ². ولم ينته أمد السؤال بانتهاء هذه الحياة بل نجده أيضاً في عرصات يوم القيامة يسأل الله عباده أو تسألهم الملائكة، أو يسأل بعضهم بعضاً أو يتساءل السائل نفسه. إلا أنها في ذلك اليوم كلها أسئلة تقرير وتقرير لأن الحقائق قد علمت والمغيبات قد كشفت. مادة (سأل) وما تفرع عنها في كتاب الله: في ضوء الإشكال السابق للمؤلف تمثل له العلاج في ضرورة بيان مادة سأل وما تفرع عنها في القرآن الكريم في ضوء ما يلي: أولاً: قسم خاص لسؤال الحاجة وليس له جواب، وإنما جوابها قضاء حاجتها كقوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ" ³. وكذلك قوله تعالى: وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ⁴.

وليس هذا القسم محل البحث لأنه ليس معه أو فيه تشريع. وثانياً: وقسم جاء بمعنى الاستفهام وجاء معها جوابها وفيه تشريع للحكم لما سألوا عنه وهذا القسم هو محل الإشكال والبحث. وقد انحصر هذا النوع في حق هذه الأمة في مسائل محدودة. ⁵

¹ سورة البقرة: 186.

² سورة الكهف: 83.

³ سورة الأحزاب: 53.

⁴ سورة الضحى: 10.

⁵ السؤال والجواب في آيات الكتاب (محمد عطية سالم)، ص 16.

كما ينقسم هذا الشق المذكور آنفاً الذي هو موضوع البحث إلى قسمين:

الأول: قسم جاءت فيه "يَسْأَلُونَكَ" بدون الواو.

والثاني: قسم جاءت فيه "وَيَسْأَلُونَكَ" بالواو.

فبين المؤلف أنّ القسم الذي جاء بدون الواو جاء واقعياً، أي أنهم سألوا وجاء الجواب عن السؤال.¹

كما بين أيضاً أنّ السؤال الذي جاءت معه الواو، فقد افترض السؤال، وأنّ الله سبحانه علم منهم أنهم سيسألون فيما بعد فحكي الجواب مسبقاً، حتى إذا جاء سؤالهم كان جوابه موجوداً.²

أبرز مزايا الكتاب: أبرز العرض لمحتويات الكتاب؛ الغاية منه وإشكالاته الهامة التي تعرض لها المؤلف وما مدى أهمية هذا الكتاب، ومدى حسن تعامل المؤلف رحمه الله مع الموضوع: بحثاً وترتيباً ودراسةً واستنتاجاً، إلا أننا سنبيين مزايا أكثر لتوضح الصورة بشكل أكبر، وسنقسمها إلى مزايا منهجية ومزايا فنية كما هو معهود في حقل البحث العلمي:

المزايا المنهجية:

1. تعدّد مقدمة المؤلف أحد أبرز المزايا، وذلك أنّ المؤلف قد تعرض فيها لبعض التفاصيل حيث بين ما سيتناوله وقيدته بقيود حتى لا يدع البحث فضفاضاً،³ كما بين وجهة نظره فيما يخص مسألة السؤال والجواب في كتاب الله.
2. ومن المزايا اهتمام المؤلف رحمه الله بالمسائل اللغوية والبلاغية وسبر أغوارها وبيان أقسامها وأنواعها وجعلها مدخلاً عميقاً لفهم السؤال قبل الخوض في لبّ البحث وصلبه.⁴

¹ المصدر نفسه، ص 18.

² المصدر نفسه، ص 18.

³ المصدر نفسه، ص 18.

⁴ المصدر نفسه، ص 11.

3. عناية المؤلف بموضوع البحث وتقيدته، ومن أبرز ما يلحبه القارئ أيضاً، كما ركّز المؤلف على موضوع البحث وعدم تفرعه فيما لا يعود على القارئ لكتابه بفائدة بغية عدم التشويش على المقصود من أساس الكتاب، وقد أحسن في التمييز وبدا واضحاً في أكثر من موضع، بل ونصّ على ذلك ابتداءً. حيث قال: "وقسم جاء بمعنى الاستفهام وجاء معها جوابها وفيه تشريع للحكم لما سألوا عنه وهذا القسم هو محل الإشكال والبحث. وقد انحصر هذا النوع في حق هذه الأمة في مسائل محدودة".¹
4. ومن المزايا أيضاً ضبط المؤلف لآيات السؤال والجواب حسب ترتيبها في المصحف، كما اعتنى بالأمثلة والشواهد اللغوية سواء من الحديث أو كلام العرب نثراً وشعراً.
5. ومن تأمل هذا الكتاب ألفاه تمهيداً لدراسة موسعة تشمل كل الأسئلة سواء التي اشتملت على الجواب أو لم تتضمنه في كتاب الله عزّ وجلّ، كما يمكن ربط هذه الأسئلة والأجوبة بسياق سؤال الفتوى في واقعنا المعاصر لما يشهده من مستجدات لا متناهية.
6. حسن اختيار الأمثلة والشواهد والآيات التي لها علاقة أو مناسبة مع الآيات المختارة لهذا البحث وحدها في ثلاث عشرة آية تضمنت سؤالاً وجواباً في نفس الوقت، وموزعة على سبع سور، نذكر منها على سبيل المثال ما بعض ما جاء في سورة البقرة. قال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ".² وقال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ".³
- وقال تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْتَفِعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا

¹ المصدر نفسه، ص 16.

² سورة البقرة: 189.

³ سورة البقرة: 215.

أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٣٨﴾¹

7. وأخيراً برع المؤلف في دراسة كل آية لوحدها تشريعاً وتوجيهاً إذا لا تناسب ولا تلازم بين الآيات المختارة في مادة (سأل) "يَسْأَلُونَكَ"، أما من ناحية المضمون فكل آية وجوابها ومضمون موضوعها يختلف بشكل جذري من آية إلى أخرى، كما أجاد وأفاد رحمه الله في الاستخراج من كل آية على حدة ما اشتملت عليه من أحكام وحكم وعبر حسب السياق.

المزايا الفنية:

1. حسن أسلوب المؤلف وعلو كعب جودة لغته، وهذا يلحبه كل من وقف على هذا الكتاب.
 2. أولى المؤلف بفهرسة الكتاب عناية كبيرة مما جعلها ترتقي إلى المزايا المحمودة الذكر لكل من وقف على هذا الكتاب، بحيث تمكن الباحث خاصة والقارئ عامة من الوصول إلى مراده بدقة.²
 3. حسن مراعاة الترتيب والتقسيم سواء للآيات أو للأمثلة أو الشواهد.
 4. حسن تنظيم الفقرات ومراعاة أحجامها بحيث يلح للقارئ حسن هذا التنظيم ورويقه.
- أهم الملاحظات: وعطفاً على ما سبق لا يخلو عمل بشري من ملاحظات مهما كان سعي مؤلفه في تكميله والإحاطة بعمله، ومثل هذه الملاحظات تتفاوت في الأنظار وتختلف في الآراء ولا تنقص من قدر العمل شيء، وإنما هو تبيين وتكميل لهذا العمل وإبراز لجودته، وقد بدت بعض الملاحظات منها ما هو منهجي ومنها ما هو فني على شاكلة ما سبق:

¹ سورة البقرة: 219.

² ينظر فهرسة كتاب السؤال والجواب في آيات الكتاب، ص 349-350-351.

الملاحظات المنهجية:

أولاً: كون الكتاب أقرب إلى كتب التفسير في المنهج والطريقة عكس ما نص عليه في مقدمته، وما جملته التوجيه والإرشاد.

وثانياً: افتقار بعض الآيات المختار للبحث إلى الدراسة التامة وخصوصاً أن هذه الآيات قد اشتملت على أحكام وحكم وفوائد وتوجيهات وإرشادات كما نص على ذلك المؤلف في مقدمته وهو مراده من البحث.

مثال: في الآية الأولى التي تضمنت سؤال الله عز وجل وهي الآية الأولى¹ التي عنيت بالدراسة فكان من باب أولى أن يتوسع في دراستها كما هو شأن باقي الآيات؛ بحيث يضيف محاوره أو عناوين أخرى لها علاقة بالمراد من البحث، ومما نقترح لتتمة الدراسة بخصوص هذه الآية محوراً بعنوان: بيان أن الدعاء هو العبادة وربطه ربطاً وثيقاً بالقضايا العقديّة توجيهاً وتنبيهاً لانسجامه التام مع الآية وانسجامه مع مقاربات اختيار المؤلف للعناوين، وكذلك تطرق في دراسة هذه الآية إلى أنواع الإجابة فكان من باب أولى بيان توسعة هذا المحور وتضمينه شروط الإجابة، وأوقات تحرّرها كما بين أنواعها.

ونفس الأمر يحل في دراسة السؤال الرابع وهو الآية التي تتحدث عن الأشهر الحرم، بحيث اكتفى المؤلف ببيان منزلة الأشهر الحرم وحرمة البلد الحرام،² فحينئذ كان عليه أن يتوسع في هذه الآية الكريمة بحيث هي مناسبة لربطها بالواقع المرير الذي نعيشه حيث حلت الدماء وانتهكت الأعراض بغير الحق، وسهل على الناس كل ما كانت العرب آنذاك تحرمه فطرة.

ثم قصرَ التعرض لدراسة السؤال العاشر الذي تضمن الحديث عن الأنفال إذ اكتفى المؤلف ببيان معنى الأنفال وسبب نزول الآية وبعض فوائدها المتعلقة بالجانب

¹ المصدر نفسه، ص 32.

² المصدر نفسه، ص 84.

التربوي وإغفال الجانب الفقهي والعقدي الذي تحمله هذه الآية في طياتها. وثالثاً: كثيراً ما استشهد المؤلف بأحاديث نبوية وأبيات شعرية دون عزو الأحاديث إلى مصادرها الأصلية.¹ والأبيات الشعرية إلى مجموعات أو دواوين شعرائها. ورابعاً: تضمن المؤلف لآية خرجت عن نطاق ما اشترطه في مقدمته حيث بين أن الآيات المختارة تضمن مادة (سأل) أي "يَسْأَلُونَكَ" وجاء الجواب فيها بـ"قُلْ" إلا أن هذه الآية الكريمة لم يأت فيها لفظ "يَسْأَلُونَكَ" وكذلك لم يأت الجواب فيها بـ"قُلْ" وهي قوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (١٨٠).² ولعل هذا كان قصداً من المؤلف رحمه الله، إذ لو تأملها القارئ لوجدها آية عظيمة تحمل في ثناياها ما لم تحمله غيرها من الآيات المدروسة ولذلك قصد المؤلف إدراجها والله تعالى أعلى وأعلم.

الملاحظات الفنية:

أولاً: اجتهد المؤلف في ترتيب الكتاب إلا أنه لم يجعل له فصلاً أو أبواباً مما ييسر الوصول إلى المقصود، بل جعله عبارة عن عناوين رئيسة لا غير. وثانياً: كتاب حافل بهذه الصورة يفتقر إلى تراجم العلماء والأعلام فضلاً عن فهرست الأعلام وفهرست الكتب. انخاتمة: هذه قراءة لهذا الكتاب (آيات السؤال والجواب في كتاب الله) لمؤلفه عطية بن محمد سالم، كشف مادة هذا الكتاب عن مميزاته وبعض الملاحظات التي لا تنقص من قيمته شيئاً، وسلطت الضوء في ثناياها على عدة آفاق للبحث في هذا الموضوع وعلى هذا المنوال فتحها هذا الكتاب المانع، فن ذلك:

¹ وهذا كثير. ينظر: السؤال والجواب في آيات الكتاب، المصدر نفسه.

² سورة البقرة: 186.

1. تعميق الدراسة أكثر فأكثر لما اشتملت عليه هذه الآيات من معانٍ زاخرة وفوائد باهرة، وخصوصاً أنها ذات صلة قوية بحياة الإنسان.
 2. دراسة قضية السؤال والجواب عامة في الكتاب دون تخصيص، والعناية بتشريعاتها وتوجيهاتها والوقوف على عبرها.
 3. دراسة قضية السؤال والجواب على منوال المنهج الأكاديمي الحديث في البحث.
 4. تكميل هذا الموضوع بدراسة كل الأسئلة الواردة في كتاب الله، سواء قرنت بالجواب أم لم تقرن.
 5. تسليط الضوء على إشكالية السؤال والجواب ودورها في مناهج التربية والتعليم سواء في القرآن أو الحديث.
 6. وأخير توصية بالاهتمام وتسليط الضوء على مثل هذا النوع من دراسة وربطها بالواقع الحالي وفي شتى ميادينه؛ من أجل استشراف المستقبل يعود على الأمة أفراداً ومجتمعات بما فيه خير الدنيا والآخرة.
- ونسأل الله أن يلهمنا رشدنا، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح.

برامج الاحتفاء باليوم العالمي للغة العربية

في حرم الجامعة المالية الإسلامية

18-19 ديسمبر 2021م

- د. عظمت الله¹

احتفاءً باليوم العالمي للغة العربية، نظمت وزارة التعليم بالمملكة العربية السعودية، ممثلة في الملحقة الثقافية بسفارتها لدى الهند، بالتعاون مع قسم اللغة العربية بالجامعة المالية الإسلامية (نيودلهي)، برامج ثقافية عديدة بموجب العنوان الرئيس: "اللغة العربية ودورها في التواصل الحضاري"، وذلك في يومي 18-19 ديسمبر 2021م. تضمنت هذه البرامج كلاً من الجلسة الافتتاحية والندوة العلمية ومسابقة الخطابة العربية ومسابقة مهارات الخط العربي على مدى يومين، مما يعكس الجهود الجادة التي تبذلها المملكة دوماً، في خدمة لغة القرآن والسنة في كافة أرجاء العالم، وفيما يلي تفاصيل البرامج:

الجلسة الافتتاحية: تحت رئاسة سعادة الأستاذ حبيب الله خان، رئيس قسم اللغة العربية سابقاً بهذه الجامعة، ورئيس اتحاد أساتذة وعلماء اللغة العربية لعموم الهند، انعقدت الجلسة الافتتاحية في 19 ديسمبر، والتي حضرها كضيف شرف، سعادة الأستاذ ماجد بن عبد الرحمن العتيبي نائب رئيس البعثة بسفارة المملكة العربية السعودية لدى جمهورية الهند.

كلمة الافتتاح: قدّم سعادة الأستاذ عبد الماجد قاضي، رئيس قسم اللغة العربية حالياً بالجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي، كلمة الافتتاح، تحدّث فيها عن أهمية اللغة العربية

¹ أستاذ مساعد (متقاعد) في قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي، الهند

ومكانتها في مجالات العلم والأدب، كما تطرق سعادته إلى جهود المملكة الجادة في اعتماد اليوم العالمي للغة العربية من قبل منظمة اليونسكو، حيث إنه هنا جميع المنسويين بلغة الضاد، والمهتمين بها بهذه المناسبة الهامة احتفاء باليوم العالمي للغة العربية.

كلمة الترحيب: ألقى سعادة الأستاذ أحمد بن محمد القحطاني القائم بأعمال الملحقية الثقافية السعودية بنيودلهي، كلمة الترحيب، رحّب فيها سعادته بجميع الضيوف والأكاديميين والأساتذة أجمع ترحيب، معرباً عن سعادته بتنظيم البرامج الثقافية احتفاء بهذه المناسبة الدولية الهامة، كما أشاد سعادة الأستاذ القحطاني بالجهود التي بذلها قسم اللغة العربية بالجامعة، في تنظيم هذه البرامج في حرما، حيث إنه شكر إدارة الجامعة المالية الإسلامية وبالأخص مديرتها البروفيسورة نجمة اختر جزيل الشكر والتقدير.

وفي ختام كلمته، خصّ سعادة الأستاذ القحطاني بالذكر حرص المملكة على نشر العلم والمعرفة ولاسيما خدمة اللغة العربية في كافة أرجاء الكون وعلى وجه الخصوص في الدول غير العربية لتدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها.

الكلمة الرئيسة: وفي هذه الجلسة الافتتاحية، قدّم سعادة الأستاذ محجب الرحمن، الرئيس السابق لمركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهرلال نهرو، بنيودلهي، الكلمة الرئيسة، تناول سعادته فيها واقع اللغة العربية كلغة الكتابة والعلوم والمعرفة والتقنيات والطب وتاريخه والفلسفة والكيمياء حاضراً وغائراً، بقدر من التفصيل، إذ تطرق سعادته إلى أصحاب اللغة العربية ولاسيما دور العرب في مجالات العلم والأدب مثل الرياضيات والتكنولوجيات والحيل وعلم الفلك، وإنه خص بالذكر دور العرب في تقديم طريقة كتابة الأعداد والأرقام التي تشتهر بالأرقام الأفرنجية.

وألقى سعادته الضوء النخاص على بعض العلماء والباحثين العرب وإسهاماتهم الهامة، من أهمهم جابر بن حيان، أبو يوسف الكندي، ابن سينا، الفارابي، ابن رشيد،

الإدريسي، ابن الهيثم وغيرهم. وقدّم أهم الاقتباسات التي كتبها المستشرقون عن لغة الضاد، منها: "إذا تعمق الفرد في اللغة العربية تجلّت له العلوم والمعارف"، "اللغة العربية ما زالت حية"، "اللغة العربية أقدم من التاريخ".

كلمة ضيف شرف: قدّم الأستاذ ماجد بن عبد الرحمن العتيبي كلمته التي تحدّث فيها عن تاريخ اللغة العربية وأهميتها وترويجها لغير الناطقين بها على وجه الخصوص، مبرزاً الجهود التي تبذلها المملكة في خدمة اللغة العربية عبر العالم، وكذلك جهودها المشكورة في اعتماد اليوم العالمي للغة العربية، لافتاً إلى أنّ اللغة العربية تعتبر أكثر اللغات انتشاراً في العالم، وأثرت في اللغات الأخرى تأثيراً إيجابياً، إنّ أهم ما ميّز اللغة العربية هو أن اختارها الله تبارك وتعالى لتكون لغة القرآن الكريم، وذلك شرف عظيم لم تحظ بها لغة أخرى.

وأكد سعادته على أنّ المملكة العربية السعودية قد حرصت على الاهتمام باللغة العربية محلياً وعالمياً، لذا أنشأت مراكز وأقسام اللغة العربية لغير الناطقين بها في أغلب الجامعات السعودية، لتستقبل آلاف الباحثين من مختلف دول العالم. كما أنشأت المملكة معاهد خاصة لتعليم اللغة العربية في مختلف دول العالم مثل إندونيسيا واليابان والولايات المتحدة. كما خصّ سعادته بالذكر مكانة اللغة العربية ضمن رؤية 2030م، حيث أنشأت المملكة مجمع الملك سلمان العالمي للغة العربية، وذلك استمراراً لجهودها تجاه تعزيز اللغة العربية ومكانتها.

كلمة المشرف على البرامج: تحدث سعادة الأستاذ الدكتور زبير أحمد الفاروقي المشرف على هذه البرامج، عن المسابقات التي نظمت في الخطابة العربية وكذلك مهارات الخط العربي، حيث رفع سعادته في مستهل كلمته، أسمى آيات الشكر والتقدير إلى مقام خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده ووليّ أمره وزير التعليم وسعادة سفير خادم الحرمين الشريفين لدى الهند وسعادة القائم بأعمال الملحقية

الثقافية ورئيس قسم اللغة العربية لدعمهم وتعاونهم في تنظيم هذه الاحتفالية المباركة، ومن ضمن البرامج مسابقتان: مسابقة الإلقاء ومسابقة الخط العربي، فيما وجهت الدعوة إلى حوالي 60 مؤسسة تعليمية من الجامعات العصرية والمدارس العربية الأهلية في مختلف أنحاء البلاد، لكي تكون المسابقات على المستوى الوطني، وتلقت الملحقية 35 ترشيحاً في مسابقة الإلقاء و22 ترشيحاً لمسابقة الخط العربي، وتم اختيار خمسة ترشيحات من كلتا المسابقتين.

مسابقة الخطابة العربية: تم تنظيم نهائيات المسابقتين في 18 ديسمبر 2021م، في حرم الجامعة المالية الإسلامية، حيث نال المتسابق حماد بن يوسف من الجامعة المحمدية ماليغون (مهاراشترا)، المركز الأول، والمتسابق محمد ضياء الدين من الجامعة القاسمية دار العلوم شاهي، مراد آباد، بولاية أترابرايش، المركز الثاني، والمتسابق شائق علي من دار العلوم ندوة العلماء بلكاؤ، المركز الثالث، والمتسابقة صالحة بنت عبد القادر من جامعة الصالحات، رامفور بولاية أترابرايش، المركز الرابع، والمتسابق عطاء الرحمن من الجامعة المالية الإسلامية بنيودلهي المركز الخامس.

مسابقة الخط العربي: وفي نهائيات مسابقة الخط العربي التي عقدت في 18 ديسمبر 2021م، فازت الأخت طوبى رقية من كيرالا، بالمركز الأول في مسابقة الخط العربي، والمتسابق شوقي ضيف من الجامعة السلفية مركزي دار العلوم بنارس (أترابرايش)، بالمركز الثاني، والمتسابق محمد أنس من الجامعة العربية تعليم الدين مئو (أترابرايش)، بالمركز الثالث، والمتسابق منصور أحمد هزاري من الجامعة المالية الإسلامية بنيودلهي بالمركز الرابع، والمتسابق محمد عباس بن شاكر علي خان من جامعة دلهي بالمركز الخامس.

كلمة رئيس الجلسة الافتتاحية: قدّم رئيس الجلسة الافتتاحية سعادة الأستاذ الدكتور حبيب الله خان، كلمته الرئاسية التي أعرب فيها عن شكره وتقديره بالغبين للملحقية الثقافية السعودية بالهند، على عقد هذه الاحتفالية الهامة الرائعة، احتفاءً

باليوم العالمي للغة العربية وذلك بالتعاون مع قسم اللغة العربية بهذه الجامعة التي هي معقل كبير لتدريس اللغة العربية وآدابها، كما أشاد سعادته بالكلمات التي ألقاها الأساتذة والضيوف بهذه المناسبة، معرباً عن عواطفهم الخالصة لهم.

ومن جانبه، هنأ سعادته كافة المهتمين باللغة العربية بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية وختم كلمته بـ"عاشت اللغة العربية أبد الدهر".

كلمة الشكر: في ختام الجلسة الأكاديمية، قدّمت سعادة الدكتورة هيفاء شاكري، كلمة الشكر أمام الحضور، شكرت فيها كلّاً من ضيف الشرف نائب رئيس البعثة بسفارة المملكة، والقائم بأعمال الملحقية الثقافية السعودية رئيس الجلسة والبروفيسور محيب الرحمن ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة، والأستاذ زبير أحمد الفاروقي المشرف على البرامج جزيل الشكر، كما أنها توجهت ببالغ الامتنان إلى مديرة الجامعة البروفيسورة نجمة أختر وإدارة الجامعة على تعاونها في تنظيم هذا البرنامج، كما أعربت عن خالص شكرها لكلّ من ساهم وتعاون في إنجاح هذه البرامج.

الندوة العلمية: عقدت الندوة العلمية ضمن البرامج تحت رئاسة سعادة الأستاذ شفيق أحمد خان الندوي، الرئيس السابق لقسم اللغة العربية بالجامعة المالية الإسلامية، والتي أدارها الدكتور محفوظ الرحمن، وشارك في هذه الندوة عشرة أساتذة، وقدموا أوراقهم البحثية حول شتى المواضيع المتعلقة بالمحور الرئيس لهذه البرامج الثقافية وفيما يلي أسماء المشاركين:

م	الاسم	المحور	الجهة
1.	أ. د. عبد الماجد قاضي	جهود المملكة العربية السعودية في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها	الجامعة المالية الإسلامية، نيودلهي

2. أ. د. نعيم الحسن	دور الجامعات الهندية في خدمة اللغة العربية وآدابها	جامعة دلهي
3. د. نسيم اختر	اللغة العربية وفرص العمل في مجال تقنية المعلومات	الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي
4. د. عبيد الرحمن طيب	مكانة اللغة العربية كلغة التواصل بين لغات العالم	جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي
5. د. أورنك زيب الأعظمي	دور الترجمة في نشر الثقافة العربية	الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي
6. د. محمد أكرم	اللغة العربية كوسيلة نشر التسامح الديني والسلام العالمي	جامعة دلهي
7. د. محمد أجمل	دور اللغة العربية في تعزيز العلاقات بين الهند والعالم العربي	جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي
8. د. سيد محمد طارق	صورة الهند وحضارتها في الأدب العربي	كلية ذاكر حسين التابعة لجامعة دلهي
9. د. عظمت الله	دور المدارس العربية الهندية في خدمة اللغة العربية وآدابها	الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي
10. د. جسيم الدين	الصحافة العربية في الهند	صحفي مقيم بدلهي

ولا يفوتني أن أذكر بأن المملكة العربية السعودية تبذل جهوداً مستمرة ومشكورة في ترويج اللغة العربية ونشرها عبر العالم ولا سيما لغير الناطقين بها، مما يعكس اهتمام

المملكة البالغ تجاه لغة الضاد ودعم نشرها بما تمثله من جسر التواصل بين الثقافات والحضارات، وخاصة توطيد الأواصر الثقافية بين الشعبين الصديقين لكلا البلدين.

والجدير بالذكر أنّ هذه البرامج الثقافية التي أقيمت على مدى يومين، شهدت حضور نخبة من الأكاديمين والباحثين في مختلف الجامعات الهندية مثل جامعة جواهرلال نهرو، وجامعة دلهي، وجامعة إنديرا غاندي الوطنية بجانب الجامعة المليية الإسلامية، من أهمهم الأستاذ محمد أيوب (مدير المركز الثقافي العربي الهندي)، والأستاذ رضوان الرحمن، والأستاذ نعيم الحسن أثري، والدكتور نسيم أختر، والدكتور فوزان أحمد، والدكتور عبيد الرحمن طيب، والدكتور محمد أكرم والدكتور محمد سليم، والدكتور محمد أجمل، والدكتور سيد محمد طارق.

تاج القصائد

في مدح النواب محمد كلب علي خان

- الشيخ محمد نذير خان المصطفى آبادي¹

إله الخلق مولانا جليل قديم قادر للكلّ إيل	نبيه أحمد صلّ عليه وسلّم أيها العبد الذليل
على الآل والأصحاب الكرام وأهل بيته، كلّ جميل	وبعدُ قل بمدح بالبدية لنواب العلي مدح جزيل
أديب ماهر حبر لبيب أريب باهر فرد جميل	فطين عالم بحر العلوم له في العالم ليس العديل
على الأقران والأمثال فوق كشمس في النجوم خذ دليل	على الآفاق فاق في السخا كبحر باذل كرمًا خليل
وإن فوق الخلائق لا تعجب فريبك بالبراهين أزيل	له فضل ورحان على الخلق نفذ مني على هذا دليل
لأن ماء الحياة على المياة جليل أجمل فوق فضيل	لاطمئنان قلبك قلتُ مثلاً كماء الزمزم بل سلسيل
لأنّ المسك من دم الغزال وفوق في المجالس يا خليل	محيط الجود جودي السخاء كدينار وفي الفضل فضيل
شجاع أشجع أسخى الزمان نبيل بارع نعم الكفيل	

¹ من علماء بدء القرن الرابع عشر الهجري. له مؤلفات منها "برء الداء بدواء الشفاء" (طبع في 1302هـ). كتب القصائد بالعربية والفارسية معاً.

فصيح أفصح الفصحاء طراً	بليغ أبلغ عتق عتيل
جبينه طالع بدر بشرف	تلاً لأ وجهه خد أسيل
حسين أحسن في الحسن فرد	مليح أجمل وجه جميل
بعطر الخلق عطر خلق عام	بنفحات اللطائف راح هيل
أمير قاطع البرهان لا ريب	من الأمراء ممتاز جليل
أمير صار في الأمراء أعلى	وفي الأمراء ليس له مثل
هو المنصور في حين الجدال	على الأعداء صمصام قتيل
هو العدل بنحو "زيد عدل"	عديم في العدالة له عديل
رموز العلم مكشوف عليه	جدير فائق خير دليل
هو التحرير ذو الحسنات جداً	له النعماء والفضل جزيل
عجيب الشأن ليس له رضاء	لأمر الخير بالقلب فصيل
هو اليعسوب بالطبع السليم	هو اليعسوب بالظل ظليل
كدلهات بآجام الشجاعة	وللضرغام كهف دون عيل
فهم يخفون من هول النوائب	ويسترهم بذيل الحفظ ميل
وللزلات يعنى بالكرامات	وللعثرات ألطافاً مقيل
هو النبراس للظلمات قطعاً	هو المصباح يهدي للسبيل
سراج العلم والعمل جميعاً	ضياء الشمس من نوره جميل
تعلم منه محمود الخصال	تفهم منه أخلاق جميل
فيوضاته لكل الخلق عام	سحاب هارم بحر طويل
حفي ألمعي لودعي	وفي العهد مولانا نبيل
دواء الداء للسقماء ذاته	إشارات شفاء يا عليل

وللمسكين والفرح اليتيم	كثير البر لا يعطى قليل
فإن يطلب غريب منه معزاً	هو يعطيه بالتعجيل فيل
خديب الخلق إكراماً إليه	وشدفي العنق حباً فتيل
له في عالم الدنيا سرور	وفي العقي نعيم سلسيل
هو المحسود في الآفاق علماً	وعاء الأحمد قول جميل
فأين في بلاد الدهر مثله	بعشق الأحمد أحد قتيل
ومنصور على الأعداء طراً	بنصر الله هو المولى الجليل
وليس الظالم الطلح بعصره	ولا الفساق والأشقي البخيل
يعيشون المحبون بعهدده	يفرون الأعادي والرحيل
على الأحياب عشرته سرور	على الأعداء فرحته وويل
هو المسك هو الورد بطيب	بريحان العواطف راح حبيل
هو الراضي من الحق بحق	ولا يرضيه أمر خزجيل
إله الخلق سلمه بعيش	بدارين هو النعم الوكيل
حماه الله عن شرّ النوائب	هو للشر والفتن أمزِيل
بعين الرحم انظر يا كبير	إلى المدّاح ليس له كفيل
لعمري يا أميري في لقائك	فؤادي عاشق، روجي كبيل
وهذا مدحك من جانب الله	كتبت في الحرم شاهد خليل
للشعراء دعوى العروض	أنا لا أعرف وتد دخيل
فعلم الشعر سحر بالدلوم	على الشعراء والبعض محيل
ومن يطعن على هذا الثناء	فثله ليس في الدينار ذيل
على هذي المدائح من تحسن	بعلم الشعر لا شك دخيل

وإن وقع الخطأ مني فأني من الإنسان والإنسان غيل
نذير في دعاء الخير مصروف ببال خاشع غدواً أصيل¹

¹ براء الداء بدواء الشفاء، ص 5-8